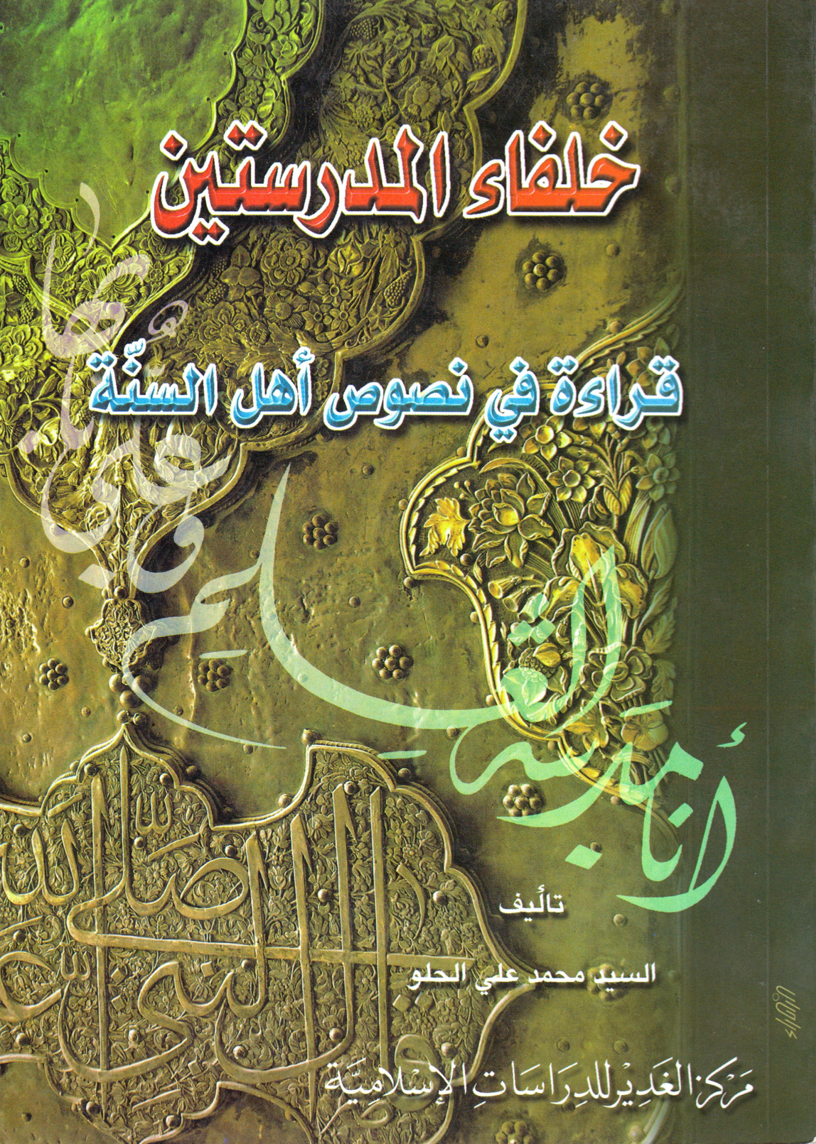


خلفاء المدرستين
قراءة في نصوص أهل السنّة
تأليف
السيد محمد علي الحلو
مركز الغدير للدراسات الإسلامية

خلفاء المدرستين

قراءة في نصوص أهل السنة

تأليف

السيّد محمد علي الحلو



مركز الغدير للدراسات الإسلامية



دائرة معارف الفقه الاسلامي

أسم الكتاب : خلفاء المدرستين

المؤلف : السيد محمد علي الحلو

الناشر : مركز الغدير للدراسات الاسلامية

الطبعة الأولى : ١٤١٩هـ-١٩٩٨م

المطبعة : محمد

الكمية : ٥٠٠٠ نسخة

الإهداء

إلى أتباع مدرستي النص والاجماع

إنها مقوماتُ الشخصية . .

الحدث . .

القضية . .

فاكتشفتُ أنَ بينَ الخيرِ والشرِ

مساحاتٌ شاسعةٌ

يحقُ فيها إعادة قراءة الذات

محمد علي الحلو



﴿أفَمَنْ يَهدِي الى الحَقِّ أحَقُّ أَنْ يُتَبَعَ أمَّن لا يهِدي إلَّا أَن يُهدَى فما لَكُم كَيْفَ تَحكمُون﴾

صدق الله العلي العظيم

(سورة يونس: الآية / ٣٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير:

ظلّ الكاتب والمؤرخ الاسلامي يعاني عقدة التهيب لدى خوضه في حوادث الحقبة الأولى من تاريخ الاسلام.. ذلك ان تلك الفترة التأسيسية لمجد الاسلام هي الفترة المشرقة التي شهدت انطلاق الحضارة الاسلامية وانتشارها.

ومن هنا وجد الاسلوب التبريري طريقه في معالجة وتفسير حوادث تاريخية هي في الواقع منعطفات حادّة ومريرة في مسار الاسلام حضارياً.

ولقد أسهمت عوامل عّدة في تجذير هذا الاسلوب بسبب الظروف الاستثنائية التي مرت بها حركة التاريخ آنذاك.

وهكذا فان الضمير المسلم واجه ظاهرة التبرير الذي يصل في بعض الاحيان حالات تعسفية لم يعد يتحملها في عصرنا الحاضر.. العصر الذي شهد انطلاقة العقل الانساني من أسر التقاليد المثقلة بالخرافات والاساطير؛ وهو ما يفسر أيضاً ظهور دراسات عميقة وجريئة في مضمار الدراسات التاريخية خاصة في العقود الاخيرة من القرن الحالي.

فلم يعد الضمير المسلم ليستسيغ اليوم مقولة أن (سيدنا) معاوية دس السم الى سيدنا الحسن!! وأن سيدنا فلاناً اجتهد فاخطأ! حتى لو أسفر ذلك (الاجتهاد) عن سقوط آلاف القتلى والجرحى الابرياء.. حتى لو أدىٰ ذلك الاجتهاد الى

تشريد عشرات العوائل المسلمة وتهديد مئات اليتامىٰ بالموت جوعاً وحتى لو أحدث ذلك الاجتهاد شرخاً في المجتمع الاسلامي.

ان فلسفة القرآن الكريم التي طرحت معادلة الصراع الانساني منذ هبوط آدم بل ومنذ ولوجه الجنّة قد بلورت وجدان المسلم على فكرة الخير والشر..

فحيثما احتدم الصراع فلابّد من وجود الحق في جانب أحدهما.. أما أن يتقاسم الفريقان الحق بالتساوي، ثم يقف المؤرخ محاولاً تبرير ذلك فتلك مأساة العقل المسلم!

لقد أسفرت حوادث التاريخ عن بروز تيارين متقاطعين؛ تيار يحاول توجيه حركة التاريخ ودفعها في الاتجاه الصحيح عبر تحديد غائية المسار الاسلامي.. وآخر يحاول تبرير وقائع التاريخ ذاتها ومنحها صفة الشرعية، حتى لو جاء هذا التبرير على حساب الضمير المسلم الذي يشهد في الوقت الحاضر صحوته الكبرىٰ.

وما هذا الكتاب إلّا خطوة في هذا الطريق.. الطريق الى اكتشاف الحقائق واضاءة الذاكرة الاسلامية في محاولة لتحديد غائية المستقبل.

مركز الغدير

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين. اللّهمّ صلي على خير خلقك وأفضل بريتك محمد وآله المنتجبين الميامين.

وبعد:

بدأت انتفاضة العقل المسلم، حين وجد مكتبتهُ الإسلامية تقدم أوراقها المبعثرة، بين واقعية الحدث الإسلامي، وبين توجهات المؤرخ الإسلامي، في الوقت الذي تتجه الحاجة الملحة لقراءة الذات المسلمة من خلال الشخصية، الحدث، الموضوعية، التحليل، ومن ثَمَ النتيجة.

لم تعد مقومات القضية التاريخية هذه تشارك بشكل فعّال في تقديم الرؤية الواقعية للحدث الإسلامي، ذلك أن المأساة التي إسمها «الفجوة الثقافية»، ساهمت بالقسط الوافر في نفور القارئ إلى دراسات أهل الاستشراق المقيتة لانعدام الثقة بأكثر ما يطرحه المشروع التاريخي الاسلامي.

أجل، انتفض العقل المسلم على واقع كتاباته التقليدية حينما وجد حقيقة الحدث الإسلامي تختفي خلف الجدار المقدس الذي يصنعه الكاتب الإسلامي للحادثة التاريخية، ومن ثَمَ يبدأ الكاتب بتهميش القضية التاريخية بعد تأطيرها بالهالة المقدسة لشخص الصحابي، للحدث، للواقعة، لحيثيات القضية، فيُنهي الجولة منتصراً على فكر القارئ ووجدانه.

لم تعد هذه الحالةُ عملية اليوم، في الوقت الذي تنتاب بنيتنا الفكرية هزات عنيفة قادمة من خلف حدود الوطن الاسلامي، لتجتاح برياحها منطقة الفراغ

الفكري، فتحدث تخلخلاً واضحاً في الرؤية العامة.

ولعل محاولتنا هذه ستسهم بشكل أو بآخر في فك طوق الحصار الثقافي الذي سببته مطبّات ثقافية، أفرزتها ظروف سياسية غير رشيدة.

درج الكتاب الاسلاميون ـ وللاسف ـ أن يتعاملوا مع الشخصية الإسلامية على ضوء القداسة المفتعلة، التي أسهمت في إيجادها افتعالات غير ناضجة، كانت من ورائها معطيات سياسية خفية، فالتحرج الذي يُبديه الكاتب الاسلامي في نقد الشخصية، أو أحياناً في سردها مع تهيئة التبريرات غير العقلائية للاختراقات المرتكبة، تفرض على الكاتب اتباع اللاموضوعية، بل ارتكاب المجازفة في أحايين كثيرة، حتى كلّف القارئ جهداً باهضاً لاستنتاج الحقيقة بعد محاولة تصفية الحدث التاريخي من صفة اللامسؤلية المترسبة من كوامن أعماق الكاتب أو توجهاته.

كما حاول بعضهم أن يفتعل حبكة قصصية لترتيب دراما هزيلة، عن زهد الخليفة، تواضعه، كرمه، بأسه، شجاعته، ورعه، إلى آخر الصفات، ليقابل البخل بالزهد، واللهو بالتواضع، وغدق العطاء على المغنين والمازحين من الشعراء بالكرم، والظلم بالبأس، والتجبر بالشجاعة، والورع باللا مبالاة، كل ذلك حاول الكاتب، وبتعثر واضح أن يعالج حياة الخليفة للمحافظه على قدسية الخلافة «المفتعلة».

هذا من جانب، ومن جانب آخر حاولت الأقلام النزيهة الموضوعية دراسة الشخصية الاسلامية على ضوء الحقيقة التاريخية، فضلاً عن المبتنيات الاسلامية التي تحدد سلوكية الخليفة وتحركه.

في حدود تتبعي لم أجد دراسة تجمع خلفاء مدرستي النص والاجماع،

ومحاولة المـقارنة بـين الشـخصيتين ، وذلك لتـوفير الفـرصة المـناسبة للـقارئ والباحث مـن أن يكـوّنا صـورة واضـحة لرؤيـتهما الفـردية أو العـامة كـذلك . ومحاولتي هذه هي امتداد لتجربتي السابقة عند دراسة عـقائد الإمـامية بـروايـة الصحاح الستة ، حيث وجدتُ منطقة فراغ ، ثقافي ، فكري ، تاريخي ، لا يملأه إلّا أسلوب بحوث «التاريخ المقارن» إذا صح التعبير ، وحاولت دراسة هذا «التاريخ المقارن» برواية نصوص أهل السنة ، لتفعيل بحوث الحدث الاسلامي والابتعاد عن اسلوب تهميش الحدث ، أو تقزيم القضية الاسلامية .

والله من وراء القصد.

السيد محمد علي الحلو

قم المقدسة / ٢٥ ربيع الثاني / ١٤١٨ هـ

المدخل

تمخضت سنوات الصراع الفكري عن بروز مدرستين متقابلتين، إحداهما نشأت بُعيدَ رحيل النّبيّ صلى الله عليه وآله، والثانية كانت امتداداً لمدرسة أرسى دعائمها النّبيّ صلى الله عليه وآله من قبل، وحرص على إبرازها كمظهر من مظاهر العطاء الإلٰهي الكريم.

توغلت المدرستان في خضم الحدث الإسلامي العام، وتفاعلت معهما مراكز قوى سياسية واجتماعية بل وحتّى اقتصادية، وأفرزت على غرارها أُطروحات عملية وفلسفات تنظيرية، التزمت بإخراجها تلك القوى المذكورة، فبينما اتخذت بعض هذه القوى موقفاً خاصاً من إعلان السقيفة، انضمت إلى كتلتها فوراً بعد مفاوضات عاجلة تحت تأثيرات كان للإيحاءات المستقبلية الحظّ الاوفر فيها، ليحسم الموقف لصالح الشيخين، ذلك أنّ هذه القوى لم تجد بديلاً عن كتلة الشيخين غير علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو من المعلوم سوف لن ينسجم مع أية اطروحة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تتخلف ولو قليلاً أو مؤقتاً عن المنظور الإسلامي، وسيكون حزم علي وعدم مساومته تفويتاً لفرصةٍ يوظّفها بعضهم لصالحه، فقبلت هذه القوى بالوضع الجديد على أمل الحصول على فرص جديدة تفرزها الأحداث الساخنة التي تفسح المجال لأي قوة تترك أثراً على الواقع الجديد لمناصرة الشيخين.

لاقت كتلة الشيخين احتجاجات لم يكن من اليسير التغاضي عنها، أو الالتفاف عليها واحتوائها على أنها حالة وجدانية ناشئة عن تخطي أشخاص أو كتل واستبعادها عن معترك الأحداث، بل كانت هذه الاحتجاجات نابعة من صميم الواقع العملي المعاش متوّجاً بنصوص تكشف عن تراث نبوي مدّخر، يؤكد الخليفة الشرعي ويعارض بصراحةٍ أية محاولة فردية أو جماعية يكون من خلالها استبعاده.

لم يخفِ علي معارضته، ولم تخف السقيفة إقرارها له كذلك، بل لم يستطع المهاجرون والأنصار كتمان استنكارهم، حتّى خرج سيد الخزرج سعد بن عبادة مغاضباً دون أن يمد يده لمن بسطها في سقيفة بني ساعدة للبيعة، قال المسعودي: «لما بويع أبو بكر في يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة، خرج علي فقال: أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع حقاً، فقال أبو بكر: بلى، ولكني خشيت الفتنة. وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل ومجاذبة في الإمامة، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع فصار إلى الشام فقتل هناك»[١].

❊ ❊ ❊

وأنت إذا تمعنت في كلام المسعودي تصوّرت الحالة العامة المائجة بكل اعتراض، والهائجة بكل استنكار، مما اتخذ من قرار يوم السقيفة، فاستنكارُ الأنصار غير اعتراض المهاجرين، وتوبيخُ علي لأصحاب السقيفة غير تمرد أبي سفيان، وغضب سعد بن عبادة على قرار السقيفةِ غير تردد عثمان وبني أبيه في إعلان التأييد والرضا بالخليفة الجديد، واستنفار سلمان والمقداد وعمار وأبي ذر

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٣٠٧.

غير تروي سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف في إعطاء البيعة للشيخين.

فالأنصار استنكروا على الشيخين، حيث استُبعد شيخهم سعد رئيس الخزرج وقد عرفوا فيه القدرة على الإدارة واللياقة للرئاسة، وليس للأنصار وهم أهلها من خطر في رسم الأحداث بعد أن بذلوا لإخوانهم المهاجرين كل غالٍ ونفيس إبّان المحنة، يوم هاجر المسلمون إليها فتخلوا عن كثير، وآثروهم على الأهل والأولاد، فضلاً عن تصدر المهاجرين الأحداث وتدافعهم على مناصب الدولة الفتية، وقد غض الانصار طرفهم عما يعتري إخوانهم المهاجرين من شعور، فأحس النّبيّ ﷺ بذلك وأشفق على الأنصار من أن يهضموا، فآخى بين الفريقين وجعل لكل مهاجر أخاً في الله من الأنصار، وتجاوز الأنصار الأزمة حرصاً على ألّا يسخطوا رسول الله ﷺ في أصحابه، فعاجل النّبيّ باستبعاد كل من تاقت نفسه لاستغلال الظروف تجبراً على إخوانه أهل المدينة من الأنصار، وردّدَ رسول الله ﷺ في أكثر من مناسبة حبه للأنصار، وجعلهم الشعار والدثار، وقرّبهم واسترضاهم بعد أن أشفق عليهم وهم يتكتمون على تحركات بعض المهاجرين، الذين ظنوا أنهم أولى برسول الله ﷺ من غيرهم، وأنهم ذوو السابقة في الإسلام وقد صدّقوا النّبيّ ﷺ وآزروه، فتوهموا بعد ذلك أن لهم السبق في كل شيء حتّى في قربهم من رسول الله ﷺ، فظن الأنصار بذلك خيراً وحملوا إخوانهم المهاجرين على أحسن محمل، وحاولوا أن يتجاوزوا كل ذلك ليَسْموا إلى رضا الرب تعالى ومناصرة نبيهم على كل حال.

هكذا كانت العلاقة بين الحيّين، تخترق بين الحين والآخر نزعة العصبية قلوب أبنائها، لتحرّكَ مشاعرهم الجياشة بكل ما يحمله المستقبل من تطلعات، فمنهم مَنْ يتربص إلى تحقيق طموحات سياسية كبيرة تهيئهم لاحتلال أهم مناصب الدولة الفتية، ومنهم من يتطلع إلى نشر الرسالة خارج حدود الجزيرة،

وقد وطّن نفسه على الشهادة والفداء لرسالة ربه، فيمهّد السبيل لرسول الله ﷺ أو خليفته الشرعي أن يبلّغا ما أمرهما الله به، ويصدعا بكلمته الكبرى.

والقبلية تربض في تلك المدينة القبائلية، فتبسط يديها بين بيوتاتها لتهز ذنبها مشيرة إلى استعدادها للانقضاض على كل شيء، والنّبيّ ﷺ يجهد في ترويضها حتّى غفت على حنين كلمة ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[1] فتحولت عندها إلى فراشة تحمل الرحيق بين بيوتات المهاجرين والأنصار، فيلعقون من عسل الرسالة حلاوة الإيمان والإيثار.

* * *

لم يكن بعد رحيل رسول الله ﷺ ما يقلق الأنصار على خلافته، وظنوا أن إخوانهم المهاجرين قد وافقوهم في رؤاهم هذه، ذلك لأنّ النّبيّ ﷺ جهد في تعيين خليفته عليّ بكل ما كانت الكلمة أو الفعل يحملان من معنى الخلافة والإمامة والوصاية، فاستفادوا من نصوص النّبيّ ﷺ الخلافة بعده لعلي، كما أنهم استفادوا من ذلك الإمامة فيه والوصاية إليه، ولم يكن يجول في أذهان الأنصار أن إخوانهم المهاجرين قد بيّت بعضهم غير ذلك، حيث اختبؤا خلف جدران السقيفة ليخرجوا بمقالة غير ما اعتادها المسلمون وألفها الأنصار، ولم يكن الأنصار قد اطّلعوا على ذلك من قبل، وهم أهل الخطر والحظوة في العدة والعدد، وليس المهاجرين إلّا رجال صحبوا النّبيّ ﷺ في هجرته يعيشون في كنف إخوانهم الأنصار تحت رعاية رسول الله ﷺ، فكيف يتقدم على الأنصار أحد؟ وهم قد حملوا يثرب على أكفهم ليقدموها إلى رسول الله ﷺ مدينةً تسمى باسمه الشريف، فغيّر اسمها من يثرب الخزرج إلى مدينة محمّد ﷺ،

---

(١) الحجرات: ١٣.

وقد تحدوا العرب من مكة وما والاها، إلى اليمن وما حاذاها، وشام قيصر وفارس كسرى، تتربص بأي قوة تجاهدهم لانتزاع ملكهم، وتستبدلهم من ملوك حواضر إلى رعايا أهل الملة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، أو رعايا من أهل الذمة يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، فلماذا يتقدم على الأنصار غير الأنصار؟ ولِمَ يحكم مدينة رسول الله ﷺ ـ وقد كانت بالأمس يثرب الخزرج ـ رجل من عدي مكة، ويقرّه على ذلك ابن تيمها لتكون له الكلمة النافذة على خزرج المدنيين؟!

وإذا كانت الخلافة في قريش ـ كما قال رسول الله ﷺ أكثر من مرة ـ فلا يعرف المدنيون غير قريش أبي طالب، الذي حكم الحجاز وأقرت له الجزيرة وحواضرها، وقد ترعرع النبيّ ﷺ في كنفه، ومَنْ غير علي من آل أبي طالب هو أليق بخلافة ابن عمه، تربّى في حجره، يشمه عرفه ويسمعهُ الوحي ويُسرّه ويناجيه، ثم هو بعد ذلك يوصي إليه، ويوصي المسلمين باتباعه.

كل ذلك جال في خواطر المدنيين الأنصار، واستوقفهم سؤال بعد سؤال، واستطردتهم الأحداث لتُذكّرهم بما قاله النبيّ ﷺ لعلي كما رواه سعد عن أبيه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»[١].

وما رواه عمران بن حصين قال: «إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي»[٢].

هذا ما اختزنهُ المدنيون في ذاكرتهم فضلاً عن لياقة علي نسباً وحسباً، فهو ابن النسب القصير، أبوه شيخ البطحاء، أبو طالب بن عبد المطلب «وكان عبد

---

(١) البخاري: ٢: ٣ باب فضائل الصحابة، دار الجيل.

(٢) سنن الترمذي: ٥: ٦٣٢.

المطلب أحسن قريش وجهاً ، وأمدهم جسماً ، وأحلمهم حلماً ، وأجودهم كفاً ، وأبعد النّاس من كل موبقة تُفسد الرجال ، ولم يره ملك قط إلّا أكرمه وشفّعه ، وكان سيد قريش حتّى هلك»[١].

وعبد المطلب هذا ابن هاشم و «كان صاحب إيلاف قريش ، وإيلاف قريش دأب قريش ، وكان أوّل من سنَّ الرحلتين لقريش ، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه ، فأصابت قريشاً سنوات ذهبت بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له ، فحمله في الغرائر على الإبل حتّى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ، ونحر تلك الأبل ثم أمر الطهاة فطبخوا ، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ، فكان ذلك أوّل الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشماً . .»[٢].

فضلاً عن كون عليّ ابن عم رسول الله ﷺ ، وصهره على ابنته فاطمة عليها السلام ، وأبا سبطيه سيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام .

هذا من حيث النسب ، فما أطيب المحتد ، وأكرم الأرومة ؟

أمّا من حيث الحسب ، فهو أعلم الناس ، ففيه قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت بابه»[٣].

وهو أشجع الناس ، فعن أبي رافع قال: «لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية [في غزوة أحد] أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم ، فحمل عليهم ، ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبدالله

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٨٥، دار صادر ـ بيروت.
(٢) المصدر السابق: ٨٦.
(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٤: ٤٤ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الجمحي. قال: ثمّ أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم، فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي، فقال جبرئيل: يا رسول الله، إن هذه للمواساة، فقال رسول الله ﷺ: إنّه منّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً:

لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي»[١]

وهو أزهد الناس، فعن عمار بن ياسر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: يا علي إن الله عزّوجلّ قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها، الزهد في الدنيا فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً، ولا تنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبّك وصدّق فيك، وويل لمن أبغضك وكذّب عليك، فأما الذين أحبوك وصدّقوا فيك فهم جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصر، وأما الذين أبغضوك وكذّبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين»[٢].

إلى غير ذلك من كرائم الصفات، وأطايب السمات، وهي ذاتها شروط الإمامة التي اشترطها أصحاب مدرسة الإجماع[٣]، وإذا كانت هذه المكرمات جرت بين يدي الأنصار، وفي محضرهم وأمام أعينهم، وبين ظهرانيهم، حتّى لهج بها أكابرهم، ونشأ على ذلك صبيانهم، وصار ديناً لأوّلهم يوصي به آخرهم، فهل لهم مندوحة للتخلي عن مبايعة علي، أو على الأقل نصرته في تصديقه أنّه وصي رسول الله ﷺ وحامل سره والمبلّغ عنه؟

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٥١٤، دار سويدان ـ بيروت.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٤: ٢٣.

(٣) انظر شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ٥: ٢٤٣، منشورات الشريف الرضي ط الاولى، ١٩٨٩م.

وإذا كان الأمر كذلك فهل يعذر الأنصاري نفسه بالسكوت، ويقنع بالانعزال ويرى تراث رسول الله ﷺ في وصيه قد تخطته أيدي المهاجرين في سقيفتهم فصار كأحد الأنصار مهضوم الحقّ قد أفسد عليه أمره فلم يرع له نصيب ولم يستشر في كبيرة ولا صغيرة؟ ثم هم بعد ذلك يحملوه كرهاً على المبايعة، وإلّا حرّقوا عليه الدار حتّى لو كانت فيها فاطمة، فإن لم يبايع ضربوا عنقه! قال ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة: إن أبا بكر رضي الله عنه تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص، ان فيها فاطمة! فقال وإن. إلى أن قال: وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا علياً فمضوا به إلى أبي بكر فقالوا له: بايع. فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذاً والله الذي لا إله إلّا هو نضرب عنقك. قال: إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسوله» إلى آخر الخبر[1].

هذا ما دفع الأنصار إلى الاستنكار على إخوانهم المهاجرين، وقد ساواهم الله بالإسلام وأكرم المسلمين بنبي المسلمين، وهداهم جميعاً بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأي فضل صار بعد ذلك للمهاجرين على الأنصار؟ وأي حقّ تقدم به مهاجروا مكة على أهل المدينة ليحكموا مدينتهم، فيكون أهل البلد رعايا لمهاجرته مسلوبي الرأي مغدوري الحق، قد استضعفهم رجالٌ من إخوانهم؟ وقد أنزل الله فيهم قرآناً امتدحهم على ما آثروا من إخوانهم المهاجرين على الأهل والأولاد، وشكر الله إيثارهم وعظّم ذلك لهم فقال تعالى:

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٢، ط٣، ١٩٦٣ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر.

﴿والَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالأَيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ممَّا أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

ولم لا ؟ وقد قال فيهم رسول الله ﷺ خير مقالة ، وأكبرهم وحباهم وترحم عليهم ودعا لهم ولأولاد الأولاد منهم فقال: «اللّهم اغفر للأنصار ولابناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[٢] وقوله ﷺ للأنصار: «أنتم أحبُ الناسِ إليَّ»[٣] وقوله ﷺ: **«الأنصار لا يحبهم إلّا مؤمن، ولا يبغضهم إلّا منافق، فمن أحبهم أحبهُ الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»**[٤].

وقال ﷺ: **«الأنصار شعار والنّاس دثار، ولو أن النّاس استقبلوا وادياً أو شعباً واستقبلت الأنصار وادياً، لسلكت وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت أمرأً من الأنصار»**[٥].

فأيُّ واد ـ يرحمك الله ـ تسلكه الأنصار ؟ غير أنّه ﷺ كنى عن الطريقة التي يسلكها الأنصاري حيال دينه وشؤون أحكامه ، وهل هو إلّا إمضاء لما ستؤول إليه الأمور بعده من امتناعهم عن البيعة للشيخين باديء ذي بدء ، ثم هم يبايعون كارهين وقد رأووا أن المهاجرين غلبوهم بالوعد والوعيد وإنّها الفتنة تنذر بهم ؟ وما عسى الأنصار أن تفعله بعد مَيْلِ المهاجرين ومن دار في فلكهم من الأنصار الأوسيين منافسة لخزرج المدينة التي ما زالت دماؤهم لم تجف بين فريقين تقاتلاً

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) صحيح مسلم، باب فضائل الأنصار ٧: ١٧٣، دار المعرفه ـ بيروت.

(٣) صحيح البخاري، باب فضل الأنصار ٥: ٤٠، دار الجيل ـ بيروت.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سنن ابن ماجه باب فضائل الأنصار ١: ٥٨ دار الفكر بيروت لبنان.

بعد دهر حتّى مَنَ الله عليهم برسوله فأطفأ نائرتهم وأصلح بالهم ؟

* * *

ولم يكن سعد سيد الأنصار إلّا أحد قومه يحس بما يتوجسه خزرجه من غلبة مهاجرة المدينة على الأمر، وليس لسعدٍ حيلة من نصرة ابن عم رسول الله ﷺ سوى قبض يده عن البيعة أخيراً بعد أن جاهد ليُثني عزم إخوانه المهاجرين من أن يركبوا الصعاب شططاً، ويخلّفوا وصي رسول الله علياً كالمستضعفين من الرجال يطالبوه كرهاً بالبيعة ! حتى انثنى لهم مغاضباً، وهو يعلم أن إمتناعه عن ذلك سيؤدي ببعضهم إلى أن يميلوا على الدين ميلةً واحدة فيكون نهباً للأهواء وغرضاً للأطماع، فآثر التربص بعد لأيٍ من المطالبة فصدوه ولم يسمعوا له مقالة، فصبر وفي الحلق شجى وفي العين قذى .

وتبعه على ذلك لمةٌ من أهل السابقة في الإسلام، وجمع من حفدته وهم أهل القرب من رسول الله ﷺ، وكان سعد بن عبادة أحدهم، حتّى زاد في استنكاره أن لم يبايع، فأخرجوه إلى حران حتّى لا يفسد عليهم أمراً، فقتل هناك، وقيل أن الجن قتلوه، ولا نعلم قبل سعد وبعده أن الجن قتلت أحداً . . ! !

كان سعد بن عبادة «نقيب بني ساعدة عند جميعهم وشهد بدراً . . وكان سيداً جواداً وهو صاحب راية الأنصار في المشاهد كلها وكان وجيهاً في الأنصار ذا رياسة وسيادة، يعترف قومه له بها وكان يحمل إلى النّبيّ ﷺ كل يوم جفنة مملوءة ثريداً ولحماً تدور معه حيث دار . . . دعا له النبي ﷺ قائلاً: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . .»[1] وهل ترجو من سعد ـ بعد هذا

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لأبن الأثير ٢: ٢٨٣ دار إحياء التراث العربي بيروت.

كله ـ أن ينافس في الخلافة أهلها ؟ وهو السيد اللبيب ، والكيس الرشيد ؟ وهل تجد لسعدٍ مندوحة في المطالبة بالبيعة لنفسه وقد علم مكانة علي من رسول الله ﷺ وسمعه يوصي به ويوصي إليه ، على مرأى ومسمع من سعد في غير موضع وفي غير مرة ؟ فعن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ادعوا لي سيد العرب ـ يعني علي بن أبي طالب ـ فقالت عائشة ، ألست سيد العرب ؟ فقال: أنا سيد ولد آدم ، وعلي سيد العرب ، فلما جاء أرسل إلى الأنصار فأتوه ، فقال لهم يا معشر الأنصار ، ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبدا ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال: هذا علي فأحبوه بحبي ، وأكرموه بكرامتي ، فإن جبريل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عزّوجلّ[1].

فكيف يخالف سيد الأنصارِ ما أوصى به النّبيّ ﷺ الأنصارَ ؟ وكيف يجلس في سقيفته يوم البيعة ليطالب بالبيعة وقد كان يومها دنفاً لا يقوى على شيء ؟ إلّا إنّه خرج أخيراً ليُثبّط ما عزم عليه بعض إخوانه من أهل الهجرة ليلويهم عن عزمهم ويذكّرهم بمغبة تسرعهم لأخذ البيعة لأنفسهم ، فقالوا إن سعداً طمع بالخلافة فنافسنا على السلطان فاقتلوه ، قتل الله سعداً .

هذا ما رواه الخليفة الثاني من يوم السقيفة بقوله: إنّه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ ، أن الأنصار خالفونا فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة ، وتخلّف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما .. إلى أن يقول: فقلت أبسط يدك ياأبا بكر ، فبسط يده فبايعته ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم قتلتم سعد بن عباده ، قال

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ١: ٦٣.

فقلت: قتل الله سعد بن عبادة[١].

وهل تجد في من دعى له النّبيّ ﷺ ولآله ـ وقد قبض يده عن البيعة ـ سوى إمضاءً له من رسول الله ﷺ لحُسن ما سلكه سعد وآل سعد في الإمتناع عن البيعة ؟ فقال: اللهم إجعل صلواتك ورحمتك على آل سعدبن عبادة، ونحن نقول اللّهم آمين فاجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة، ومن سار على نهجهم في متابعة لاحب الحقّ ومنهج الصدق في علي وآله المنتجبين.

إذن، فكان ما لّفقه البعض على سعد من أنّه أراد البيعة لنفسه، هو تبريراً لهم على أن الأمور آلت إلى الفتنة، فخافوا من نشوبها، وكأن الفتنة تُطفئ نائرتها بيعة الشيخين، وكأن علياً في بيعته بعد نص النّبيّ ﷺ عليه لم يكن أهل في إندمال الجرح ولا رتق الفتق... أم ماذا ؟

* * *

هذا ما كان من حال الأنصار وسيدهم، وهذا ما كان من حال المهاجرين وبيعتهم، ولم يكن هذا الحال بين المهاجرين والأنصار، من رد ورفض، أو إنكار وتأييد، ووعدٍ ووعيد، قد اختص به حي الخزرجيين دون غيره، بل كان الحال بين المهاجرين والمهاجرين أنفسهم، فبينا هم يرفضون البيعة بدءاً، وإذا بهم يتوعدون من تخلّف عنها، ويلومون من أبطأ فيها، وليس ذلك وحده، بل يتربصون الدوائر بمن أراد استبدال قوم بقوم، أو بيعةً دون بيعة، وكادت قبليّةُ مكة تغلبُ قبليّةَ الحيين من المدينة، وكادت عصبية المكيين تثأر للأنصار من

---

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٤: ٢٢٦ دار الجيل بيروت ١٩٧٥. وكذا مثله في السيرة النبوية لأبن كثير ٤: ٤٨٩ دار أحياء التراث العربي ومثله أيضاً في البداية والنهاية لأبن كثير ٥: ٢٤٨ مكتبة المعارف بيروت.

الأنصار، فخزرج المدينة غير أوسها، ففي الأوس كل تأييد، وفي الخزرج كل استنكار.

ففي الأوسيين ثارت نعرةٌ يوم ذاك، فذكّرتهم بما بينهم وبين الخزرجيين من دماء، وفتنٍ وبلاء، وكأن أُسيد بن حضير من نُقباء الأوس، قد نسي ما تعهد به لرسول الله ﷺ من نبذ ما بينه وبين الخزرج من حزازة وعداء، وكأن جهد رسول الله ﷺ قد نازعته العصبية، فأخذت تجول بعد غيابه بين المدنيين والمدنيين، وبينهم وبين المكيين، حتى استجاب أُسيد لنزعته، فقال لأهله الأوسيين: لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه. فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه، فبادروا إليه، فأخذوا سيفه منه، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتّى فرغوا من البيعة، فقال: فعلتموها يا معشر الأنصار؟ أما والله لكأني بأبنائكم على أبواب أبنائهم، قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء[1].

ولم يُصب أُسيد وقتذاك، فأيُ فضيلةٍ يحوز عليها من نازع الحق أهله؟ وهل إنتزاء الأنصار على الخلافة ـ لو صح ذلك ـ منقبة يُحسدون عليها؟ وقد سمعوا من رسول الله ﷺ ما أوصاهم بعلي، فقد وضع الأمر فيه دون غيره، عهد عهده عن الله تعالى، فهل في مخالفة الله تعالى فضيلة؟ وهل منازعة الحقّ أهله منقبة؟ أم لا يريد أُسيد ساعتئذٍ إلّا إرضاء تلك العصبية التي ما برحت تجول في نفسه لتخمد أنفاسه وهو سيد الأوس ونقيب المدينة؟

(١) الإمامة والسياسة لأبن قتيبة الدينوري ١: ٩، ط٣، ١٩٦٣ مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر.

وكما لم يفلح أُسيد الأوسيين في فعلته عند ئذٍ، لم توفق الأنصار جميعاً كذلك حينما قادها عنادها إلى أن تُفلت الأمور إلى أهوائها، فكل حي رضي بالبيعة دون تروٍ، تحسباً لأن يسبقه المنافس من طرفه، فالأوسيون خافوا أن يكون الأمر في غيرهم من الخزرج المنافسين، وخزرجُ سعدٍ، خالفوا سعداً في مبايعتهم لأهل السقيفة، مكابرةً لمنافسيهم الأوسيين الذين سبقوهم إلى بيعة الشيخين تحسباً من أن يقدّم من بايعه الأوس، أوساً، فيتأخر بذلك نصيب الخزرج من الحظوة عند الخليفة الجديد، ويحوز الأوس فضل السبق للبيعة عند ذاك.

وهكذا أركست الفتنة أحياءَ المدينة، وندم الأنصار على فعلتهم، وتراجع أشرافهم، واعتذروا، ولات حين مناص، حتى قالوا لو أن علياً سبق أبا بكر البيعة ما عدلنا به أحد، فقد روى ابن قتيبة ما نصه: «قال علي كرم الله وجهه: الله الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمّد في العرب عن داره وقعر بيته، إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في النّاس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحق النّاس به، لأنّا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع أمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنّه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بعداً.

فقال بشير بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان.

قال: وخرج علي كرم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا

به ، فيقول علي كرم الله وجهه أفكنت أدع رسول اللهﷺ في بيته لم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»[1].

وهل في قول بشير بن سعد هذا مندوحة من التخلف عن نصرة علي بن أبي طالب ؟ أوليس بشير وقومه سمعوا من رسول اللهﷺ مثل هذا الكلام ، وأكثر من هذا الكلام ؟ وهل الكياسة في الأمور إلّا التروي في معرفة عواقبها ؟ أم هي نزوة رمت بالرشيد منهم ، وعصفت بالحليم فيهم ، فهل بعد ذلك اعتذار ؟

* * *

ولا تذهبن بك المذاهب ، من أن الأنصار أهل ثناء ودعاء من قبل رسول الله ﷺ ، حتّى أحب أن يكون رجلاً منهم ، وإنّه سالك ما سلكته الأنصار ، أفليس هو إمضاء لفعلة الأنصار من إعطاء البيعة لأهل السقيفة من شيوخ المهاجرين ؟

لكن الحق الذي نقوله ، إن رسول الله ﷺ ما دعا إلّا لمن اتبع سنته من الأنصار ، وما أثنى إلّا على من سلك منهجه واهتدى بهداه ، فاللوم على أشرافهم أهل الحول والطول ، وليس على المستضعفين من سبيل ، وإلّا فما الذي يفعله من لا حول له ولا قوة ؟ إلّا أن يخضع إلى أهل الكلمة من ساداته ، وأهل الجولة من أشرافه ، والمدينةُ يومئذ تموجُ بأشرافِ المهاجرين والأنصار ، وهم من قد عرفت أهل عدد وعدة ، وليس على أتباعهم ومواليهم المستضعفين إلّا الإستماع لما قاله هذا وما أمضاه ذاك ، وأي تحرك خلاف ذلك سينفع من لا قدرة له على مواجهة الأحداث العارمة ، والأهوال العاصفة ، بكل وجود ليس خليقاً أن يغير على

---

(١) نفس المصدر ١: ١٢.

السادات من ذوي القرار ، وما خطرُ هذا وذاك مقابل ما تخاصم به الأشراف من الأنصار مع الأشراف من المهاجرين ؟ ثم تصالحوا عليه بعد حين وكأن شيئاً لم يكن ، فلا تهديد الأنصاري أربك المهاجرين ، ولا المهاجرون تحسبوا لما عزم عليه الأنصار وعقدوا عليه ألسنتهم دون قلوبهم .

لكنا لا نريد أن نعذر أحداً من الأنصار في فعلتهم هذه ، لا أهل الحول والطول من كبرائهم ، ولا المستضعفين من رجالهم ، فإن المسلمين جميعاً ـ ومنهم الأنصار ـ بايعوا رسول الله ﷺ على أن لا ينازعوا الأمر أهله ، بل بايعوه على الموت أيضاً ، وهو ما رواه عبادة بن الصامت ، قال «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشَطِ والمكرَه ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقومَ أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[١] .

وعن يزيد قال «قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم النّبيّ ﷺ يوم الحديبية ؟ قال على الموت»[٢] .

فهل وفىٰ البعض حقاً ما بايع عليه رسول الله ﷺ ؟ أم ماذا ؟ ؟

* * *

هذا ما كان من حال الأنصار مع الأنصار ، والمهاجرين مع المهاجرين ، وهذا ما دار بين الأنصار والمهاجرين في مساجلات من الكلام ، ومجاذبات من التقريع والتوبيخ ، وجمل من الكلام ، كل يلوم بها صاحبه ، وينحو باللائمة على غيره ، ولم تستقر الأمور حتّى أفرزت كتلة الخزرج سعداً ، والمهاجرين المكيين حزب

---

(١) صحيح البخاري باب كيف يبايع الإمام ٩: ٩٧.
(٢) المصدر السابق.

السقيفة ، وقد انثنى لها بعض الأنصار من الأوس ، ثم التحق في ركابهم خزرج الأنصار منافسة منهم للأوسيين من المدنيين كما قدمنا ، وبنو أُمية لم يكونوا قد قنعوا بما ارتضاه الشيخان ، فرأوا أن عثمان أحق بالأمر من غيره ، فتكتلوا متربصين حتّى حين ، وكابرَ بنو زهرة بشيخيهما ، سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكونهما أهل الخلافة والرئاسة ، فما الذي قدّمَ غيرهما عليهما ؟ أبسابقة في دين الله ، وقد سبق سعد عمرَ إلى الإسلام ، أم بفضل وقد تساوى الجميع بأنهم أصحاب رسول الله ؟

ومثل هذه الاعتراضات لم تنقطع ، ومثل هذه الكتل لم تُعقمْ ، فإعتراض تلو اعتراض ، وكتلة تولِد كتلة ، وقد وصف لنا توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت الحالة الضاجة بالتحزب لفكرة دون أخرى ، والتكتل لقبيلة دون غيرها فقال:

إن الناس انقسموا بعد وفاة الرسول إلى عدة أحزاب: حزب سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، حزب الشيخين وهم جل المهاجرين ، حزب علي وهم بنو هاشم ومعهم قليل من المهاجرين منهم الزبير وكثير من الأنصار ، ويقول الطبري: إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلي ، ونضيف إلى هذه الأحزاب الثلاثة حزب عثمان من بني أُمية وحزب سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة[1].

هذه الحالة العامة ، كانت ساعة إعلان السقيفة عن خليفتها ، وهذا غايةُ ما استطاع بعض المعترضين أن ينجزوه ، وهذا أقصى ما إستطاعت أن تقدمه السقيفة للخطب الجلل ، الذي حل بين ظهرانيهم عند وفاة رسول الله ﷺ فالأنصار بقدهم وقديدهم كانوا في حيصٍ وبيص ، أقاموا الدنيا ولم يقعدوها ، حتّى استقر أمرهم أن نافس بعضهم بعضاً ، واتّهم بعضهم بعضاً ، بأن كل فريق يريد أن يحوز

(١) أهل البيت، توفيق أبو علم: ٢٣٥ الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

الإمارة لنفسه، فتباغضوا وتحاسدوا وتواعدوا حتّى أخرجوها عن أيديهم إلى غيرهم من المهاجرين، بعد اعتراض الفريقين أنهم أولى بالأمر من المهاجرين، وكانوا قبل ذلك يقولون إن الأمر في علي دون سواه، وبنو أُميّة رأوا أن الأمر إن أخرجوه من تيمٍ وعدي، استقر في بني هاشم الطالبيين، وكانوا قد ورثوا العداء والمنافسة لهاشم وبنيه من ذي قبل، فكل أموي قد ورث من أبيه العداء لكل هاشمي تقليداً، وحاز الهاشمي صفة الترفع عن هكذا تقليد، ورأى أن الله قد رفعه بالإسلام ونبيه، كما أن الأموي قَنَع أن الله قد أرغم أنفه بالإسلام ونبيه، فقد جاهد أبو سفيان الإسلام طمعاً منه في الجاه، كما هو يدخله اليوم طمعاً في الجاه، وإذا كان الأمر كذلك، فلتكن الإمارة في غير الهاشميين من قريش، ولتستقر أينما كانت وكيفما تكون، عند قريش الأباعد من تيمها وعديها، أو لدى غيرهم من المهاجرين. وكيف لا وهم يعلمون أنّها ستكون في علي إن هم قبضوا أيديهم عن بيعة الشيخين، وعليٌ هو قاتل ساداتهم الأوّلين، ومفرقّ جماعاتهم يوم بدر وأحد والأحزاب؟...

إذن فالأمويون عاجلوا الهاشميين في إخراج البيعة عن حوزتهم، وأقروها لأخي تيم تنكيلاً منهم بعمرو العلا، يوم فاخر أُميّة على إطعام أهل مكة فغلبه عمرو وأخرجه صاغراً من مكة إلى بواديها[١].

ولم يكن الزهريون بأحسن حالاً من الأمويين، فهم حينما رأوا أنهم لا يقوون على منافسة الشيخيين، وأن غيرهم أبعد منهم عن الخلافة والإمامة يوم ذاك، ولم يكن سوى علي أميراً إن هم زووها عن أهليهم المهاجرين، «فإن أكثرهم أرادوا البيعة لعلي» كما هو صريح الطبري، فليعطوا البيعة عن يدٍ وهم صاغرون، أهون

---

(١) راجع النزاع والتخاصم فيما بين بني أُميّة وبني هاشم للمقريزي: ٢١ لمكتبة الإهرام مصر.

عليهم من علي وآل علي ، فإن علياً وقد اخشوشن في ذات الله ، وطلّق الدنيا ثلاثاً ،لا يهون عليه أن يرى القوم وقد جعلوا الدين مطيتهم ، يدورون به ما دارت به معائشهم ، فعرفوه منذ نعومة أظفاره وقد صحب النّبيّ ﷺ ، إنّه لا يهادن في دين ، ولا يداهن في حقّ ، ولا يساوم على شيء من حطام الدنيا ، فكيف بهم ، وهم أصحاب جاه ومال ؟ وكيف يسوسون غيرهم بجاههم أو مالهم ، وعلي متربص لكل صغيرة أو كبيرة ، فلن يترك المسيء ، حتّى يأخذ الحق منه وإن كان عزيزاً ، ولن يترك الضعيف ، حتّى يأخذ الحقّ له وإن كان حقيراً ، فالعزة والذلة في دين علي هما تقوى الله ، والمنعَةُ والغلبة في مفهوم علي ، هو عدل الله ، فلا بديل للتقوى وإن قصّر عنها عزير قوم ، ولا محيص عن الحق وإن كان مع ضعيف ، وكل هذا قد فهمه هؤلاء النفر ، واستقر في أذهانهم ، أن علياً سيثقل عليهم إنْ هم بايعوه ، ويُستبْعدون عما تاقت إليه نفوسهم إنْ هم ولوّه ، وسيكون أحدهم كأحد أضعفهم ، إلّا ما قَسَم الله له من المال والجاه ، وسيكون ذلك في كتاب موقوتاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ، هذا شرع علي وهذا منهجه ، فهل تبقى حاجة للسؤال بـ«لِمَ زويت الخلافة عن علي وحُمل الآخرون على رقاب المسلمين» ؟

هذا ما أردناه تمهيداً لمعرفة ما نشأت فيه بعض مدارس الخلافة من ظروف ، وما أفرزته هذه الظروف من أفكار ، وما سنحت لهذه الأفكار من خواطر ، لتلد هذه الخاطرة فلسفة ، وتلك الفلسفة قضية ، وهذه القضية نظام حكم ، سيكون فيما بعد خلافة إسلامية ، تُلقي في روع الآخرين وأذهانهم ، أنّها خلافة رسول الله ﷺ .

قراءة في مبتنيات الاجماع

لحظات وداع.. أم تداعيات مواقف..؟

وبعد هذا العرض الموجز لأحداث يوم الاثنين، يوم فارق رسول الله ـ بأبي هو وأمي ـ الدنيا وطار خبره في آفاق المدينة وأركان الحجاز، وودع أصحابهُ، والكلمات تتزاحم على شفتيه الحبيبتين، أن: اللَّهُمَّ إني قد بلغت.. والآلام تعتلج قلبه الشريف، بعد أن رأى وسمع مالا ينبغي لنبي أن يسمعه من قومه، وقد هداهم الله به، وأنقذهم من أرجاس الكفر والوثنية، إلى طهارة عبادة الواحد القهار.

فبينا هو يوصيهم بما فيه خير دينهم وصلاح دنياهم، يتنازعون في حضرته فيوبّخ بعضهم بعضاً، ويتدافعون فيلوم بعضهم بعضاً، ويلتحمون، بعضهم في منكرٍ من القول، وبعضهم يردعه، فهذا يقول: رسول الله يهجر حسبنا كتاب الله، وذاك يقول: ويلكم كيف يهجر والنّبيّ لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى، أنسيتم كتاب الله، فكيف يهجر؟

وآخر يقول، ما الذي قاله رسول الله ﷺ غير إنّه أراد أن يكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً؟! وتصاعد اللغط وكثر الضجيج، ولا ينبغي أن يكون ذلك عند نبي، فنهرهم، وأخرجهم إلى حيث يختار كلّ طريقه، إذ قد سبقت منه إليهم الوصية التي أراد: «إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً: كتاب الله،

وعزّتى أهل بيتي». وفارق النبي الدنيا، ففارق قوم وصيتهُ كفراقهم مجلسه، لعلّة رأوها أو تَعلّل..

وخرج القوم من السقيفة بمبايعة أحد الشيخين، فضج الناس بين مؤيد مبايع، وبين منعزل مستنكر، وكانت لإعتراضات هؤلاء، وإستنكار أولئك، أن برزت فلسفة التبرير عما أقدم عليه أهل السقيفة، فقالوا بعد الإحتجاج عليهم: إنّه إجماع الأُمّة، حيث أجمعت الأُمّة على أحدها، والأُمّة لا تجتمع إلّا على خير، ومن ذلك تبلورت فكرة الإجماع، ونشأت إلى مدرسة، لها منظّروها، ومؤيدوها، على مر العصور، كما لها محاججوها، ومعارضوها، على طول الأزمان والدهور.. فما هي مدرسة الإجماع إذن ؟

مدرسة الإجماع.. أو أصحاب أهل الحل والعقد..

نشأت مدرسة الإجماع، يوم وفاة الرسولﷺ على مستوى التشكيل والتنظيم فقط، وتأخرت عن مستوى التنظير، قياساً بالتشكيلات المبرمجة ذات الفلسفات المدخرة إلى حين، وهذا ما يدعم القول، بأنها كانت مرتجلة إلى حدما، وإن كانت مبيّتة تحركاً وتنظيماً، حيث تربص أصحابها لتطويق أية محاولة والالتفاف على كل قرار قد تسالم عليه المسلمون قبلاً في أنهم لن يتعدوا علي بن أبي طالب، الذي أوصى به رسول اللهﷺ، في نصوص صريحةٍ جليةٍ.

لنا على ذلك أدلة وشواهد، تثبت أنها لم تصل إلى حد التنظير عند نشوئها، وذلك للاضطراب الذي عاناه أصحابها حين تلقي الاستنكار ابتداءً، فمثلاً حينما واجه علي بن أبي طالب أبا بكر، يوم أعلن عن نفسه خليفة بقوله ـ كما مرَّ سابقاً ـ «أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع حقاً، قال أبو بكر: بلى، ولكني خشيت الفتنة..»، ولم يكن جواب أبي بكر منسجماً مع ما أعلنته مدرسته لاحقاً، من أن الأُمّة أجمعت على البيعة، وتشاور أهل الحل والعقد، وكان على أبي بكر، أن يجيب كل من استوضحه، أو استنكر عليه، أن الأُمّة أجمعت على ذلك ولا يحق لأحد أن يعترض على ما أجمعت عليه. لكن أبا بكر، أجاب علياً بأني خشيت الفتنة، ولم يكن جوابه مقنعاً لعلي، كما لم يكن جوابه مقنعاً لنفسه كذلك، وإلّا ما الذي جعل أبو بكر يتلكأ في قوله، ولم يُجبْ بما احتجت به مدرسته فيما بعد، وهو إجماع الأُمّة، وآراء أهل حلها وعقدها، وعدم القناعة في الإجابة ـ كما يظهر ـ تنطوي في سببين:

أولاً: إن أبا بكر، كان على قناعةٍ، من أن خوف الفتنة الذي احتج به لم يكن هو توجّسهُ الوحيد، فالصحابة أيضاً يشاركونه شعور الوجل من المستقبل، فلماذا

يحرص هو دون غيره ، على تحسبات المستقبل ، التي لم تحدث إلّا على مستوى الهواجس والاحتمالات ؟

ثانياً: إن الفتنة ، إذا كانت تموج بالمسلمين وقت ذاك ، وقد حرص الخليفة على إطفائها ، فلماذا عمل في الخفاء خلف جدران السقيفة ، وقد أدار ظهره عن صحابة رسول الله ﷺ ، ليشاركه أربعة نفرٍ من أهل رأيـهِ ، دون مـراعـاةٍ لمـقام الآخرين من الصحابة ، كعلي من بني هاشم ، وعثمان من بني أُمّية ، وسعد وعبد الرحمن من بني زهرة ، بل لم يراع حقوق إخوانه من الأنصار ، كسعد بن عبادة الخزرجي ، الذي انعزل عن البيعة مغاضباً ، وأُسيد بن حضير الأوسي ، الذي دفعهُ تعصبهُ ضد الخزرج لمبايعة أبي بكر ، حتّى يبعدها عن شيخهم سعدٍ ، فكـانت مبايعته مكابرةً للخزرجيين ، فأية فتنة أطفئت عند ذاك ، وكيف يتم إطفاء فتنة بفتنٍ أُخرى كما ترى الحال ؟

مبتنيات مدرسة الإجماع..

تبلورت مدرسة الإجماع ، إلى نظرية حكم ، وفلسفة سياسة ، بعد أن مرّت بمراحل تنظيرية ، لم يكن قد هُيّأ لها من ذي قبل ، كما عرفت ، بل حـدت بـها الظروف السياسية ، والتكـتلات الثـقافية المـغايرة لهـا ، أن تـطرح نـفسها عـلى المستوى التنظيري ، لتجابه ما ازدحم عليها من إشكالاتٍ ، عصفت بـتشكيلاتها السياسية ، التي تزعّمها خلفاء أمويون وعباسيون ، وقد قاد هـذه الاحـتجاجات الدينية ، والتشكيكات السياسية ، معارضة عـلوية صـرفة ، كـمدرسة النـص ، أو حركات ثورية ، تحمل لافتات علوية ، على أقل تقدير .

احتجت مدرسة الإجماع فيما بعد ، بأن الأُمّة أجمعت بعد وفاة النّبيّ ﷺ

على أبي بكر، ورضي أهل الحل والعقد بهكذا إجماع، وائتلفت الكلمة على تنصيبه خليفة بعد رسول الله ﷺ، وتوحدت الأُمّة على ذلك.

قال التفتازاني في شرح المقاصد: الإمامة تثبت عند أكثر الفرق باختيار أهل الحل والعقد وإن قلوا، للإجماع على إمامة أبي بكر من غير نص ولا توقف إلى إتفاق الكل[١].

ما هو الإجماع إذن..؟

الإجماع في كلام العرب على معنين: أحدهما العزم على الشيء، من قولك «أجمعت على فعل كذا وكذا» إذا عزمت على تنفيذه وإمضائه. والثاني، عبارة عن الإجماع على القول والفعل المجتمع عليه. وذلك مأخوذ من اجتماع الشيء وانضمام بعضه إلى بعض، فإذا قلت «أجمعت الأُمّة على الحكم» فإنّه يحتمل الأمرين جميعاً، أحدهما أنها عزمت على إنفاذه، والثاني أنّها اجتمعت على القول به وتصويبه[٢].

وقال ابن حزم في المحلّى ما نصه:

مسألة: والإجماع، هو ما يتقن ان جميع أصحاب رسول الله ﷺ عرفوه وقالوا به، ولم يختلف منهم أحد، كتيقننا إنّهم كلهم ﷺ صلوا معه ﷺ الصلوات الخمس، كما هي في عدد ركوعها وسجودها، أو علموا أنّه صلاها مع الناس كذلك، وأنهم كلهم صاموا معه، أو علموا أنّه صام مع الناس، رمضان في الحضر، وكذلك سائر الشرائع التي تيقنت مثل هذا اليقين، والتي لم يقرَبها لم يكن من

---

(١) شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ٥: ٢٥٢ منشورات الشريف الرضي قم / ١٩٨٩م.
(٢) إحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد الباجي: ٤٣٥ دار الغرب الإسلامي ط أولى / ١٩٨٦.

المؤمنين ، وهذا ما لا يختلف أحد في أنّه إجماع ، وهم كانوا حينئذ جميع المؤمنين ، لا مؤمن في الأرض غيرهم ، ومن ادّعى أنّه غير هذا هو إجماع كلّف البرهان على ما يدعي ، ولا سبيل إليه .

ثم قال في مسألة أُخرى: والإجماع ، إنّما هو إجماع جميع المؤمنين ، لا إجماع بعضهم ، ولو جاز أن يسمىٰ إجماعاً ما خرج عن الجملة واحداً ، لا يعرف أيوافق سائرهم ، أم يخالفهم ... إلىٰ آخر كلامه[١] .

فالإجماع على هذا القول ، هو ما أجمعت عليه الأُمّة قولاً وفعلاً ، وتظافرت عليه آراؤها ، واتفقت فيه كلمتها ، وكل ما كان خلافهُ ، فهو ليس بإجماع ، فالمخالفة إذن ، خرق للإجماع ، ويسقط عندها عن الحجية مطلقاً .

والسؤال الذي يمكن طرحه الآن: هل انعقد الإجماع يوم السقيفة ، على مستوى الخاصة في داخل السقيفة ، وعلى مستوى العامة خارجها ؟

وللإجابة عن هذاالسؤال لابد من استيضاح مقدمتين تقودنا أُولاهما إلى الثانية:

الأولى: اتفاق جميع المسلمين ، على ما اتفق عليه أهل السقيفة:

فهل تحقق مثل هذا الاتفاق ؟

ولعل الإجابة على هذا السؤال غير متعسرة ، إذا ما إستقرءنا الحالة العامّة للأُمّة آنذاك ، فقد قدّمنا أن المسلمين تكتلوا إلى عُصب وأحزاب ، فمنهم من بايع ، ومنهم استنكر ، ومنهم من انعزل يتربص الأمور إلى حين .

فعثمان انفرد ببني أبيه معتزلاً ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن مستنكرين ، وأبو سفيان مهدداً متوعداً ، وسعد بن عبادة قد عرفت حاله ، لم يبايع

---

(١) المحلى لأبن حزم ١: ٥٤، دار الآفاق الجديده بيروت.

حتّى أستبعد إلى حران لكيلا يُفسد عليهم أمراً ، وقُتل هناك ، حتّى قالوا إنّ الجن قتلت سعداً ، وقد سمعت ما حدى بالأوسيين للمبايعة ، بعد أن غلبتْ عليهم شقوة المنافسة بينهم وبين خزرج المدنيين ، فضلاً عن بني هاشم ، وقد صرّح سيدهم عليّ بأن المهاجرين لم يستشيروه ، فاعترف له بذلك أبو بكر ، واستنكر على الأنصار مناصرتهم لعصبيتهم ، يوم تدافعوا على البيعة عناداً لإخوانهم آل سعدٍ الخزرجيين ، وقد قدمنا ذلك في مدخل البحث .

إذن ، والحالة هذه لم ينعقد إجماع صحيح ، كما اصطلح عليه فقهاء أهل الإجماع.

ولعل هذا الإشكال يتصدى للإجابة عليه الحافظ البيهقي ، في كتابه (الاعتقاد على مذهب السلف) ، إذ قال «لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير ، قال: فأتاهم عمر فقال: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبابكر أن يصلي بالنّاس ؟ قالوا بلى ، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر»[1].

وهذا يعني أن الإجماع قياسي محض ، ذلك أن الخليفة الثاني ، قاس الإجماع يوم السقيفة على صلاة أبي بكر ، يوم كان النّبيّ ﷺ مريضاً ، وهو كما ترى قياس عليل ، بل لم يوافق حتّى قول أهل القياس أنفسهم ، حيث أن إمامة أبي بكر للمسلمين ، بعد رسول الله ﷺ ، قيست على إمامته في الصلاة .

وإذا صَحّحنا خلافة من صحت إمامته في الصلاة، فسيترتب على ذلك، مايلي:

١ ـ صحة خلافة العبد .

---

(١) الإعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للبيهقي أحمد بن الحسين: ١٩٩ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية / ١٩٨٦م.

٢ ـ صحة خلافة ولد الزنا.

٣ ـ صحة خلافة الاعرابي، وهو ممّن سكن البادية.

٤ ـ صحة خلافة الغلام، الذي لم يحتلم.

وذلك، لصحة مَنْ ذكرنا إمامته في صلاة الجماعة، حيث أجاز فقهاء أهل الإجماع، صحة ذلك، وإليك ما رواه البخاري في صحيحه قال:

باب إمامة العبد والمولى: وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف، وولد البغي والإعرابي، والغلام الذي لم يحتلم، لقول النّبيّ ﷺ يؤمهم أقرؤهم لكتاب الله[1].

قال ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري:

أن عائشة كان يؤمها غلامها ذكوان في المصحف، ووصله الشافعي وعبد الرزاق من طرقٍ أخرى عن ابن أبي مليكة أنّه كان يأتي عائشة، بأعلى الوادي، هو وأبوه وعبيد بن عمير والمسور بن مخرمة وناس كثير، فيؤمهم أبو عمرو مولى عائشة، وهو يومئذ غلام لم يُعتق، وأبو عمرو المذكور هو ذكوان، وإلى صحة إمامة العبد ذهب الجمهور قال ابن حجر: قوله «وولد البغي» بفتح الموحدة وكسر المعجمة والتشديد أي الزانية .. وإلى صحة إمامة ولد الزنا ذهب الجمهور أيضاً.

قال ابن حجر: قوله «والأَعرابي» بفتح الهمزة أي ساكن البادية، وإلى صحة إمامته ذهب الجمهور أيضاً.

قال ابن حجر: قوله «والغلام الذي لم يحتلم» ظاهره أنّه المراهق.. قال:

(١) صحيح البخاري باب إمامة العبد والمولى ١: ١٢٨ دار المعرفة بيروت.

واحتج ابن حزم على عدم الصحة بإنّهﷺ أمر أن يؤمهم أقرؤهم قال: فعلى هذا إنّما يؤم من يتوجه إليه الأمر، والصبي ليس بمأمور لأن القلم رفع عنه فلا يؤم، كذا قال: ولا يخفى فساده لأنا نقول: المأمور من يتوجه إليه الأمر من البالغين بأنّهم يقدّمون من إتصف بكونه أكثر قرآناً فبطل ما إحتج به، وإلى صحة إمامة الصبي ذهب أيضاً الحسن البصري والشافعي وإسحق، وكرهها مالك والثوري.. إلى آخر كلامه[1].

وعلى هذا فلا مانع، من كون العبد، وولد الزنا، والأعرابي، والغلام الذي لم يبلغ الحلم، أن يكون خليفة المسلمين! وهذا مالم يقل به أحد حتى من أصحاب هذا القياس.

إذن فلابد من سقوط قول من قاس الإمامة الكبرى للمسلمين على الإمامة الصغرى في الصلاة، أو الرضا، بأن يكون خليفة المسلمين غلاماً لم يبلغ الحلم، وهو عبد كذلك، وولد زنا، وأعرابي من أهل البادية، فأي مسلم يرضى بذلك؟

وإلى هذا، تفطن ابن حزم الأندلسي، في كتابه (إبطال القياس) فقال:

وأمّا قولهم: «أجمعت الصحابة على ولاية أبي بكر قياساً على تقديم النّبيّ ﷺ إياه إلى الصلاة» فكذبٌ، لإجماع الأُمّة على أن ليس كل من صلح للإمامة في الصلاة صلح للإمامة في الخلافة، فقد اتفقوا، على جواز إمامة التركي وغيره. وقال طوائف من الصحابة والتابعين والفقهاء، بإمامة من لم يبلغ الحلم في الفريضة راتباً للرجال وبإمامة المرأة للنساء، وهؤلاء لا تجوز خلافتهم»[2].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لأبن حجر العسقلاني. باب إمامة العبد والمولى ٢: ١٨٤ دار المعرفة بيروت.

(٢) ملخص إبطال القياس والرأي والإستحسان والتقليد والتعليل للإمام الحافظ ابن حزم الأندلسي: ٣٥ دار الفكر بيروت طبعة ثانية / ١٩٦٩.

والجدير بالذكر ، أن الذي قاس الإجماع هو الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد رأيت ردَّ ابن حزم واستنكاره الشديدين على مثل هذه المقالة من الإجماع .

هل يصح قياس خلافة النّبيّ ﷺ لعلي على المدينة، خلافته للمسلمين بعد رسول الله ﷺ ؟

لو تنزلّنا مع مدرسة الإجماع ، وسلّمنا أنّه لا مانع من قياس إمامة المسلمين بعد النّبيّ ﷺ على إمامته الصلاة في حياته ، فإنّا نطالبهم بإجراء نفس هذا القياس ، على صحة من استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في حياته ، لاستخلافه على المسلمين بعد وفاته .

فقد وجّه حديث المنزلة ، علماء أهل الإجماع ، بأن قول النّبيّ ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» لم يكن إلّا للإشارة إلى استخلافه على أهله في المدينة ، حين خرج إلى أحد غزواته ، ولم يكن هذا الحديث دليل على استخلاف علي مطلقاً حتّى بعد وفاته ، وهو كما ترى توجيه جائر ، إلّا أننا مع ذلك سنتنزل ، ونأخذ بهذا التوجيه في مقامنا هذا ، وإليك ما قاله العيني:

«هذا ، إنّما قاله لعلي حين خرج إلى تبوك ولم يستصحبه ، فقال أتخلفني مع الذرية ، فقال أمّا ترضى . . . إلى آخره ، فضرب له المثل باستخلاف موسى هارون على بني إسرائيل ، حين خرج إلى الطور ، ولم يرد به الخلافة بعد الموت ، فإن المشبه وهو هارون ، كانت وفاته قبل وفاة موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وإنّما كان خليفته في حياته ، في وقت خاص ، فليكن كذلك الأمر فيمن ضرب المثل به قوله: أن تكون مني أي نازلاً منّي منزلته والتاء زائدة ، وهذا تعلق به الرافضة في خلافة علي»[1] .

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامّة بدر الدين بن أحمد العيني باب مناقب علي بن أبي طالب، ١٥: ٢٢٤ دار الفكر بيروت.

وعلى هذا، فإن العيني وغيره، يرفض هكذا قياس، من صحة خلافة علي بعد رسول الله ﷺ، قياساً على خلافته للمدينة في غزوة تبوك، وإذا بطل هذا القياس، فمن الأولى بطلان قياس إمامة أبي بكر للمسلمين، بعد رسول الله ﷺ قياساً على إمامته للصلاة، ووجه الأولوية، أنّه لم تثبت إمامة أبي بكر للصلاة أيّام مرض النّبيّ ﷺ كما سيأتي حتّى أسقط ذلك عن حجية الاستدلال أصلاً.

المقدمة الثانية:

هل أمر النبي ﷺ، أبا بكر للصلاة بالمسلمين أيام مرضه ؟

إنّك لو تأملت في الأخبار الواردة عن مرض النّبيّ ﷺ، وكيف استخلف أبا بكر للصلاة، لوجدت أن هناك اضطراباً في هذه النصوص، وستجد أن لا محيص عن إسقاطها عن الحجية، كونها عليلة لا ترقى إلى مصافي الاستدلال والأخذ بها لتصحيح بيعة أبي بكر بعد النّبيّ ﷺ، يوم السقيفة وأنها إجماع المسلمين، قياساً على إمامته في الصلاة أيّام مرض النّبيّ ﷺ، وسننقل الواقعة، من مصادرها المختلفة، لنقف على الاضطراب الوارد فيها ومعرفة مدى قابلية مثل هذه الحادثة للإستدلال.

وسننقل ما رواه الطبري، وهو عمدة المؤرخين، أحداث صلاة أبي بكر، لنكون من خلالها قد انطلقنا لسبر غور حادثة الصلاة بكل حيثياتها.

صلاة أبي بكر برواية ابن جرير الطبري:

عن الأرقم بن شرحبيل، قال: سألت ابن عبّاس: أوصى رسول الله ﷺ ؟ قال:لا، قلت: فكيف كان ذلك ؟ قال: قال رسول الله ﷺ: ابعثوا إلى علي فادعوه، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر، وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر، فاجتمعوا

عنده جميعاً، فقال رسول الله ﷺ: انصرفوا فإن تك لي حاجة أبعث إليكم، فانصرفوا وقال رسول الله ﷺ: آن الصلاة؟ قيل: نعم، قال فأمروا أبا بكر ليصلي بالناس، فقالت عائشة: إنّه رجل رقيق، فمر عمر، فقال: مروا عمر، فقال عمر: ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد، فتقدم أبو بكر، ووجد رسول الله خفةً، فخرج، فلما سمع أبو بكر حركته تأخر، فجذب رسول الله ﷺ ثوبه فأقامه مكانه، وقعد رسول الله، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر[١].

هذا نص الطبري، ويمكن أن يفيدنا أموراً، لا يمكن الغض عنها:

١ ـ أشار ابن عباس إلىٰ أن النّبيّ ﷺ عزم على الوصية لعلي بن أبي طالب، إلّا أنّه أجّل ذلك بعد ما رأى حضور الشيخين عنده، ولخطورة المنافسة الشديدة التي بدت على موقف الشيخين، طلب النّبيّ ﷺ من الجميع الخروج، ليتسنى لرسول الله ﷺ بعد ذلك أن يناجي ابن عمه بما يريد، بعيداً عن فضولية الحضور، الذي بات يتكرر بين الحين والآخر في حضرته ﷺ.

٢ ـ إن ابن عباس كان في صدد إيضاح الموقف الطارئ، الذي فاجئ النّبيّ ﷺ من قبل بعض أصحابه، وهو في صدد دعوته لعلي، وأراد تفويت الفرصة على أقطاب التنافس من أن تستفاد القضية لصالحها، وأحس أن جهوده الآن مهددة بخطر التسابق للحصول على الحظوة عنده، لذا فقد أغاض النّبيّ ﷺ حضور من لم يدعوه، وأجّل لقاءه بعلي إلى وقت، بعيداً عن علم الجميع.

٣ ـ لم ينفِ ابن عبّاس وصية النّبيّ ﷺ مطلقاً، فإن السائل في مقام الاستفهام عن وصيته ﷺ، بل كان ابن عباس، في صدد بيان ما حدث فور دعوة علي

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ١٩٦ دار سويدان.

للحضور عنده ، ألا ترى أن السؤال تضمن الاستفهام عن الوصية ، وكان جواب ابن عباس صريح في أنّه ﷺ أراد دعوة علي للإيصاء إليه ، في قوله: قال رسول الله ﷺ: «**إبعثوا إلى علي فادعوه**» ؟ فإنّ قرينتي المقال والمقام ، تقتضيان أن يكون البعث إلى علي للإيصاء إليه ، وممّا يؤكد ذلك ، طلب السيدتين من النّبيّ ﷺ ، وبإلحاح شديد حضور الشيخين ، ولم نسمع في الخبر أن النّبيّ ﷺ أقر لهنّ حضور الشيخين ، بل عبّر النّبيّ ﷺ ، عن استيائه من حضورهما ، إذ قد صرف الجميع فور اجتماعهم عنده دون أن يخاطبهم بشيء ، فالحديث يقول: «**فاجتمعوا عنده جميعاً ، فقال ﷺ: انصرفوا فإن تكُ لي حاجة أبعث إليكم**» ! ومقام الدعوة لا يناسبه الأمر بالانصراف فور الحضور ، فلم تكن الدعوة إذن قد وجَهت إليهما ولا إلى أحدهما . وسيؤكد ذلك النقطتان اللاحقتان . .

٤ ـ قال ابن الاسكافي المعتزلي: متى نظرنا إلى آخر هذا الحديث احتجنا إلى أن نطلب للحديث مخرجاً من النقص والتقصير ، وذلك أنّ آخره: إن رسول الله ﷺ لما وجد إفاقةً وأحسّ بقوّة خرج حتى أتى المسجد وتقدّم فنحّى أبا بكر عن مقامه ، وقام في موضعه .

فلو كانت إمامة أبي بكر بأمره ﷺ لَترَكه على إمامته وصلّى خلفه كما صلّى خلف عبدالرحمن بن عوف[1] .

٥ ـ ثبت عن علي عليه السلام: أن عائشة هي التي أمرت بلالاً أن يأمر أباها ليصلّ بالناس ، لأن رسول الله ﷺ قال: «ليصلّ بهم أحدهم» ولم يعيّن . . وكان عليّ يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ، ويقول: وانه ﷺ لم يقل «إنّكن لصويحبات يوسف» إلاّ إنكاراً لهذه الحال ، وغضباً منها لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين

---

(١) المعيار والموازنة: ٤١ ـ ٤٢ ـ تحقيق محمد باقر المحمودي ـ ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ

أبويهما، وانه ﷺ استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب[١]

كم صلى أبو بكر بالناس في حياة رسول الله ﷺ؟

وقد يتساءل بعضنا بعد هذا الاضطراب من الرواية في حادثة الصلاة، كم صلى أبو بكر بالناس؟ حتّى يمكن جعل صلاته حجة إجماع، يعوّل عليها، لو تنزلنا في القول بصحة هكذا إجماع.

وإذا رجعنا إلى الطبري نسأل عن عدد صلوات أبي بكر إمامة بالمسلمين، فإنّه سيُشعرك أن الصلاة لم تكن سوى تلك الركعة، التي لم يتمها أبو بكر، حتّى خرج عليه النّبيّ ﷺ ليد فعه عن صلاته.. وهو الموافق لرواية الصحاح والسنن المعتبرة. أما ما خالف ذلك من أخبار فكلها ساقطة عن حد الاعتبار، وهذه هي النصوص الاخرى كما يرويها الطبري:

قال: حُدّثت عن الواقدي، قال: سألت ابن أبي سبرة، كم صلى أبو بكر بالنّاس؟ قال: سبع عشرة صلاة، قلت: من أخبرك؟ قال: أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن رجلٍ من أصحاب النّبيّ ﷺ[٢].

ففي إسناد هذا الحديث من الارسال والجهالة ما يفوّت فرصة الاحتجاج به، فكيف يُحتج بحديثٍ مرسل لتصحيح أهم حدث دخل في حياة المسلمين؟

ثمّ قال الطبري: وحدثنا ابن أبي سبرة، عن عبد المجيد بن سهيل، عن عكرمة قال: صلى بهم أبو بكر ثلاثة أيّام[٣].

ولا يخفى ضعف عكرمة، واتهامه بالكذب، فلا يعتد به مطلقاً، وإليك ما

---

(١) شرح نهج البلاغة ٩: ١٩٧.
(٢) تاريخ الطبري ٣: ١٩٧.
(٣) المصدر السابق.

ذكره العقيلي ، في كتابه (الضعفاء الكبير) من كلامهم في عكرمة ، فقال[١] .

حدثنا وهيب قال: شهدت يحيى بن سعيد الأنصاري وأيوب ، فذكرا عكرمة فقال: يحيىٰ بن سعيد ، كان كذاباً ، وقال أيوب: لم يكن يكذب .

وعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس ، فإذا عكرمة في وثاق عند باب الحسن ، فقلت له: ألا تتقي الله ! فقال: فإنّ هذا الخبيث يكذب على أبي .

وعن عطاء الخراساني إنّه قال لسعيد بن المسيب: إن عكرمة يقول: إن رسول الله ﷺ تزوج وهو محرم ، فقال: كذب مخبثان [يعني عكرمة] .

وعن عمرو بن مرة قال: سألت سعيد بن المسيب ، عن تفسير آية من كتاب الله ، فقال: ما أنا بجريء عليه ، ولكن دونك من يزعم ، أنّه لا يخفى عليه منه حرف ، يُعرّض بعكرمة .

وعن خالد بن خداش قال: شهدت حماد بن زيد ، في آخر يوم مات فيه ، فقال: أحدثكم بحديث لم أحدث به قط ، وقال: ما أحدثكم به إلّا أكره أن ألقى الله ولم أحدث به ، سمعت أيوب ، يحدث عن عكرمة قال: إنّما أنزل الله متشابه القرآن ليُضل به . إنتهى ما أفاده العقيلي .

أقول أن أيوب هذا الذي يروي عن عكرمة خبر الإضلال ، هو نفسه أيوب الذي نزه عكرمة عن الكذب سابقاً ، ومن يروي مثل هذا ، فلا يعتد بتوثيقه وتنزيهه .

---

(١) كتاب الضعفاء الكبير للحافظ العقيلي ٣:٣٧٣ دار الكتب العلمية بيروت طبعة أولى.

محاولات المرحلة الثانية.. أو تراجعات عن مقولة الإجماع.

وبعد طول العناء والمشقة اللتين يجدهما الباحث في محاولة منه لاثبات خلافة أبي بكر، قياساً على صلاته بالمسلمين، وبعد لأي من التوجيه والاعتذار، للجمع بين أخبار صلاة أبي بكر، ومحاولة منه لاثبات أحقيته، استناداً إلى ما قدمه من توجيه لإجماع الأُمّة، وإذا بالباحث، تفاجئه جملة من الروايات تشير إليه بالعدول عن مسيرته الأولىٰ للتوجه إلى محاولة ثانية جديدة، فقد أُدخل البحث في مناورات سياسية عنيفة استبطنت شيئاً آخر، وهي محاولة الخليفة الثاني السيطرة على الوضع العام المتأزم، الذي ينذر بفتنةٍ عارمةٍ، وحفاظاً على وحدة المسلمين وكلمتهم من التصدع، فقد اضطر إلى ان يموّه على المسلمين، بأن النّبيّ ﷺ استخلف أبا بكر، وحاول كذلك أن يُدخل في روع المسلمين خصوصاً الأنصار منهم، بأنّ مخالفة أبي بكر وعدم إعطاء البيعة له هي مخالفة صريحة لما أوصى به النّبيّ ﷺ من استخلاف أبي بكر. وحاول الأنصار أن يذعنوا لذلك، مقنعين أنفسهم كرهاً، أن قد صدّقوا ما حدث من وصية النّبيّ ﷺ، وكأن محاولة الخليفة، قد أعانتهم على التخلص من هواجس تسلط الأنصار على الأنصار، أو غلبة الأنصار وحظوتهم عند الخليفة الجديد، على حساب الأنصار الآخرين.

وهكذا، أعان الخليفة الثاني الأنصار على هاجسهم، وأعان الأنصار الخليفة الثاني على دعواه، وكل صدّق صاحبه لا عن قناعةٍ، بل للسيطرة على الموقف الذي سيكتسح آمال بعض، أو يزيد من توجسات آخرين.

وقد كانت العلاقة المتبادلة بين الطرفين، ضمن حدود المخاوف المفتعلة والأمنيات القادمة، وكان على كلا الحليفين في القضية الجديدة أن يعترفا بعد

ذلك بحقيقة الأمر ، إذا ما هما أمنا عواقب هذا الاعتراف ، فبادر الأنصار إلى اعتذارهم لعلي عليه السلام ، كما سمعت من خبر ما جرى بينهم وبين علي عليه السلام ، عقيب مبايعتهم للخليفة الجديد ، واعترف الخليفة الثاني بحقيقة الأمر ، من عدم جدّية استخلاف النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر ، وذلك في الخبر المشهور عنه ، إذ دخل عليه ابنه عبد الله وهو يجود بنفسه ، فقال له: يا أمير المؤمنين ، إستخلف على أمة محمّد ، فإنّه لو جاءك راعي إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعي لها للُمْتَهُ وقلت له: كيف تركت أمانتك ضائعة ؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمّد ؟ فاستخلف عليهم ، فقال: إن أستخلف عليهم فقد إستخلف عليهم أبو بكر ، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ولم يكن ذلك بالجديد ، فقد اعترف عمر بن الخطاب قبل ذلك بأن إستخلاف أبي بكر ما هو إلّا مناورة ، كانت تستهدف تهدئة الوضع العام ، والسيطرة على الفتنة التي ستحدث إذا ما هو ترك الأمور وشأنها ، فقال:

قد بلغني أن فلاناً منكم يقول: لو مات عمر بايعت فلاناً ، فلا يغترّنّ أمرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وتمت ، ألا وإنّها قد كانت كذلك ، إلّا أن الله وقى شرّها[2]..

وهو اعتراف خطير أفصح عن أمر أخطر منه ، وهو: أن الشيخين قد جازفا في إحداث فتنة ، كادت أن تطير باللبيب ، وتعصف بالرشيد ، وقد تحركا لا على أساس إطفاء الفتنة وتهدئة النائرة بين المسلمين ، بل استجابة لرغبة متأصّلة في أن

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٣٣٠ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار المعرفة بيروت / ١٩٨٢.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٦٢. دار الفكر بيروت.

لا تكون الخلافة في بني هاشم الأقربين، وعصفت محاولتهما هذه بالأمّة يوم السقيفة إلّا أن الله وقى الإسلام شرها كما هو صريح إعترافه، وهو صريح كذلك بأن الإجماع لم يتم.

وهكذا تداعت دعوى الاجماع، ولم تبق اية قيمة لذلك النضال الدؤوب في اختزال التاريخ الاسلامي من أجل إثباتها فلا التقدم في الصلاة بقي دليلاً نافعاً على الامامة، ولا كان ثمّة إجماع، ولم تكن دعوى الاجماع إذن إلّا تبريراً لإمرار الظرف الطارئ، الذي أحدثته سقيفة بني ساعدة؟

أبو بكر ينفي الاجماع من قبل:

قال أبو بكر في آخريات أيامه: ما آسى على شيء، إلّا على ثلاث، فعلتها وددت أني تركتها، وثلاث تركتها، وددت أني فعلتها، وثلاث وددت أني سألت رسول الله ﷺ عنها، فأمّا الثلاث التي فعلتها ووددت أني تركتها: فوددت أني لم أكن فتشت بيت فاطمة، وذكر في ذلك كلاماً كثيراً[١].. إلى أن قال: والثلاث التي وددت أني سألت رسول الله ﷺ عنها: وددت أني كنت سألته في من هذا الأمر، فلا ينازع الأمر أهله؟.. إلى آخر الخبر..[٢]

هذا ما بثه الخليفة الأول من أشجان، وهو على فراش الموت، من أنّه لم يكن للإجماع من أثر، في تصحيح خلافته، وإلّا ما الذي دعاه، إلى أن يدلي ما ضاقت به نفسه، من أنّه ودَّ لو سأل النّبيّ ﷺ فيمن هذا الأمر؟ وانه لم يفتش بيت

---

(١) وفي رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة بدله: فأمّا اللاتي فعلتهن وليتني لم أفعلهن، فليتني تركت بيت علي وإن كان أعلن علي الحرب.. إلى آخر كلامه. راجع الإمامة والسياسة: ١٨ طبعة ثالثة / ١٩٦٣ مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٢٠٣.

فاطمة الذي تجمّع فيه المعارضون لخلافته ؟

نظريتا الشورى وأهل الحل والعقد.. هل هما بديلان عن نظرية الإجماع؟

يلاحظ الباحث وهو في سياق البحث العلمي ، أن اصطلاحين آخرين يراودان أي بحث علمي ، إذا ما تصدى لدراسة نظرية الإجماع ، فكلما يصل الباحث إلى مصطلح الإجماع ويصطدم بالواقع العملي الذي جرى يوم السقيفة ، يقفز فجأة مصطلح أهل الحل والعقد ، وهو لم يتم بعد معرفته الكاملة عن مصطلح أهل الحل والعقد ، حتى يزاحمه مصطلح جديد ، هو مصطلح الشورى ، فيفرض نفسه على الباحث ، ويستبعد المصطلحين الآخرين ، دونما يتم الباحث عمله ، ويستكمل معرفته عن المقصود بالأوّلين .

هذه هي مشكلة الباحث ، إذا ما هو دخل في بحثه لدراسة نظرية الإجماع ، وهذه هي مشكلة الأجيال الباحثة عن الحقيقة دائماً ، تدخل في متاهات الإصطلاحات «المقدسة» ، دونما معرفة رشيدة تكفل للباحث نصيباً من التدرج العلمي الوئيد الذي يضمن سلامة الفكرة من الانصهار في خضم متاهات مقصودة تطيح بالجهود العلمية دون الوصول إلى الحقيقة .

فالأحداث المتوثبة للإطاحة بأية معارضة فكرية مشروعة أوجدتها الظروف الطارئة ، وفرضتها على الواقع فرضاً ، وأكرهت بها وجوداتٍ كان لها حق المشاركة في تقرير المصير ـ على أقل تقدير إن هي تنازلت عن جميع حقوقها ـ وكان لها كذلك على الأقل حق المعارضة والاستنكار ، ولم يحصل هذا ـ للأسف ـ في جوٍ خلقته السقيفة ، ولم يبح رجالاتها لرجالات المعارضة أية مشاركةٍ ، ولو في إبداء رأي جديرٍ في سحق أية محاولة خطيرة ، من شأنها أن تثير الفتنة وتُرجعها قبليةً مقيتةً ، كما حدث لعليعليه‌السلام مع أبي سفيان حين دعا أبو سفيان علياً

للبيعة، فنهره علي وقال إنّك لا زلت تكيد للإسلام، حتى بهذا المقدار، لم يبح لعلي معالجة الأمور كما ينبغي، بل عمد الشيخان إلى تعيين معاوية واليا فأُسقط ما في أيدي علي من التصدي لمحاولات التساوم والابتزاز، وسيأتي تفصيل الخبر لاحقاً.

كان الشيخان يخشيان الفتنة ـ كما صرّحا في أكثر من مناسبة ـ فبادرا إلى إعلان البيعة، مع استبعاد جمعٍ من الصحابة، وخشيا، إن هما انتظرا حتّى يُدفن النبي ﷺ، أن تكون الفتنة قد تمكنت من المسلمين، وليْتَهُما انتظرا ثلاثاً، كما فعل الخليفة الثاني، فقد أوصى للستة بالشورى إلى ثلاثة أيّام، ولم تكن هناك فتنة كما تصورها الشيخان، بل قد تصاعد الخلاف بين المسلمين، عند إعلان بيعة أبي بكر، الأمر الذي مهّد لخلافاتٍ مستقبليةٍ، بعد تشنجاتٍ في المواقف، أولدت عداءً تقليدياً، تتوارثهُ أية مدرسةٍ تعلن اختلافها مع مدرسة النص، ولعل تعبير الخليفة الثاني، أن بيعة أبي بكر فلتة، هو أنضج تشخيص لما أقدما عليه.

والإجماع الذي اصطلحه الأصوليون، وتبعهم على ذلك فقهاء مدرسة الإجماع، هو ما عرّفهُ أبو الوليد الباجي، وتبعه على ذلك الفقيه ابن حزم، وغيرهما، وقد مرت الإشارة إليه في أوّل مباحث نظرية الإجماع.

وأنت، إذا تتبعت مجريات أحداث الإستخلاف الثلاثة، لوجدت أن الإجماع، يأبى أن تدخل أيّاً منها ضمن دائرته، وذلك للأسباب التالية:

أولاً ـ إن ما حدث يوم السقيفة، من الاستنكار والاعتراض، على تصدي الخليفة الأول للبيعة، واستبعاد جل الأصحاب كما سمعت، لا يمكن تفسيره على أنّه إجماع.

ثانياً ـ إن عملية استخلاف الخليفة الأوّل للخليفة الثاني تمت بعيداً عن مشاركة الأصحاب، وذوي الرأي والمشورة، بل كانت اعتراضات تلوح في

الأفق ، بين صامتةٍ لا تقوى على التعبير عما يختلج في صدرها من استنكار ، وذلك للاجراءات الأمنية التي اتخذها الشيخان لتكتسح أية قوة معارضة فكرية ، أو مسلحة ، وبين معارضة معلنةٍ ، أبدت تخوفها عند استخلاف الخليفة الأوّل للخليفة الثاني ، كما في اعتراض طلحة بن عبيد الله ، «حيث دخل طلحة على أبي بكر فقال: استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ، وأنت لاقٍ ربك فسائلك عن رعيتك . .»[١] أو قول عبد الرحمن بن عوف في الخليفة الثاني: إن فيه غلظة[٢]. ومثل هذه الاعتراضات وغيرها لم تجد صدراً منشرحاً ، يستطيع الخليفة فيه فتح حوارٍ لمناقشة الموقف ، بل أصرّ على رأيه ، معتذراً أنّه لم يجد أفضل من عمر ، وواضح ، أنّ هذا الرد لم يكن قد أقنع معارضة فكرية ، قد استندت إلى موروث نبوي ضخم ، من النصوص على الخليفة الشرعي ، فكيف يدخل إذن مثل هذا الاستخلاف ضمن الإجماع ؟

ثالثاً ـ كان الخليفة الثاني ، قد عهد إلى ستة نفر من المسلمين انتخاب الخليفة من بعده ، ولم يدخل غير هؤلاء النفر في الشورى ، فكيف يصح بعد ذلك الإجماع ؟

هذه بعض الإشكالات التي تعترض مدرسة الإجماع ، وكان على منظريها تلافي ذلك ، فقدّموا الحلول التالية:

أولاً: إن ما حدث من اختلاف ، لا يضر في مقالة الإجماع ، فإن الإجماع المقصود ، هو إجماع أهل الحل والعقد ، وإن قلّوا ، حيث أنّ بيعة أبي بكر تمت

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٣٣.

(٢) المصدر السابق.

دون التوقف إلى اتفاق الكل ، وإلى ذلك أشار التفتازاني بقوله: «الإمامة ، تثبت عند أكثر الفرق ، باختيار أهل الحل والعقد ، وإن قلّوا ، للإجماع على إمامة أبي بكر من غير نص ، ولا توقف ، إلى اتفاق الكل»[١].

والجواب على ذلك: إن ما حدث من طارئ شاذ ، جعلوه قاعدة يقاس عليها ، ولعل التفتازاني قد غفل عما قاله الخليفة الثاني ، من أن بيعة أبي بكر فلتة ، والفلتة ، الأمر يقع من غير إحكام ، قاله ابن منظور في لسان العرب ، وأورد حديث عمر: أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها[٢] فالفلتة إذن ، ما شذ من الأمر ، وما خرج عن المعهود ، دون تروٍ وإحكام ، وما كان كذلك ، فلا يكون مناطاً لقاعدة ، ولا حجةً لدليل .

ثانياً: إن عهد الخليفة الأول ، للخليفة الثاني ، كان بإجماعٍ من أهل الحل والعقد .

الجواب: إنّ الإجماع يتبادر منه الكثرة ولا ينصرف إلى القلة ، فكيف يتوافق قولنا إن الإجماع يعني اتفاق الكل ، مع قولنا إن الاجماع يحصل من أهل الحل والعقد وإن قلّوا ؟

ثمّ لو سلمنا ، أن الإجماع هو إجماع أهل الحل والعقد ، فأي أهل الحل والعقد هم ؟ بعد ما سمعنا من اعتراض طلحة بن عبيد الله على الخليفة الأوّل ، عند توليته للخليفة الثاني ، وبعد ما رأينا من امتعاض عبد الرحمن بن عوف ، من تولية عمر ، بقوله: ولكن فيه غلظة[٣] فضلاً عن استبعاد علي بن أبي طالب ،

---

(١) جامع المقاصد للتفتازاني ٥: ٢٥٢ منشورات الشريف الرضي.
(٢) لسان العرب لابن منظور باب: فَلَت ٢: ٦٧ دار صادر بيروت.
(٣) راجع تاريخ الطبري ٣: ٤٣٣.

والعباس عم النبي ، وبني هاشم ، وعمار ، وأبي ذر ، والمقداد ، وسلمان ، والزبير وغيرهم كثير ، إضافةً إلى استبعاد جموع الأنصار وأجلّتهم .

ثالثاً: إن استخلاف الخليفة الثالث ، كان قد تم بالشورى ، وهي بالتالي إجماع أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن الخليفة الثاني عهد إلى ستة من أهل الحل والعقد ، ليقرروا بعد ذلك الخليفة ، إلى ثلاثة أيّام .

والجواب على ذلك: إنّ إستقراءً سريعاً لأحداث ذلك اليوم ، يمكن أن نقرأ فيه الإجابة على هذا السؤال .

أولاً ـ قال الطبري: «قالوا يا أمير المؤمنين [أي عمر] لو عهدت عهداً ، فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ، أن أنظر ، فأولّي رجلاً أمركم ، وهو أحراكم أن يحملكم على الحق ـ وأشار إلى علي ـ ورهقتني غشية ، فرأيت رجلاً دخل جنة ، قد غرسها فجعل يقطف كل غضةٍ ويانعة فيضمهُ إليه ، ويصيّره تحته ، فعلمت أنّ الله غالب أمره ، ومتوفٍ عمر ، فما أريد أن أتحملها حياً وميتاً ، عليكم هؤلاء الرهط ، الذين قال رسول الله ﷺ إنهم من أهل الجنة»[1] .

تيقن الخليفة الثاني من صلاحية علي بن أبي طالب للخلافة ، فهو أحراهم أن يحملهم على الحق ، هذا هو رأي الخليفة ، وهذه هي كوامن نفسه ، وقد قالها وهو ملاقٍ ربه بعد ساعة . إلّا أنّه عدل عن رأيه ، واستبدل عزمه ليتركها في ستة نفر ، وذلك لرؤيا رآها ، فحملته أن يتراجع عن قناعته ويستلسم لما رآه ، ولعل القارئ لهذا الحدث لا يفوته أن يتساءل عن جملة أسئلةٍ تقفز أمامه .

١ ـ هل يمكن بناء الحكم الشرعي على الرؤيا ؟ مع الاختلاف في حقيقتها ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٢٨.

فأنكرها قوم، واختلف فيها آخرون، وإليك ما أفاده ابن العربي في أحكام القرآن: «واختلف الناس فيها فأنكرتها المعتزلة، لأنّها ليست من الشريعة في شيء. وقد اتفقت الأمم عليها، مع اختلافهم في الآراء والنحل. واختلف علماؤنا في حقيقتها، فقال القاضي والأستاذ أبو بكر: أنّها أوهام وخواطر واعتقادات»[١].

وعلى فرض أنها حقيقة؟ فهل يجوز العمل بها؟ وهل يمكن تقرير حكم الشرع على أساسها؟

٢ ـ ما الذي جعل الخليفة الثاني أن يغلب ظنه في الرؤيا على حقيقة ما اعتقده واقعاً؟

٣ ـ هل كان الخليفة الثاني جاداً في الرؤيا، أم هو التمهيد لأرضية خلافة عثمان؟ الذي لم يجد بداً من أن يدعمها، ليتراجع عن إعترافه في صلاحية علي!

ثانياً ـ قال ابن الأثير: قال عمر لصهيب: وأدخلْ هؤلاء الرهط بيتاً، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً، وثلاثة رجلاً فحكّموا عبدالله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر، فكونوا مع اللذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين[٢]..

هكذا نظّم الخليفة الثاني برنامج الشورى، ورتّبه لصالح نزعته في عثمان، فعبد الله بن عمر هواه في عثمان لا محالة دون علي، ودليل ذلك أن عبد الله بن عمر لم يبايع علياً حتى قتل، فضلاً عن اعتكافه أيّام خلافته وعدم خروجه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣: ١٠٧٣ دار المعرفة بيروت.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣: ٣٥ دار الكتاب العربي بيروت.

ونصرته إياه . ومجموعة عبد الرحمن بن عوف تعني مجموعة عثمان بن عفان ، لأنّ تحالفاً تقليدياً كان بين الرجلين من ذي قبل ، فلا يقدّم عبد الرحمن أحداً على عثمان ، فالخط السياسي الذي يلتزمه عثمان هو نفسه الخط الذي يمثله عبد الرحمن ، وهو نصرة الشيخين وتأييدهما ، وأحداث السقيفة تشهد أن تحالفاً قد شكلته جبهة عبد الرحمن وعثمان لتأييد البيعة والعمل على إزواء الخلافة عن علي .

«ودعا [أي عبد الرحمن] علياً ، وقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة الخليفتين من بعده ، قال: أرجو أن أفعل ، فاعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قاله لعلي ، فقال: نعم نعمل ، فرفع رأسه إلى سقف المسجد ، ويده في يد عثمان ، فقال: اللّهُمّ اسمع واشهد ، أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان ، فبايعه . فقال علي: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما ولّيتَ عثمان إلّا ليرد الأمر إليك والله كل يوم في شأن»[١] .

ولنا مع نتيجة عبد الرحمن، مناقشة:

١ ـ ما معنى أن يجعل عبد الرحمن بن عوف شرطاً لعلي ، وهو العمل بسيرة الخليفتين من بعد رسول الله ﷺ ، فهل كانت سيرة الخليفتين وفق كتاب الله وسنة رسوله ، أم خلافهما ؟ فإن كانت هي نفسها ، فلا حاجة لهذا الشرط ، لأنّه لغوٌ ، وإن كانت سيرتهما خلاف كتاب الله وسنة رسوله ، فعلي أولى بالرفض لسيرتهما .

---

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٢٢٣ ـ تحقيق علي شيري دار احياء التراث العربي بيروت ط ١: ١٤٠٨ هـ

٢ ـ هل أن الخليفة مجتهدٌ على ضوء كتاب الله وسنة نبيه ، أم مقلدٌ ؟ فإن كان الخليفة مجتهداً على أساس كتاب الله ، فلا معنى لتقليد غيره ، وإن كان مُقلِداً فمن الذي قلده الشيخان ؟

٣ ـ هل كانت سيرة الشيخين بديلاً لسيرة النبي ﷺ في نظر عبد الرحمن بن عوف ؟ فإن كانت كذلك ، فإن علياً لا يرى لسيرة الشيخين من سبيل عليه ، كما يراها عبد الرحمن ، بل هو آخذٌ بسنة رسول الله دون غيره .

٤ ـ ألم يكن الخليفتان يستشيران علياً في كل معضلة نزلت بساحتهما ، حتى صرح الخليفة الثاني كما رواه سعيد بن المسيب ، قال عمر بن الخطاب: أعوذ بالله من معظلة ليس لها أبو الحسن . يعني علياً[1] .

وأخرج الدار قطني ، أن علياً قال للستة الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم كلاماً طويلاً ، من جملته: أنشدكم بالله هل فيكم أحد ، قال له رسول الله ﷺ يا علي أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة غيري ؟ قالوا اللَّهُمّ لا . وروى السماك ، أن أبا بكر ، قال له رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يجوز أحد الصراط إلّا من كتب له علي الجواز[2] .

فهل أبين حجة من علي ، بعد هذا كله ؟ أم هل يحتاج مع هذا ، أن يسير على سُنةِ من شهدا له بالفضل ، والمنزلة ؟

هذه هي الشورى التي جرت يوم ذاك ، فهل ترى فيما جرى من أحداث الشورى ، ما ناسب التشاور حقيقة ؟ أم هي الخدعة ، كما وصفها علي بن أبي

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٢٧ مكتبة القاهرة بمصر.
(٢) المصدر السابق.

طالب ، بعد إعلان نتيجة الشورى ، وبهذه الكيفية ؟

قال الطبري: فرجع علي يشق الناس حتى بايع ، وهو يقول: «خدعة ، وأيما خدعة[1]» ! !

فهل يحق لنا أن نصف ما جرى بانه شورى ؟ وقد وصفها علي أنّها «خدعة» ، وهو أحد النفر الستة ؟

وإذا عرفت هذه المقدمات ، فلابد من الفصل بين مصطلحات الإجماع وأهل الحل والعقد والشورى ، فإن مدرسة الإجماع عمدت إلى الخلط بين الجميع ، خروجاً عن أي إشكال ، فإذا أشكلتَ على الإجماع بأنّه غير تام ، قالوا أن الإجماع ، هو إجماع أهل الحل والعقد ، وإن أشكلتَ أن في استخلاف الخليفة الثاني للخليفة الثالث لم يكن هناك إجماع لأهل الحل والعقد ، قالوا هناك شورى لأهل الحل والعقد ، ورأيت الشورى ، وكيف تصرّف فيها شخص واحد ، وقرأت عن الإجماع ، كيف تم يوم السقيفة ، وعلمتَ كيف كان إجماع أهل الحل والعقد في استخلاف الخليفة الثاني ، حيث لم يكن قد اطلع على الأمر سوى عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان فقط .

والحقُّ لم يتضح لنا حتى الآن المراد من أهل الحل والعقد من هم ، جميع أهل الحل والعقد ؟ وقد رأيتَ أن الخليفة يختار نفراً منهم ، أم هو اختيار لأهل الحل والعقد ، يختاره الخليفة ، فهل يسمى بعد ذلك ، إجماعاً ؟

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٣٨.

هل الاجماعُ فعليّ.. أم مناورات تنظيرية؟

قال الباحث علي عبدالرازق في كتابه ، الإسلام وأصول الحكم: الأصل في الخلافة عند المسلمين أن تكون راجعة إلى أختيار أهل العقد والحل ، إذ الإمامة عقد يحصل بالمبايعة من أهل الحل والعقد ، لمن اختاروه إماماً للأُمّة بعد التشاور بينهم ، قد يكون معنى ذلك أن الخلافة تقوم عند المسلمين على أساس البيعة الاختيارية ، وترتكز على رغبة أهل العقد والحل من المسلمين ورضاهم ، وقد يكون من المعقول إذا رجعنا إلى الواقع ونفس الأمر وجدنا أن الخلافة في الإسلام لم ترتكز إلّا على أساس القوة الرهيبة ، وأن تلك القوة كانت ، إلّا في النادر ، قوة مادية مسلحة ، فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلّا الرماح والسيوف والجيش المدجج والبأس الشديد ، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه ، ويتم أمره[1].

يقف السيد علي عبد الرازق من مسألة إجماع أهل العقد والحل موقفاً واضحاً ، حيث ينسف صحة وقوع مثل هذا الإجماع ، ويُرجع الخلافة الإسلامية الفعلية إلى أنها دولة قامت على الغلبة والقوة ، ويحبط في ذلك مبتنيات نظرية الإجماع ، بل وينفي قيامه مطلقاً ، وإنّما كانت بيعة أبي بكر إفرازاً لتنافساتٍ سياسية رهيبة ، إنتهت بغلبة فريق السقيفة على الأمر ، فقال:

لم يكن خافياً على العرب ، أن الله تعالى قد هيّأ لهم أسباب الدولة ، ومهّد لهم مقدماتها ، بل ربما كانوا قد أحسوا بذلك من قبل أن يفارقهم رسول الله ﷺ ، ولكنهم حين قبض رسول الله ﷺ أخذوا من غير شك يتشاورون في أمر تلك الدولة السياسية ، التي لم يكن لهم مناص ، من أن يبنوها على أساس وحدتهم الدينية التي خلفها فيهم النبي ﷺ ..

---

(١) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق: ٦٩ منشورات دار الحياة بيروت ١٩٦٦.

وما كانت نبوة إلّا تناسخها ملوك جبرية.

كانوا يومئذ إنما يتشاورون في أمر مملكة تقام، ودولة تشاد، حكومة تنشأ إنشاء. ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الإمارة والأمراء، والوزارة والوزراء، وتذاكروا القوة والسيف، والعز والثروة، والعدد والمنعة، واليأس والنجدة. وما كان كل ذلك إلّا خوفاً في الملك، وقياماً بالدولة وكان من أثر ذلك ما كان من تنافس المهاجرين والأنصار وكبار الصحابة بعضهم مع بعض تمت البيعة لأبي بكر، فكان هو أوّل ملك في الإسلام.

وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لأبي بكر، وإستقام له الأمر تبين لك إنّها كانت بيعة سياسية ملكية، عليها كل طوابع الدولة المحدثة، وإنّها قامت كما تقوم الحكومات، على أساس القوة والسيف[1].

وما ذهب إليه الأستاذ الباحث هو الأوفق بالواقع، الذي قامت عليه بيعة السقيفة.

هل يرى الخليفة الثاني حجية الإجماع في بيعة أبي بكر؟

لم يكن في بال الخليفة الثاني الإعتذار عن بيعة أبي بكر بالإجماع الذي نصطلحه اليوم، ولن يحتمل الأمر أي تخريج على أنّه إجماع الأُمّة أو اجتماع أهل الحل والعقد، فضلاً عن إعترافه، بأن بيعة أبي بكر لم تكن بدليل من كتاب الله وسنة نبيه، بل هو رأي إرتئاه، وأجبر المسلمين عليه، وهدد وتوعد إن لم يستجيبوا إليه، ولعل الفتنة التي توجس هو وحده دون غيره دفعته إلى ذلك، بل اعتذر عن بيعة أبي بكر بأنّها فلتة وقى الله المسلمين شرها، فلا إجماع إذن، ولا

(١) المصدر السابق: ١٨٣.

دليل من كتاب الله، ولا عهد من رسوله، بل هكذا رأي مجرد، عمل به، واستحسنه، وإليك مقالته:

عن أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغدُ، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال:

أيها الناس إنّي قد كنت قلت بالأمس مقالة ما كانت إلّا عن رأيي، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا، حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه، الذي هدى به رسول الله، فإن إعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، وثاني إثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا[١].

وإذا كان الأمر كذلك، فلا حاجة لنا إذن بتنظيرات الإجماع، ومقولة آراء أهل الحل والعقد، فقد كان الخليفة الثاني، واضحاً وصريحاً، في الأسباب التي دفعته إلى بيعة أبي بكر.

وإذا كنا متمردين على الحقيقة، فإن وقائع التاريخ تناقض ما ندّعي، وستدافع عن نفسها بنفسها، اذا ما وجدت من يقرأ التاريخ قراءة معكوسة، ويتغاضى عن الحقيقة بحجة الدفاع عنها.

وكم تصدت الوقائع التاريخية ذاتها، للدفاع عن حقائق مجريات الأحداث نفسها، وكم هي صريحة في إظهار ما لا يخفى، وإذا كان البعض متبرعاً في أن

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٢١٠.

يفهم الأحداث بذوق خاص، وبرؤية خاصة، فلا نجد ما يسوّغ له أن يُلزم الآخرين برأيه، وتوجيهه بالوجهة التي يرضي ما تاقت إليه نفسه، وما ذهبت إليه.

خلفاء مدرسة الإجماع

عن شعبة بن عبد الملك سمعت جابر بن سمرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يكون اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنّه قال كلهم من قريش[1].

يشير الحديث إلى أن عدد الخلفاء بعد النبي ﷺ إثنا عشر خليفة، كلهم من قريش، وليس ثمّة غموض يوجب الحيرة والتردد في معرفة قصده ﷺ، ولا إبهام يؤدى بالحديث إلى تضارب الآراء، وتنازع الأفهام، بل إن قرائن الحديث تُعين القارئ على استنباط القصد النبوي، من أن الأئمة الاثني عشر، هم آل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، هذا هو مفهوم الحديث، وتلك هي دلالته.

وإذا أغضينا عن النصوص الواردة في أسمائهم، فإن ملامح شخصيتهم توحي إلى خلافتهم، ومعالم حياتهُم تنبئ لا محالة عن مقتضيات الاستخلاف فيهم، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة إذن إلى الحيرة في تفسير ما يدعي البعض من إبهام الحديث، والنبي ﷺ لا يُلقي مبهماً مجهولاً، وإلّا فلا حاجة لذكره بعد ذلك، وحكمته ﷺ تقتضي خلاف ذلك، لمقامه التبليغي الذي أوجب أن يكون حديثه مبنيّ لحكم تشريعي، أو تفسيراً لحكم تشريعي، وما اختلف فيه من قصده ﷺ، ذلك لاختلاف الدليل، أو تشابه القرائن لدى المجتهدين، أما كون

---

(١) صحيح البخاري باب الأحكام.

القرائن واضحة جلية ، فلا مجال بعد ذلك للإختلاف والتنازع .

إلّا إن ظاهرة الإبهام في الحديث هي الطريقة التي لاقت رواجاً لدى البعض ، وامتدت آثارها لتضرب مساحات واسعة من كتب المعاصرين ، حتى زحفت إلى ذهنية القارئ نفسه ، فأورثته حالة تضخم كاذب في الفهم والتحقيق ، فتصرفه بعد ذلك عن أن يتابع معنى الحديث وتفسيره .

فالحديث تدل قرائنه على شخصية الأئمة الأثني عشر من آل البيت عليهم السلام ، ولا مجال لتفسيره في غيرهم ، وذلك للياقتهم فضلاً عن النصوص الواردة فيهم ، وسيأتي البحث في معالم شخصيتهم في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى .

إلّا أن المتتبع لبحوث مدرسة الإجماع ، سيجد أن الحديث قد إلتزمت تفسيره ثلاث تيارات فكرية ، هي خلاصة تيارات سياسية قائمة ، أو ممهدة لقيامها:

التيار الأول: وهو الداعي إلى إبهام الحديث ، وعدم مناقشته ، إلّا أنّه لا يخلو من بعض الإحتمالات التي ترجع بالقارئ إلى الإبهام أخيراً ، وإلى ذلك دعا الإمام الكشميري الديوبندي بقوله في تفسير الإثني عشر أميراً: قيل إنّهم متفاصلون ، وقيل متوالون ، وقيل هم الخلفاء الأربعة والإمام الحسن ، والأمير معاوية ، وبعض من الخلفاء العباسيين ، حتى يكون آخرهم المهدي ، وقيل: دعوه على إبهامه[1].

التيار الثاني: فسّر الحديث لصالح ترشيح ثمانية من الأمويين ، إضافة إلى الخلفاء الاربعة ، وهو كما ترى تيار ذو نزعة أموية حادة تتطرف لنزعتها ، ولم تر لغير هؤلاء أن يدخلوا تحت قوله صلى الله عليه وآله الأئمة من قريش ، مع وجود العباسيين

---

(١) فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري الديوبندي باب الأحكام ٤: ٥٠٥ دار المعرفة بيروت.

القرشيين ، فضلاً عن العلويين ، ومن أعيان هذه النزعة ، القاضي عياض ، وقد لخص قوله ابن حجر العسقلاني بعد استعراضه لكلامه وكلام ابن الجوزي فقال: وينتظم من مجموع ما ذكراه أوجه ، أرجحها الثالث من أوجه القاضي لتأييده بقوله في بعض طرق الحديث الصحيحة على أبي بكر ، ثمّ عمر ، ثمّ عثمان ، ثمّ علي ، إلى أن وقع أمر الحكمين في صفين ، فسمى معاوية يومئذ بالخلافة ، ثمّ اجتمع الناس على معاوية عند صلح الحسن ، ثمّ اجتمعوا على ولده يزيد ولم ينتظم للحسين أمر ، بل قتل قبل ذلك ، ثمّ لما مات يزيد وقع الاختلاف ، إلى أن اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير ، ثمّ اجتمعوا على أولاده الأربعة الوليد ثمّ سليمان ثمّ يزيد ، ثمّ هشام ، وتخلل بين سليمان ويزيد عمر بن عبد العزيز ، فهؤلاء بعد الخلفاء الراشدين والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك إجتمع الناس عليه لما مات عمه هشام فولى نحو أربع سنين ثمّ قاموا عليه فقتلوه . . إلى آخر كلامه[1].

التيار الثالث: تيار التزم النزعتين معاً ، النزعة الأموية والنزعة العباسية ، وحاول الجمع بينهما ، ليخرج باحتمالات رتّبَ فيها تشكيلة غير موفقة لانعطافه كثيراً إلى احتمالات غير دقيقة ولا محسوبة ، وإليك محاولته بعد أن استعرض السيوطي مثلاً جملة من الأقوال في تفسير الحديث ، قال:

قلت: وعلى هذا فقد وجد من الاثني عشر خليفة الخلفاء الأربعة ، والحسن ومعاوية ، وابن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز ، هؤلاء ثمانية ، ويحتمل أن يضم إليهم المهتدي من العباسيين لأنّه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني اُمّية وكذلك

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن حجر العسقلاني باب الأحكام ١٣: ٢١٤ دار المعرفة بيروت.

الظاهر لما أوتيه من العدل ، وبقي الاثنان المنتظران أحدهما المهدي من آل بيت محمّد ﷺ[١] .

هذه هي أهم التيارات التي يمكن عرضها ، ويلاحظ عليها:

١ ـ لم تكن هذه التيارات موفقة مطلقاً ، لالتزامها مبدأ البحث بالاحتمالات ، ومعلوم ، أن غياب الدليل عن القضية العلمية المبحوثة يدخلها في متاهات الاحتمالات فتفقد مصداقيتها العلمية ، فضلاً عن المصداقية التاريخية التي تنفي جميع هذه الاحتمالات .

٢ ـ تعثرت هذه المحاولات في تقديم الحلول الصحيحة ، وذلك لاقحامها وجودات حاكمية ذات سمة قيصرية وكسروية ، لا تتناسب مع ما تعارف من ورع الخليفة ، وزهده وتقواه ، وسيأتي في البحوث القادمة بيان ذلك .

٣ ـ عبّرت هذه التيارات عن ولاءاتها السياسية غير الحيادية ، وأدخلت في حساباتها برمجة الأحاديث النبوية لصالح نزعتها ، مما حدى بالقارئ أن لا يسكن إلى أحدها ، خصوصاً وهو يجد التضارب في مصاديق التفسير ، دون الاعتماد على دليلٍ ناضج ، أو تفسيرٍ رشيد .

٤ ـ إن المتتبع لهذه الجهود التفسيرية في الحديث ، وبهذه الطريقة المتشنجة والغير العلمية يشعر أن هناك تنافساً محموماً على إيجاد حالة من الإبهام المفتعل في قراءة الحديث ، فإن التفسير ينزع إلى تثبيت رؤية أُخرى غير رؤية تشخيص الأشخاص ، وهي أهم في نظر هؤلاء الباحثين من تسمية الخلفاء ، وهذه الرؤية تحاول التضبيب على الفهم الطبيعي للحديث ، وتتهمه بالابهام لسد الطريق على

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٣ دار الفكر بيروت.

الآخرين من مواصلة بحوثهم.

٥ ـ إن دوافع ذلك واضحة، تكمن في أن الحديث يشير إلى الأئمة الاثني عشر من آل البيت عليهم السلام، لقرائن مقالية مستفادة من أحاديث صحيحة روتها الإمامية بطرقها تنص على خلافتهم، ولا يمكننا ذكرها هنا لعدم مناسبتها مع خطة البحث الهادفة إلى قراءة خلفاء المدرستين بنصوص أهل السنة، فضلاً عن القرائن الحالية التي تؤكد جدارة وواقعية الأئمة من آل البيت عليهم السلام لخلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووراثته.

إختيار خطة البحث:

ومن خلال استعراضنا لتيارات التفسير هذه، يمكننا الآن دراسة أي المفاهيم التي تختارها هذه التيارات الثلاث، وسوف لا نفاضل في الاختيار لعدم مصداقية هذه التيارات علمياً، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى أن عروضاً لمثل هذه التيارات تملأ كتب الباحثين، ولا يروقنا الانجرار وراءها بعد أن كشفنا عن نوايا وواقعية هذه الدراسات، ولكننا سوف نختار التيار الثاني، وهو تفسير القاضي عياض ذلك لأنه أوفق بخطة البحث، فإن إستعراضاً لخلفاء بني أُمية يمهّد السبيل لاستعراض الأئمة الاثني عشر، لا في صدد المقارنة والتفاضل الواقعيين، بل من أجل استقطاب أغلب البحوث المعروضة في خطة واحدة، وذلك من أجل دراسة مقارنة لشخصيتي المدرستين ولمقتضياتٍ فنية، ثمّ نكون قد عرّجنا على حياة بعض خلفاء بني العباس وبما يقتضيه مقام البحث، وبذلك سوف نجمع رؤى التيارات الثلاث المعروضة، وسنوفر على الباحث جهد البحث والمتابعة غير الجادة.

قائمة القاضي عياض:

في قائمة القاضي عياض ـ وهي التي يرجحها ابن حجر العسقلاني ـ جاء

ترتيب الخلفاء، كالآتي:

الخلفاء الراشدون، معاوية بن أبي سفيان، يزيد بن معاوية، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ولمّا كانت البحوث السابقة قد قدّمت لنا قراءة عن حقبةٍ تاريخية تكشف ملامح شخصية الخلفاء الراشدين، فضلاً عن معالم ومبتنيات دورةٍ زمنية مكتظة بالاحداث والتحولات، لذا فاننا سننتقل مباشرة إلى معاوية بن أبي سفيان لنبدأ بدراسة قائمة خلفاء الاجماع:

أولاً ـ معاوية بن أبي سفيان

وليَ معاوية الشام في عهد عمر بن الخطاب ، وبقي هناك ، حتّى قتل عثمان ، فلمّا وليَ علي بن أبي طالب الخلافة ، لم يبايعه معاوية ، بل أعلن نفسه خليفة ، وهو أوّل من ادعى الخلافة مع وجود الخليفة الشرعي ، الذي بايعته الأُمّة ، وهو أمر لم تعرفه أصول الخلافة الإسلامية ، ولم تألفه الأُمّة ، ذلك لأنّ الخلافة ، إمّا أن تكون بالنص ، وهو ما ذهبت إليه الإمامية ، وإمّا بالإجماع وآراء أهل الحل والعقد ، كما ذهب إلى ذلك أهل السنة ، فأما النص ، فإن الأمة اجتمعت في وقتها ، على خلافة علي بن أبي طالب وبايعته ، فلا مجال لتخلف أحد من المسلمين عن ذلك ، فضلاً عن دعوى الخلافة مع وجود الخليفة الشرعي .

فهنا أمران:

الأول: إمّا انخرام قاعدة الإجماع ـ والتي مفادها أن الأُمّة متى اجتمعت على الخليفة صار شرعياً ، لا ينازعه أحد ، ولا يحق الخروج عليه ـ فإن علياً وهو خليفة ، لم يجتمع عليه البعض ، كالشاميين ولم يبايعوه ثم نازعوه ، فأين الاجماع اذن بعد المنازعة وعدم البيعة ؟

الثاني: رد دعوى معاوية بأنه خليفة ، لأنّ الخلافة استقرت في علي بن أبي طالب ، وأن الأُمّة اتفقت كلمتها على ذلك ، فأهل النص ، وهم الامامية ، قالوا بإمامته ، للنصوص النبوية الصحيحة ، وأهل السنة ، ذهبوا إلى خلافته ، لأنّ الأُمّة

اجتمعت عليه بعد مبايعتهم له، فكان خروج معاوية على خلافة علي خروجاً على أُمّة المسلمين، القائلين بالنص، أو الذاهبين إلى الإجماع.

والأخذ بهذين الأمرين يترتب عليه ما يلي:

أولاً: عند انخرام قاعدة الإجماع، فلا محيص من الأخذ بالنصوص النبوية الواردة في تعيين الخليفة الشرعي، وهو الأمر الذي قالت به الأمامية، ووافقهم على ذلك المعتزلة مع اختلاف في التفصيل، ليس هنا محله، فصار تقديم مدرسة النص، على مدرسة الإجماع أحرى بمقتضيات البحث العلمي في المقام وأوفق.

الثاني: يترتب على رد دعوى معاوية للخلافة؛ إمّا كفره، أو فسقه، وهو ما يقتضي مقاتلته ودفعه عن دعواه، وذلك يثبت بالصحاح الآتي ذكرها:

١ ـ ما يقتضي فسقهُ:

روى البخاري في صحيحه، عن المساور الحميري، عن أُمّه، قالت: دخلت على أُم سلمة، فسمعتها تقول: كان رسول الله ﷺ يقول: «لا يحب علياً منافق، ولا يبغضه مؤمن»[١].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: إنّا كنا نعرفُ المنافقين نحن معشر الأنصار، ببغضهم علي بن أبي طالب[٢].

وفي سنن ابن ماجه، عن زربن حبيش، عن علي، قال: عهد إليّ النّبيّ الأُمّي ﷺ أنّه لا يحبنّي إلّا مؤمن، ولا يبغضني إلّا منافق[٣].

---

(١) سنن الترمذي ٥: ٦٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سنن ابن ماجه ١: ٤٢.

ولا يخفى، أن معاوية حينما أعلن خروجه على علي بن أبي طالب، أعلن لأصحابه أن علياً لم يكن خليفة شرعياً، ومن كان هذا حاله فيجب مقاتلته، حتّى نصب له العداوة والبغضاء، وأعلن سبه على منابره، وأمر أصحابه بذلك، فجعلها سنةً باقية عند قومه، وهي أقصى غايات البغض التي عرف بها معاوية، طيلة خلافة علي، ومن كان كذلك، فإن نفاقه ثابت بنص الأحاديث التي سلف ذكرها.

٢ ـ ما يقتضي كفره:

فقد أوردت الصحاح ما نصه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[١].

قال شارح صحيح مسلم: إنّه لا يجوز عقد البيعة لخليفتين في زمن واحد، وإلّا لما جاز قتل الآخر منهما.

قال الشارح: واتفق العلماء على أنّه لا يجوز عقدها لخليفتين في عصر واحد سواء اتسعت دار الإسلام أم لا، وقال إمام الحرمين: وعندي أنّه لا يجوز عقدها لاثنين في عصر واحد وهذا مجمع عليه، فإن بَعُدَ ما بين الإمامين فللاحتمال فيه مجال، وهو قول فاسد مخالف لما عليه السلف والخلف ولظواهر إطلاق الأحاديث[٢].

وروى البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ إنّه قال: «من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية[٣]». ومعلوم، أنّ قتل المؤمن لا يحل، إلّا إذا خرج عن إيمانه إلى الكفر. الموجب مقاتلته، إذ لا يحل قتال المسلم فضلاً عن

(١) صحيح مسلم ٦: ٢٣، باب الأمارة: إذا بويع الخليفتين.
(٢) هامش صحيح مسلم ٦: ٢٣، باب الإمارة.
(٣) صحيح البخاري كتاب الفتن ٤: ٤٤٤.

المؤمن، وكل من أمر به النبيّ ﷺ بمقاتلته فقد أخرجه من الإسلام إلى الكفر، فإن دم المسلم حرام، فلما بويع عليّ خليفة، أعلن معاوية نفسه خليفة متمرّداً عليه، فوجب مقاتلته استناداً إلى الحديث النبوي الذي أخرجه مسلم آنفاً، وكل من أمر به النّبيّ ﷺ بمقاتلته، فقد اقتضى كفره.

وإذا ضممنا حديث ابن الجوزي في قتال علي، فإننا نكون قد حصلنا على ما يؤيد مقتضى فسقه، فضلاً عن كفره، حيث قال:

ولا يختلف العلماء أن علياً عليه السلام لم يقاتل أحداً إلّا والحق مع علي، كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «اللّهم أدر معه الحقّ كيفما دار»[١].

ويؤيده حديث أم سلمة، كما رواه أبو بكر الهيثمي وابن حجر في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد عنها أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لا يفترقان حتّى يردا عليَّ الحوض»[٢].

ومثله ما أخرجاه عن أم سلمه، أنها كانت تقول: كان عليّ على الحقّ، من اتبعه إتبع الحق ومن تركه ترك الحق، عهد معهود قبل يومه هذا[٣].

هذا ما اقتضته الأحاديث النبوية الصحيحة، حيث أوجبت علينا الأخذ بأمور:

١ ـ القول بخلافة علي، وبطلان خلافة من أعلن نفسه خليفة في عرضه.

٢ ـ القول بوجوب فسق من جاهد علياً، ونصب له العداوة والبغضاء.

٣ ـ القول بوجوب الكفر المؤدي إلى قتل من أعلن نفسه خليفة، مع وجود

---

(١) صيد الخاطر لأبن الجوزي: ص ٣٨٥، المكتبة العلمية بيروت.
(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ١٣٤، طبعة ثالثه، ١٩٨٢ دار الكتاب العربي بيروت.
(٣) المصدر السابق.

من بايعته الأُمّة.

٤ ـ عدم القول بإجماع الأمّة، المفضي إلى طرح النصوص النبوية الدالة على تسمية الخليفة، لأنّ مع عدم اجتماع بعض الأُمّة كالشاميين وغيرهم، صحت خلافة علي وقال المسلمون بها، واتفقوا عليها، حتّى عدّوه الخليفة الرابع.

٥ ـ القول بالأخذ بالنصوص النبوية ،الدالة على الخليفة الشرعي، والتزام ما قالت به الإمامية، من أن الخلافة بالنص، لا باجتماع الأمّة.

فإن تمسّك بعضهم بأن معاوية صحت خلافته بعد صلحه مع الحسن بن علي عليه السلام، ولمّا كان الوقت قد خلى من حجة، وهو الخليفة السائس لئلا تترك أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم سدى، فقد وجب القول، بخلافة معاوية، فإن الأُمّة لا تترك دون خليفة وإمام! فإن هذا متمسّك متهافت حتى لو أعرضنا عن الطريق الذي سلكه معاوية لحيازة الخلافة، ذلك أنّ للخلافة شروطاً عدّدها هذا الفريق نفسه المتمسّك بهذه الدعوى، وأن أي واحد من هذه الشروط كفيل بسلب الشرعية عن خلافة معاوية.

فسنقرأ من أقوال السلف في معاوية، ما يكشف عن مدى انطباق شرائط الخلافة تلك عليه.

١ ـ قال الحسن البصري: أربع خصال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلّا واحده لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأُمّة بالسيف، حتّى أخذ الأمر من غير مشورة، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.

واستخلافه بعده إبنه، سكيّراً خميراً، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير.

وأدعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

وقتله حُجراً وأصحاب حجر، فيا ويلاً له من حجر، ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر[١].

٢ ـ قالت عائشة: لولا أنا لم نُغّير شيئاً إلّا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه، لغيرنا قتل حجر، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً، حجاجاً معتمراً[٢]. وكانت عائشة تقنت في صلاتها بلعن معاوية وابن العاص بعد مقتل أخيها محمد بن أبي بكر.

٣ ـ قال عمر بن الخطاب: إن عبادة بن الصامت، أنكر على معاوية أشياء، ثم قال له لا أساكنك بأرض، فرحل إلى المدينة، فقال له عمر ما أقدمك إلي، لا يفتح الله أرضاً لست فيها أنت وأمثالك، فإنصرف لا أمرة لمعاوية عليك[٣].

٤ ـ قال عمرو بن العاص: لولا مصر وولايتها، لركبت المنجاة منها، فاني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحقّ، وإننا على ضده[٤].

٥ ـ كان الناس يقولون: أول ذل دخل الكوفة، موت الحسن بن علي، وقتل حجر، ودعوة زياد[٥].

ومن كانت هذه حاله فلا يمكن أن يصدق عليه شيء من شروط الامامة والخلافة.

فلا نصّ، ولا إجماع، ولا شيء من شروط الخلافة متوفر فيه..

---

(١) الكامل لأبن الأثير ٣: ٤٨٧، دار صادر بيروت ١٩٧٩م.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٣: ٣٥٥، دار المعرفة بيروت.
(٤) النصائح الكافية لمن يتولى معاوية: ص ٥٥، الطبعة الثالثة ١٩٦٦، مكتبة الحيدرية النجف.
(٥) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٨٧.

وعليه فخلافة معاوية ، مخالفة لمباني مدرسة أهل السنة القائلين بالإجماع ، وخلافها لمدرسة الإمامية القائلين بالنص ، أظهر .

وأكثر من ذلك ، إن من يقرأ ما روي عن معاوية لا يتوقف في كفره وإلحاده بعد ذلك ، فان الزبير بن بكّار قال: سمعت المدائني يقول: قال مطرف بن المغيرة بن شعبة وفدتُ مع أبي المغيرة إلى معاوية ، فكان أبي يأتيه يتحدث عنه ثم ينصرف اليَّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه ، اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ، فرأيته مغتماً ، فانتظرته ساعة ، وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة ؟ قال: يابني أني جئت من عند أخبث الناس ، قلت له: وما ذاك ؟ قال: قلت له وقد خلوت به: انك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فانك قد كبرت ، ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه ، فقال لي . هيهات هيهات ! ! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلّا أن يقول: قائل: أبو بكر ، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلّا أن يقول قائل: عمر ، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجلٌ لم يكن أحد في مثل نسبه ، فعمل ما عمل وعمل به فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره ، وذكر ما فُعل به ، وإن اخا هاشم يُصرخ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله فأي عمل يبقى مع هذا ؟ لا أُمَّ لك ، والله إلّا دفناً دفناً ![1]

---

(١) الزبير بن بكار الموفقيات، المسعودي مروج الذهب ٤: ٤٩.

ثانياً ـ يزيد بن معاوية

الرجل الذي بات ذكره مظهراً من مظاهر التحرج الديني الذي يرافق المؤرخ الإسلامي، إذا أراد عده من رجالات التاريخ الإسلامي، فضلاً عن إقحامه في خلفاء المسلمين، أمّا إذا اهتم المؤرخ الإسلامي، بدراسة «التاريخ السلبي» للفترة التي ربضت على الأمّة آنذاك، وألقت بكلكلها على الجسد الإسلامي النامي، إبّان صدر الإسلام، فإن سيرته ستسمح للباحث الإسلامي، بدراسة أُولى النتائج التي خلّفتها الظروف الطارئة، ذات القرارات المرتجلة في التعيين لمناصب الدولة الرسمية الفتية.

فأهم قضية، تشخص معالمها للباحث الإسلامي، عند دراسته لسيرة يزيد، هي قتله الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنّة، بنص النّبيّ الكريم ﷺ، ومنها يرجع قافلاً في التزود من معالم شخصيته، ذات السمعة السيئة، على المستويين الديني، والسياسي.

أمّا على المستوى الديني، فإن مقتل الحسين بن علي عليه السلام، يُعد من أهم العثرات التي مر بها التاريخ الإسلامي، والتي امتدت بمساوئها، لتزحف على التاريخ الإنساني جميعاً، فالرسالة بَعْدُ غضّة طريةٌ، والنّبيّ ﷺ قد أخلف ذريته بين ظهراني المسلمين على أمل أداء حقوقهم، وضمان مقامهم في قلب الحد ث الإسلامي، والقرآن الكريم أكّد على مراعاة حق النّبيّ ﷺ بضمان حقوق آله

حيث قال: ﴿قُل لا أَسأَلُكُمْ عَليهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ في القُرْبَىٰ﴾[1]، والمودة عنوان شامل عريض يضم تحته معنونات كبرى أصلية وأُخرى فرعية تجتمع كلها لتعطي مفهوم المودة، فمن ضمان الابقاء على مقامهم الذي أوضحهُ النّبيّ ﷺ إلى كامل حقوقهم المادية منها والمعنوية، ولما كانت التوصيات في هذا المجال قرآنية صرفة، فقد نالت من اهتمام المسلمين بما يناسبها، لما لمودة آل البيت من ضمان، لاكتمال الرسالة، إضافة لبقائها، حيث كان آل البيت عليهم السلام، هم المثال الحي، لتجليات الرسالة وإعادة لشخص النّبيّ الكريم في أذهان الأُمّة مهما بعدت عليهم الشِقّة وطال الزمان.

أمّا على المستوى السياسي، فقد كانت خلافة يزيد، أوّل خرقٍ سياسي يرتكبه معاوية على نطاق ما تعارف في الأدبيات السياسية المبنية على عقائد الأُمة التي اختارت منها النص النبوي، وذهب قسم آخر إلى الإجماع، أو الشورى لأهل الحل والعقد، فلما وصلت النوبة إلى معاوية جعلها وراثة ملك بين أبٍ إلى ابن، أو أخ وهكذا، وهو إحباط لكلا المشروعين السياسيين الآخذ أحدهما بطريقة النص، أو الذاهب إلى أيدلوجية الشورى، بل هو انحسار للشرعية الاسلامية من أن تمتد، لتشمل كل مرافق الحياة في الدولة الإسلامية الناشئة على أنقاض المفاهيم الجاهلية، وحضارات فارس والروم، ولمّا كانت الشرعية تحل بدل مبدأ القوة ومفاهيم الغلبة في دقائق الحياة الاسلامية ومهامها، كان لمبدأ الحكم نصيبه الأكبر، من الشرعية الممنوحة عن طريق المفهوم القرآني والسنة الشريفة، وبقيت الشرعية ـ وإن تغيرت مفاهيمها الحقيقية ـ ترافق تصرفات الحاكم وآرائه، فلا حق للحاكم أن يتصرف إلّا على أساس القرآن والسنة، وأي تأخير لهذين المنبعين

---

(١) الشورى: الآية / ٢٣.

يكون الحاكم مسؤولاً أمام آراء الصحابة، حتى يُقدّم تبريراً يقنع به الجميع، وإلّا، فعلى الأُمّة أن تتولى إرشادهُ الفاضي إلى إصلاحه، حتّى تنامت مفاهيم المعارضة، الداعية إلى إيجاد ضمانات، تُبقي على سلامة التعاليم القرآنية، والنبوية، من أن يطالها رأي الحاكم، مما تسبب في اختناقات للمفاهيم المتباينة، بين الحاكم، وبين قوى المعارضة الاسلامية التي تحصل على نتائج سريعة جداً، بالقياس إلى جهود المعارضة القادمة.

هذا حال الشرعية في النظام الإسلامي، وفي ظل الحكم الأموي الذي افتتح عهده معاوية بن أبي سفيان، تتراجع هذه القيم، وتنحسر هذه المبادئ إلى الحد الذي سلّم المسلمون فيه إلى الواقع السياسي الجديد، الذي فرض مفاهيم دخيلة على مبادئ الحكومة الإسلامية، وكانت لخطوة معاوية، في تعيين ابنه يزيد ولياً للعهد، وأخذ البيعة في حياته هو أوّل تنصير للمبادئ السياسية الإسلامية، حيث كان المفهوم السياسي لدى الروم النصرانيين المتاخمين للدولة الإسلامية قد تعارف لديهم التوريث لمناصب قياصرتهم، فيعقد الأب لابنه ولاية العهد، أو الأخ لأخيه، وهكذا، ممّا أدى إلى أنّ يتأثر معاوية بن أبي سفيان بهذه الأعراف والتقاليد النصرانية الرومانية، وأن يقحمها في مفاهيم الحكم الإسلامي.

إن غياب الشرعية الإسلامية، عن أي مجال من مجالات الحياة، ستحل معه خروقات للمفاهيم الإلٰهية المقدسة، ولمّا كانت الشرعية الإسلامية، تغيب في أكثر مرافق الدولة الأموية، وعلى رأسها حاكمها، فقد حلت حالات خرق كبرى، كان أهمها مقتل الحسين بن علي عليه السلام، الذي نفذه وباشره يزيد بن معاوية، وحاول أن يعتذر بعضهم عن يزيد، بأن عبيد الله بن زياد قد أساء إلى المفاهيم الدبلوماسية المطلوبة، وأبدى عجزه في حُسن التفاوض مع الحسين بن

علي عليه السلام ، الذي يمكن أن ينتهي الأمر إلى استسلامه دون إراقة دمه .

هذه أيضاً إحدى الخروقات الأدبية ، التي حلت في أوساط بعض الكتّاب ، بعد غياب الشرعية الإسلامية ، فعمدوا إلى أن يُدخلوا مفاهيم المشاريع المضادة لتخترق أي مشروع تأريخي إسلامي ، ومن جملة خروقات هذه التيارات ، إقحام يزيد في قائمة الخلفاء الشرعيين . ولقد أفتى علماء الأُمّة بكفره ، لقتله الحسين بن علي عليه السلام ، وتسالم المسلمون على ذلك ، فلا يبقى مجال ، لمناقشة مشروعية خلافته ، وصحة ما قيل في ذلك من آراء ، وقد لخّص الإمام أبو محمّد عبدالله اليافعي اليمني ، آراء المسلمين فيه بقوله:

وأمّا حكم قاتل الحسين ، والآمر بقتله ، فمن استحل منها قتله فهو كافر ، وإن لم يستحل ، ففاسق فاجر ، وكان الحسين عليه السلام يفر عن مبايعة معاوية فضلاً عن مبايعة يزيد[1].

لم يكن مقتل الحسين عليه السلام خاتمة الانتهاكات التي ارتكبها الأمويون في عهد يزيد ، بل اتخذ الأمويون في عهده سياسة «التصفيات العرقية» شعاراً لهم .

جعل يزيد العنصر الأموي فوق أي عنصر ، وأكد أن الناس يأتون بعد «العنصر السيد» بالدرجة الثانية ، فأية معارضة بعد ذلك ستعني إبادة بشرية تامة وتصفية عنصرية عامة .

حددت وقعة الحرة ـ التي كانت أسوأ حدث بعد فاجعة الحسين عليه السلام ـ ، هذه النظرة ، وأعطت للخليفة الأموي أن يرتكب ما يشاء من أجل أن يكون الناس

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي اليمني: ١: ١٣٦، مؤسسة الأعلمي بيروت: ط٢، ١٩٧٠.

كلهم عبيد بني أمية ، بعد أن أباحوا المدينة للجيش الأموي وأحدثوا نقلة عظيمة ويندى لها جبين أمثال هولاكو والصليبيين ![1]

إن مرد ذلك ـ اذا أمكن القول ـ للشعور الذي ينتاب الأمويين ، وهو الشعور «بعقدة الدونية» التي عانى منها الأمويون دائماً ، فيوم كان هاشم سيد العرب بلا منازع يتمتع بالسطوة والهيبة لدى القبائل ، كان أمية يُعد صعلوكاً تنتابه الحاجة إلى المال وقد أبعدته عن الامتيازات الشريفة التي تمتع بها اخوانه خصوصاً هاشم ، لذا دفعه هذا الحرمان الى أن ينافس عمّهُ هاشماً على الزعامة حين نافره على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين ، فنحر هاشم الأبل وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية الى الشام فأقام به عشر سنين ، وما كان أمية يصنعه في الجاهلية جلب عاره على بنيه في الاسلام ، حيث زوّج أمية أبنه أبا عمرو من امرأته في حياته ، وقد كان في الجاهلية أقوام يستنكحون نساء ابائهم من بعد موتهم وقد سمي هؤلاء في الاسلام «المقتّيون» ، وأما أن يتزوجها في حياته فهذا لم يفعله في الجاهلية سوى أمية .[2]

هذه المثلبة في الجاهلية تكمّلها مثالب أهم في الاسلام ، حيث دخله الأمويون كرهاً بعد أن مَنّ رسول الله ﷺ عليهم بأن أطلقهم فسموا بالطلقاء .

وظلت عقدة الشعور بالدونية هذه تعرقل طموحات الأمويين ، فلما ارتحل النبي ﷺ استغل الأمويون الأحداث المؤسفة أنذاك فتدافعوا بكل طيشهم ليحصلوا على موطىء قدم من أمارة أو ولاية لتكون بعد ذلك فاتحة عهدٍ غير

---

(١) أنظر تفصيل وقعة الحرّة في: المنتظم لابن الفرح ابن الجوزي ٦: ١٢ ـ ١٦. وغيره من كتب التاريخ كمروج الذهب للمسعودي ٣: ٨١.

(٢) أنظر النزاع والتخاصم للمقريزي: ٢١، ٢٢ مكتبة الأهرام.

سديد.

فتدخّل هذا الشعور في كل مبتنياتهم، وامتازت برامجهم بالحركات التسقيطية لأية شخصية تعارضهم، لذا فانك ترى كيف ثقّف معاوية الشاميين على شتم عليّ عليه السلام وأدخل الأمويون كل مكرمة لعلي ضمن برمجة خاصة لينسبوها إليهم، وبرمجوا كل سيئةٍ لينالوا بها علياً، وسُئل رجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الامام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن![1] وهكذا كانت عقدة هذا الشعور تتنامى دائماً حتى استهان القرار الأموي بكل القيم وأحال المبادىء إلى وسائل للوصول إلى غاياتٍ محمومة.

كانت معارضة ابن الزبير محاولة أخرى للتعبير عن السخط الذي ألمّ بالأمة من سياسة يزيد، وبغضّ النظر عن اطروحة ابن الزبير، فإنّ كتلاً سياسية ائتلافية دخلت ضمن تنظيماته وشكّلت قوة مسلحة أعلنت عن استيائها كذلك.

ولا يعني شيئاً لدى الامويين أن تهدم الكعبة وتحرق إذا كان ذلك طريقاً إلى تصفية واحد من خصومهم..

وليس هذه فلتات طائشة كما صوّرها البعض، بل سياسات سالفة طائشة كانت من وراء يزيد وسياسته، تتحمل مسؤليتها أمام المسلمين دائماً.

وإلى هذا أشار المسعودي بقوله: وليزيد وغيره أخبار عجيبة ومثالب كثيرة، من شرب الخمر، وقتل ابن بنت الرسول، ولعن الوصيى، وهدم البيت واحراقه، وسفك الدماء، والفسق والفجور، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٢.

غفرانه، كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله.[١]

وروى ابن كثير أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلّا يصبح فيه مخموراً، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان اذا مات القرد حزن عليه. وتخيل أن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته، وذكروا عنه غير ذلك.[٢]

وروى ابن العماد الحنبلي عن التفتازاني في شرح العقائد النسفية: اتفقوا على جواز اللعن على من قتل الحسين أو أمر به أو أجازه أو رضي به قال: والحق ان رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك واهانته أهل بيت رسول الله ﷺ مما تواتر معناه وان كان تفصيله آحاداً. قال: فنحن لا نتوقف في شأنه بل في كفره وايمانه[٣] لعنة الله عليه وعلى انصاره وأعوانه، وقال الحافظ ابن عساكر نسب إلى يزيد قصيدة منها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لعبت هاشم بالملك فلا ... ملك جاء ولا وحي نزل

فان صحت عنه فهو كافر بلا ريب. وقال الذهبي فيه: كان ناصبياً فظاً غليظاً يتناول المسكر ويفعل المنكر افتتح دولته بقتل الحسين وختمها بوقعة الحرة فمقته الناس ولم يبارك في عمره وخرج عليه غير واحد بعد الحسين وذكر مَن

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٨٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٣٥ مكتبة المعارف بيروت.

(٣) أي في نفي ايمانه بقرينة ما قبلها من كلام.

خرج عليه.

وقال في الميزان: إنه مقدوح في عدالته، ليس بأهل أن يروى عنه. وقال رجل في حضرة عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين يزيد، فضربه عمر عشرين سوطاً! واستفتي الكيا الهراسي فيه، فذكر فصلاً واسعاً من مخازيه حتى نفذت الورقة، ثم قال: ولو مددت ببياض لمددت العنان في مخازي هذا الرجل.[١]

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١: ٦٨ دار الافاق الجديدة بيروت.

ثالثاً ـ عبد الملك بن مروان

امتد النظام الأموي، بعد عهدي معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد، إلى حقبةٍ جديدة، يمكن أن نسمّيها «بالحقبة المروانية»، وقد سمحت هذه الحقبة للكاتب التاريخي الذي هو ضمن دائرة ثقافية معينة أن يُعيد كتابة التاريخ الأموي بما تمليه عليه مصالح الأطراف الحاكمة، وحاول أن يجيد مهارة فنية خاصة يستطيع من خلالها صياغة تاريخ مبرمج يأخذ على عاتقه تحسين صورة الحكم الأموي وتغيير النظرة السلبية المتعارفة لدى المسلمين ومحاولة إدخال النظرة المقدسة في روع الكاتب القادم بعد مدة ليقرأ ما يُرهبه عن سيرة حكام النظام، ويسلب منه الحقّ في أن يفتش في معائب هذا أو ذاك، من خلال الاحتفاظ بالنظرة المقدسة التي فرضها الظرف الثقافي السياسي الذي ما فتأ يبحث عن المحاولات الإعتذارية، لهذا الحاكم أو ذاك، فمثلاً أجاد البعض فنون الاعتذار عن معاوية كما يلي:

كان معاوية كاتب الوحي عند رسول الله ﷺ، ومن كانت هذه حاله، فجديرٌ أن يكون من طلائع المؤمنين الصحابيين، الذين اختارهم رسول الله ﷺ لسرّ وحيه ومستودع علمه. ولمّا كان معاوية قد ولي الشام في عهد الخلفاء الراشدين، فقد كفانا هذا الامر تزكية لشخصه وسلوكه وسياسته.

ثمّ يروون أحاديث موضوعة، لا يلتفتون إلى ضعف سندها، أو يغضون

الطرف عن كذب راويها، فيزجون بها في سيرة معاوية، وحسن سلوكه في الأُمّة، وورعه، وحلمه.

وبرعوا في الدفاع عن يزيد، والإعتذار عن كل ما صدر من أفعاله، لا سيما فعلاته الثلاث الكبرى: قتل الحسين بن علي عليه السلام، إباحته المدينة يوم وقعة الحرة، وضربه الكعبةَ بالمنجنيق.

فإعتذروا عن الأولى بما يلي:

١ ـ الحسين خرج على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد اجتمعت إليه الأُمّة، وأُخذت له البيعة، ودانت له الرقاب، فوجب قتال الخارج عن خليفته، حتّى لو كان الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة، لدواعي حرمة البيعة والخلافة.

٢ ـ دَفَعَ يزيد إلى مقاتلة الحسين: خوف الفتنة وشق عصا المسلمين وفِرقة الأُمّة.

٣ ـ غلب على أمره، عبيدالله بن زياد، فكان يزيد غير راضٍ بقتل الحسين، كارهاً لمحاربته.

أمّا الاعتذار عن الثاني:

فإن المسلمين في المدينة نقضوا البيعة، وخرجوا على «أمير المؤمنين» فوجب عليه ردعهم، وتأديبهم.

أمّا الاعتذار عن الثالث:

فإن عبدالله بن الزبير، بخروجه على «أمير المؤمنين» شق عصا المسلمين، وباعتصامه في المسجد الحرام عرّض حرمه هذا البيت إلى الهتك، فكان أمام

الخليفة أهم ومهم، فقدّم الأهم وهو الحفاظ على وحدة المسلمين، وهيبة الخلافة، على المهم، وهو حرمة المسجد الحرام.

وهكذا ظلت هذه المحاولات يلوكها المتفننون في الاعتذار، للدفاع عن هذا وذاك، إلّا أنّها محاولات أقل ما يقال فيها إنّها غير موفقة، لتجاوزها الخط البياني لكل المسلّمات التي تعارف عليها المسلمون، فإعلان معاوية نفسه خليفة في عرض الخليفة الشرعي، محاولة جائرة، لا يمكن تبريرها بمفاهيم الحكومة الإسلامية، التي أشارت إلى جملة منها صحاح البخاري ومسلم والترمذي وغيرها، وكان لإعلان حربه على إمام زمانه محاولات لتحجيم الشرعية الإلْهية، المتمثلة في علي بن أبي طالب عليه السلام، وما أحدثته حروب صفين، وما أراقته من دماء، وقائع غيرُ حسنةٍ، احتفظت بها سجلات معاوية، لذا كان الدفاع عنه وعن غيره، محاولات، تشريفية للإبقاء على المفهوم التقليدي الذي رفض البعض التفريط به، حتّى على حساب الدين والحقيقة.

وما يقال في معاوية يقال في يزيد وفي الدولة المروانية اللاحقة، إلّا أنّ محاولات الإعتذار هذه، تحد من حركة الفكر الإسلامي الراشد، وتبيد كل الجهود الرامية إلى فهم الحدث الإسلامي. ذلك أنها أخفت وراءها وقائع الحدث الاسلامي ومعالمه، وهذه هي الخطوة الاولى على طريق الاعتذار للمخطىء المنحرف وإدانة خصومه..

ولقد نبّه بعض الكتاب الإسلاميين إلى الحقيقة الأموية ليوضحوا ما التبس على الأُمّة، وليشاركوا في رفد المشروع الثقافي، الذي من خلاله يتم الحصول على الرؤية الإسلامية الناضجة للأحداث.

لقد بذل المقريزي مثلاً في كتابه «النزاع والتخاصم فيما بين بني أُمّية وبني

هاشم» جهداً محموداً ، أزال الغموض عن النظرة المرتبكة ، التي أفرزتها جهود بعض المؤرخين ، وحاول إعادة النظر في تركيبة الحدث الإسلامي ، الذي شاركت في إرسائه ظروف سياسية طارئة ، وفلسفات ثقافية حاكمة ، حيث قال في مقدمة كتابه:

أمّا بعد: فإني كثيراً ، ما كنتُ أتعجب من تطاول بني أُمّية إلى الخلافة ، مع بعدهم من جذم ـ أي أصل ـ رسول الله ﷺ ، وقرب بني هاشم ، وأقول ، كيف حدثتهم أنفسهم بذلك ، وأين بنو أُمّية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ ولعينه ، من هذا الحديث ، مع تحكم العداوة بين بني أُمّية وبني هاشم في أيّام جاهليتها ، ثمّ شدة عداوة بني أُمّية لرسول الله ﷺ ومبالغتهم في أذاه ، وتماديهم على تكذيبه ، فيما جاء به منذ بعثه الله عزّوجلّ ، فدخل من دخل منهم في الإسلام كما هو معروف مشهور . . فلعمري لا يُعد أبعد ممّا كان بين بني أُمّية وبين هذا الأمر إذ ليس لبني أُمّية سبب في الخلافة ، ولا بينهم نسب ، إلّا أن يقولوا إنّا من قريش ، فيساوون في هذا الاسم قريش الظواهر ، لأنّ قوله ﷺ «الأئمّة من قريش» واقع على كل قرشي ، ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة ، وما يدعيه كل جيل معلوم ، وإلى كل ذلك ذهب الناس ، فمنهم من ادعاها لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، باجتماع القرابة والسابقة والوصية بزعمهم ، فإن كان الأمر كذلك فليس لبني أُمّية في شيء من ذلك دعوى عند أحد من أهل القبلة ، وإن كانت إنّما تنال الخلافة بالوراثة وتستحق بالقرابة ، وتستوجب بحق العصبية ، فليس لبني أُميّة في ذلك متعلق عند أحد من المسلمين ، وإن كانت لا تنال إلّا بالسابقة ، فليس لهم في السابقة قديم مذكور ، ولا يوم مشهور . . فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عدواته للنبي ﷺ وفي محاربته ، وفي إجلابه عليه وفي غزوه إيّاه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم ، وخلاصه كيف خلص ، على أنّه إنّما أسلم على يد العباس رضي الله عنه

والعبّاس هو الذي منع الناس من قتله، وجاء به رديفاً إلى النبيّ ﷺ، وسأل أن يشرّفه، وأن يكرّمه، وينّوه به، وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهور، وخبر غير منكور. فكان جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا علياً وسموا الحسن، وقتلوا الحسين، وحملوا النساء على الأقتاب حواسر... وبعث معاوية ابن أبي سفيان إلى اليمن بُسر ابن أرطاة، فقتل ابني عبيد الله بن العباس، وهما غلامان لم يبلغا الحلم.. وقتلوا لصلب علي بن أبي طالب تسعة، ولصلب عقيل بن أبي طالب تسعة.. وأكلت هند كبد حمزة.. وقتلوا يوم الحره أيضاً الفضل بن العباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب، والعباس بن عتبة بن أبي لهب وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، ومع ذلك كلهُ فإن عبد الملك بن مروان، أبا الخلفاء من بني مروان أعرق الناس في الكفر، لأنّ جده لأبيه الحكم بن أبي العاص لعين رسول الله ﷺ وطريده، وجده لأمّه معاوية ابن المغيرة بن أبي العاص طرده رسول الله ﷺ، ثم قتله علي وعمار صبراً.

ولا يكون أمير المؤمنين إلّا أولاهم بالإيمان، وأقدمهم فيه، هذا وبنوا اُمّية قد هدّموا الكعبة، وجعلوا الرسول دون الخليفة، وختموا في أعناق الصحابة، وغيّروا أوقات الصلاة، ونقشوا أكف المسلمين. ومنهم من أكل وشرب على منبر رسول الله ﷺ ونهبت الحرم، ووطئت المسلمات في دار الإسلام بالبقيع في أيّامه.

وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر ملوك بني اُمّية قال: كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما منع، وكان الوليد مجنوناً، وكان سليمان همه بطنه وفرجه، وكان عمر ـ أي عمر بن عبد العزيز ـ أعور بين عميان، فإذا قيل عدل، قال: إن من عدله أن لا يقبلها ـ أي الخلافة ـ ممّن لم يكن لها أهلاً، ويتولاها بغير إستحقاق! وكان

رجلهم هشام وقد صدق أبو جعفر وكان يقال لهشام: «الأحول السّراق» لأنّه ما زال يدخل عطاء الجند شهراً في شهر، حتّى أخذ لنفسه مقدار أرزاق سنة، فلذلك قالوا الأحول السّراق..[١].

انتهى كلام المقريزي نقلته بطوله، لما وجدت فيه من الفصول المهمة التي تعين الباحث على معرفة أساس ما يستند إليه عند تقييمه.

وفي شأن عبدالملك خاصّة زخرت التواريخ بكثير من الكلام النافع في تحصيل أصدق صورة عنه: قال المسعودي:

١ ـ وكان ـ أي عبد الملك بن مروان ـ يحب الشعر، والفخر، والتقريظ، والمدح، وكان الغالب عليه البخل، وكان له إقدام على الدماء، وكان عماله على مثل مذهبه، كالحجاج بالعراق، والمهلب بخراسان، وهشام بن إسماعيل بالمدينة، وغيرهم بغيرها، وكان الحجاج من أظلمهم، وأسفكهم للدماء.

٢ ـ كان الحجاج ـ وهو والي عبد الملك على العراق ـ يخبر عن نفسه، أن أكثر لذاته سفك الدماء، وإرتكاب أمور لا يُقدم عليها غيره، ولا سبق إليها سواه.

٣ ـ أراد الحجاج الحج فخطب الناس، وقال: يا أهل العراق، إني قد إستعملت عليكم محمداً، وبه الرغبة عنكم، أمّا إنّكم لا تستأهلونه، وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية رسول الله ﷺ بالأنصار، فإنّه أوصى أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم..

٤ ـ وأحصي مَن قَتَلَه ـ أي الحجاج ـ صبراً، سوى من قتل في عساكره

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي: من ص ١١ إلى ص١٨، مكتبة الاهرام مصر.

وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً ومأة، وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر، يستر الناس من الشمس في الصيف، ولا من المطر والبرد في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب، ما أتينا على وصفه في الكتاب الأوسط.

وذكر أنّه ركب يوماً يريد الجمعة، فسمع ضجة، فقال ما هذا؟ فقيل له: المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء، فالتفت إلى ناحيتهم، وقال: إخْسَؤوا فِيْهَا وَلَا تُكَلِمُونُ فيقال: إنّه مات في تلك الجمعة، ولم يركب بعد تلك الركبة.

اما موقف عبدالملك نفسه من سياسة الحجاج هذه فلا يقتصر وضوحه على اعتماده والياً، بل تجاوز ذلك الى رضاه بافعاله الى آخر ساعة من حياته، حتى أوصى من بعده بإكرامه!

قال ابن الأثير، في ذكر وصية عبد الملك بن مروان لأولاده عند موته: وأكرموا الحجاج، فإنّه الذي وطّأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد، وأذلّ الأعداء.

وقال ابن الاثير في عبدالملك أيضاً: وكان عبد الملك أوّل من غدر في الإسلام.. وأوّل خليفة بخل، وكان يقال له «رشح الحجارة»، لبخله، وأوّل من نهى عن الأمر بالمعروف، فإنّه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحد بتقوى الله، بعد مقامي هذا، إلّا ضربتُ عُنقهُ!

وقال عبد الملك لسعيد بن المسيب: يا أبا محمّد صرت أعمل الخير فلا أُسرّ به، وأصنع الشر فلا أُساء به. فقال: الآن تكامل فيك موت القلب.

وحج بالناس عبد الملك، فخطب الناس بالمدينة، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أمّا بعد فإني لست بالخليفة المستضعف، يعني عثمان، ولا بالخليفة المداهن، يعني معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعني يزيد، ألا وإني لا أداوي هذه الأمّة إلّا بالسيف، حتّى تستقيم لي قناتكم[١]..

ويمكن أن يستفيد الباحث من قول عبد الملك ما استفاده المقريزي في كتابه النزاع والتخاصم، حيث علّق عليه قائلاً والضعيف لا يكون خليفة، لأنّه الذي يُنالُ القوي منه انتشار الأمر عليه، والمداهن لا يكون إماماً، ولا يوثق منه بعقد، ولا بوفاء عهد، ولا بضمير صحيح، ولا بغيب كريم، والمأفون[٢] لا يكون إماماً. وهذا الكلام نقض لسلطانه، وعداوة لأهله وإفساد لقلوب شيعته، وقرة عين عدوه، وعجز في رأيه، فإنّه لم يقدر على إظهار قوته، إلّا بأن يظهر عجز أئمته[٣]..

فبعد إسقاط شرعية سلفه عن الخلافة، حسب اعترافه السابق، فإن هذه الصفات التي ذكرها لا تليق بمنصب الخلافة قطعاً، وهو إنما استخلف على أساس شرعية من كان قبله، مع عدم استحقاقه، وأوصى لمن هو بعده، وقد رماه بالعجز، ووصفه بالوهن، وعلى كلامه هذا، فلا تليق الخلافة، لمن كان قبله، ولا تحق لمن هو بعده، ولا تستقيم فيه، وفي من كان مثله.

---

(١) الكامل في التاريخ ٤: ٣٩١، ٥١٨.

(٢) المأفون: قال في القاموس: الضعيف الرأي والعقل والممتدح بما ليس عنده. راجع القاموس المحيط باب: أَفَنَ ٤: ٢٨٠، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٩١.

(٣) النزاع والتخاصم للمقريزي: ص١٨.

رابعاً ـ الوليد بن عبد الملك بن مروان

لعل ما ذكره المقريزي وغيره في بني أُمّية ، سيكون كل ما بعده من كلامٍ هو من نافلة القول ، إلّا أن ذلك لا يعذر الباحث من أن يواصل مسيرة بحثه ، فقد تكفلت كتب السير والتاريخ ذلك بما تحدثت عن أحوال الخلفاء الأمويين وأعطت دلائل كافية ، تُعين البحث والباحث ، على الخروج بنتائج كافية ، للوصول إلى حكم ، يشارك في النظرة التكاملية للأحداث الإسلامية .

فقد ذكرت كتب التاريخ أن الوليد كان لا يحسن علوم العربية ، وهي المشكلة التي تواجه المرء في معرفة آيات أحكام دينه ، ومعالم قرآنه ، فضلاً عن القاضي ، الذي لا يستطيع الاجتهاد في الحكم والإفتاء ، مالم تجتمع علوم العربية كاملة لديه ، فكيف بمن يلي أمور العرب ويتصدر خلافة المسلمين ؟ وهي القضية ، التي تنبه إليها عبد الملك بن مروان ، ووبّخ ولده الوليد عليها ، حيث حاول تدارك هذا العيب ، بأن أمر الوليد أن يكون عند علماء النحو ، ليستفيد منهم ما فقده من قدرة على فهم الكلام العربي وفنون اللغة «فقد كان الوليد لحّاناً لا يُحسن النحو . . وعاتبه أبوه على ذلك ، وقال: إنّه لا يلي العرب إلّا من يحسن كلامهم . فجمع أهل النحو ، ودخل بيتاً ، فلم يخرج منه ستة أشهر ، ثم خرج وهو أجهل منه يوم دخل ، فقال عبد الملك قد أُعذر»[1] .

---

(١) الكامل لأبن الأثير ٥: ١٠.

إلّا أن ذلك لم يعذر الوليد أمام علماء المسلمين، الذين اشترطوا للقاضي شروطاً، لا يمكن تجاوزها، ولا يعذر في التقصير عنها، لغرض فهم أحكام الله تعالى، وإدارة البلاد، على أساس القرآن الكريم وأحاديث النبيّ الكريم، الذي لا يفهمه إلّا من توفرت لديه شروط ذكرها العلّامة أبو يحيى زكريا الأنصاري في (فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب) بقوله: وشروط القاضي كونه أهلاً للشهادات كافياً، مجتهداً، وهو العارف بأحكام القرآن، والسنة، والقياس، وأنواعها، ولسان العرب، لغة، ونحواً، وصرفاً، وبلاغة .[1]. وبديهي أن الذي يجهل أحكام اللغة، فقد جهل بأحكام القرآن، وهو باجتهاده في أحكام الله أجهل.

هذا على صعيد علمه، أمّا فيا يتعلق بإدارته لأمور رعيته، فقد أظهر الوليد إسلوباً من الشدة والتنكيل برعاياه، حتّى وصفه إسحاق ابن يحيى بقوله: ولم نر منهم أشد تجبّراً منه.

---

(١) فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب لزكريا الأنصاري ٢: ٢٠٦.

خامساً ـ سليمان بن عبد الملك

اتخذ سليمان حياة خاصة، واشتهر عنه حُبهُ الأكلَ بما كان خارقاً للحالة الطبيعية لأمثاله، فضلاً عمن تسنمَ مقام الخلافة الإسلامية.

ورث الأمويون تقاليد مُلكٍ، وغضّوا عن مراسم ورع الخلافة، فأطاحوا ببعض المفاهيم، التي ارتكزت في أذهان الأُمّة، من تنزّه الخليفة، وترفعه عن كل ما لا يليق، فكان الملكُ يرى لنفسه الحق في الاستجابة لغرائزه، وارتكاب ما تمليه عليه أهواءه، فلما جاء الإسلام قدّم أطروحة الحكم على أنّها خلافة الله في أرضه، فصان الحاكم عن كل ابتذال، ونزهه عن كل هوى، إلّا أنَّ ظروفاً طارئةً خلّفت معها مفاهيم أعذرت فيها الحاكم لأن يرفع التكلفة عن نفسه، وأقرت له بإرتكاب ما يراه مناسباً، وإن خالف ما تعارفت عليه الأُمّه، وتسالمت له نواميس الخلافة.

وكان سليمان بن عبد الملك، أُطروحة النظرية الأموية في الحكم، حتّى درج خلفاء آلهِ من بعده على ما انتهجه هو، وزادوا عليه..

فهذا أحب الغناء، وذاك رغب الشعر، وآخر نادم الأخلاء، وغيره عزف عن حياة البلاط ومراسمه إلى جاريته المفضلة عنده، وقد أشارت كتب السير إلى ملاحم من حياة هؤلاء وما اشتهروا به، ولعل أطرف ما أشتهر عن أحدهم، حبه الأكل، حتّى عابه أهله، واستقبحه الآخرون، فاشتهر سليمان بن عبد الملك بما

نقل عنه المؤرخون، من قصص موائد الطعام ما يثير استغراب الباحث، حتّى تجده لن يمر على القضية مرور ترفيه أدبي ليطيب بذلك نفسه، أو يسجلها ضمن فصول مزاحه، بل لابد أن يطرح تساؤلين:

أحدهما: ما هي موارد سليمان بن عبد الملك الإقتصادية، حتّى يأكل كل وجبة ما يكفي لأربعين رجلاً؟

ثانيهما: ماذا يعني حبه الطعام، إلى الحد الذي وصفه المؤرخون بأنّه صاحب أكل كثير يجوز المقدار؟

وإذا أردنا الإجابة عن هذين التساؤلين فنقول:

أمّا عن الأول: فيمكن القول، أنّ استخدام موارد الدولة الاقتصادية كان مبرمجاً بالاتجاه السلبي، الذي لم يلبي من احتياجات المجتمع إلّا ما يضمن رواتب الجند فقط، ويتجه الخزين الباقي من بيت المال إلى دعم البرامج الترفيهية للحاكم، وتنمية خطط التطوير الفني التي يحتاجها البلاط.

فكانت خطط التوسعة الترفيهية تستوعب النسبة الكبرى من بيت المال، لإيجاد الحياة الخاصة التي يختارها سيد القصر، وهكذا كانت نفقات القصر، تثقل كاهل الرعيّة، فتسُد إمّا بفرض الضرائب الباهضة على المواطنين القاطنين ضمن حواضر الدولة الإسلامية، أو إعفائهم في حالاتٍ لا يجدُ النظامُ حاجتَهُ المادية التي أُشبعت بالغزوات أو الهدايا المتبادلة بين ملوك البلدان المتاخمة.

أمّا عن الثاني: فإن رفع التكلفة عن الحاكم، التي منحتهُ له ظروف سياسية طارئة، كما قدمنا في أوّل البحث هذا، أعذرته أنّ يرتكب ما يراه مناسباً، ليُلبّي حاجاته الجسدية، أو النفسية.

ولعل ما ذكرته كتب السير، سيمكّن للإجابتين السالفتين..

قال المسعودي: وكان سليمان صاحب أكل كثير، يجوز المقدار، وكان يلبس الثياب الرقاق، وثياب الوشي، وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد، التي فيها الدجاج المشوية، وعليه جبّة الوشي المثقلة، فلنهمه وحرصه على الأكل، يُدخِل يده في كمه، حتّى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها.

وذكر، أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم، وقد أشتدَّ جوعه، فاستعجل الطعام، ولم يكن فرغ منه، فأمر أن يقدم عليه ما لحق من أشواء، فقدم إليه عشرون خروفاً، فأكل أجوافها، كلّها مع أربعين رقاقه، ثمّ قرّبَ بعد ذلك الطعام، فأكل مع ندمائه، كأنّه لم يأكل شيئاً.

وحكى، أنّه كان يتخذ سلال الحلوى، ويجعل ذلك حول مرقده، فكان إذا قام من نومه، يمدُّ يده، فلا تقع إلّا على سلة يأكل منها[١].

لا تقل إنّها المبالغة في السير والتاريخ ولتكن كذلك، إلّا أنها تقوم على قدر متيقن هو انهم المفرط ومجاوزة الحد المعقول في الطعام، الخصلة التي نزّه الله تعالى منها المؤمنين، بل جعلها الحديث الشريف من مزايا أهل النفاق والكافرين..

أورد البخاري في صحيحه، عن نافع، قال: كان ابن عمر لا يأكل، حتّى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلاً يأكل معه، فأكل كثيراً، فقال يا نافع لا تدخل هذا علي، سمعتُ النّبيّ ﷺ يقول: المؤمن يأكل في معىً واحد، والكافر يأكل

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ١٨٤.

في سبعة أمعاء.

وروى نافع عن ابن عمر، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يأكل في معىً واحد، وان الكافر ـ أو المنافق فلا أدري أيهما قال عبيد الله ـ يأكل في سبعة أمعاء» وقال ابن بكير، حدّثنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر عن النّبيّ ﷺ بمثله[١].

قال القاضي البيضاوي: أراد به أن المؤمن يقل حرصه على الطعام، ويبارك له في مأكله فيشبع من القليل، والكافر كثير الحرص، لا يطمح ببصره إلّا إلى المطاعم، والمشارب، كالأنعام[٢]..

وروى الكرماني، عن النووي، في شرحه لهذا الحديث: يحتمل أن يراد بالسبعة صفاتٌ، هي: الحرص، والشره، وطول الأمل، والطمع، وسوء الطبع، والحسد، والسمن، وبالواحد في المؤمن سد رمقه[٣].

ولقد اشتهر في ادبيات العامّة التندر بحكايا المكثرين في الأكل، كالذي يأتي على خروف بأكمله، أو يأكل ما يكفي لاتخام عدد من الرجال، ليكون هؤلاء المكثرين موضع السخرية والاستهجان على ألسن الكبار والصغار، وإذا ضممت هذا إلى ما رواه البخاري في صحيحه، وعلّق عليه الكرماني في شرحه، وأضافه القاضي البيضاوي في تعليقته، فإنك لن تعدّه إلّا رجلاً من سوقة الناس وأوباشهم.

---

(١) صحيح البخاري ٤: ٢٩٣، وأخرج مثله ابن ماجه.
(٢) البخاري بشرح الكرماني ٢: ٣٢، دار إحياء التراث العربي بيروت طبعة ثانية ١٩٨١م.
(٣) المصدر السابق.

سادساً ـ عمر بن عبدالعزيز

ولي الخلافة بعد سلفه سليمان بن عبدالملك وذلك سنة تسع وتسعين من الهجرة النبوية.

اشتهر عمر بن عبدالعزيز في المدارس التاريخية بعدالته وزهده وتقواه، وأكثرت الكتابات التاريخية تعظيم هذا المعنى وجعله من خصوصيات فترة عهده، حتى تأثرت به أدبيات أصحاب مدرسة النص وقرّضوه بالثناء تكريماً لخطواته الجليلة في رفع الشتم عن علي عليه السلام بعد أن صار ذلك سنةً عند الأمويين، ولعل ما نذكره من شعر شيعي سيكون مرآةً حقيقية تعكس مشاعرهم ووجدانياتهم، وذلك ضمن حدود مبدأيةٍ نجح الشيعة في التحفظ إزاءها ولم يتجاوزوها خروجاً عن المبدأ الذي دانوا به ونافحوا من أجله.

قال كثيّر عزة في تقريضه لهذه المبادرة:

وليت فلم تشتم علياً ولم تُخِفْ	برياً ولم تقبل إساءة مجرمِ
وكفرّت بالعفو الذنوب مع الذي	أتيت فأضحى راضياً كلُ مسلمِ
ألا انما يكفى الفتى بعد زيغهِ	من الأود البادي ثقافُ المقومِ

وقال الرضي رحمه الله تعالى:

يابن عبدالعزيز لو بكت العين فـ	ـتىً من أميةٍ لبكيتك
غير أني أقول انك طبتَ	وان لم يطب ولم يزكُ بيتك

أنت نـزهتنا عـن السب والقـذ ف فـلو أمكـن الجـزاء جـزيتك

ولو أنـي رأيت قـبرك لاسـتحـ ييت من أن أرى ومـا حـييتك[١]

وتوخيت نقل بعض الأدب الشيعي ليكون عنصراً مهماً بعد ذلك في دراستنا هذه.

لم يكن سبيل هذه الدراسة هو الانجرار خلف محاولات الابتزاز الفكري التي تسببه بعض المدارس، وترسم من شخصية هذا أو ذاك مثال العدل والتقوى، بل بيّنا في بعض بحوثنا وبشواهد أن حقيقة عدل عمر بن عبدالعزيز مثلا تكمن مصداقيتها فيما اذا سلّم الأمر الى أهله، وأن لا يكون صنيعة سلفه الظالمين.

نعم.. اننا غير منكرين لما أسداه عمر بن عبدالعزيز من خدمةٍ في تغيير الحالة السلبية للمرتكزات التقليدية الأموية التي سنها سلفه وأدخلت فيما بعد على انها سنةً إسلامية لا يمكن تجاوزها!

لكن عمر نفسه قد مرّ عليه زمن غير يسير من عمره وهو ضحية لذلك التضليل الاموي، يصنع ما يصنعون ويأمر بما يأمرون، وهو بالغ رشيد يعمل لهم والياً على المدينة المنوّرة.. ففي بعض تراجمه أنه لما ولي المدينة كان من خاصته عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة، فبلغه عن عمر شيء مما يقول بني أمية [أي شتم علي] فقال عبيدالله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ فقال لم أسمع ذلك، قال: فما الذي بلغني عنك في علي؟ فقال عمر معذرة الى الله واليك، وترك ما كان عليه، فلما استخلف وضع مكان ذلك **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتاءِ ذي القُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[٢].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي ٣: ٦٠.

(٢) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية، الدولة الأموية الشيخ محمد الخضري بك: ١٨٤ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٦٩م. كذا روى ابن الأثير في كامله مع تفصيل آخر. انظر الكامل لابن الأثير ٥: ١٥٤ دار المعرفة بيروت والآية من سورة النحل: ٩٠.

صحيح انها خطوة رائعة في طريق التغيير الايجابي في المفاهيم الاسلامية تلك التي اقدم عليها عمر بن عبدالعزيز، لكن الذي نريد تأكيده، أن عمر بن عبدالعزيز تثقف تثقيفاً مدّة حياته فما جبل عليه من حب العدل ـ كأي انسانٍ بغض النظر عن انتمائه الديني أو توجهاته المذهبية يتوق الى حب الخير لا عن تدين معين ـ هو الذي يدفعه دوماً الى أن يكون متلقياً ناجحاً لأي اقتراح في رفع الحيف عن الآخرين.

وكذا كان رده فدك، كان لدوافعه الخُلقية الخيرّة في رفع الحيف، ونزعاته الانسانية في اجراء العدل وليس على أساس رؤية دينية واضحة.

روى ابن الأثير أن عمر بن عبدالعزيز «لما ولي الخلافة أحضر قريشاً، ووجوه الناس فقال لهم: ان فدك كانت بيدرسول الله ﷺ فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر كذلك وعمر كذلك ثم اقطعها مروان ثم انها صارت الي، ولم تكن من مالي أعود منها علّي، وأني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ..»[1]

والمتمعن في النص سيجد في خطوة عمر بن عبدالعزيز تأكيداً على رؤية مدرسة الاجماع التي مافتأت تدافع عن الخطوة المتسرعة التي اتخذها الشيخان آنذاك من مصادرة فدك العائدة إلى فاطمة بحجة أنها عائدة الى رسول الله ﷺ الذي كان يضعها حيث أمره الله من سد حاجة المسلمين.. الى غير ذلك من المبررات، علماً أن خطوة الشيخين كانت محاولة لتحجيم الموارد الاقتصادية للمعارضة الشرعية التي كان يتزعمها علي بن أبي طالب.

واذا رجعنا الى الاخبار الأخرى في رد فدك، فان عمر بن عبدالعزيز قد أمر

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥: ١٦٤ دار المعرفة بيروت.

بردها الى أولاد فاطمة، اعترافاً منه بشرعية ملكيتها لفدك، وان فدك قد أُخذت منهاعليها السلام قهراً، إلّا أنه لم يثمر مشروع عمر هذا عن شيء سوى ـ اعطاء الغلة فقط وحبس الأصل في يده، وأقل ما يقال أنه جهد متهاون في استرداد أعظم مظلمة حدثت في تاريخ المسلمين، ولعل جهد هذا لا يخرج عن نطاق الحالة التشريفية أو الرمزية في ارجاع الحقوق.

روى ابن أبي الحديد عن أبي المقدام قال: لما وليَّ عمر بن عبدالعزيز رد فدك على ولد فاطمة، وكتب الى واليه على المدينة أبي بكر بن عمر بن حزم يأمره بذلك.. الى أن قال: فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبدالعزيز وعاتبوه فيه، وقالوا هجنت فعل الشيخين، وخرج اليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة فلما عاتبوه على فعله قال: إنكم جهلتم وعلمتُ، نسيتم وذكرت، إنّ أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم حدثني عن أبيه عن جده أن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم قال «فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني ويرضيني ما أرضاها» وان فدك كان صافية على عهد أبي بكر وعمر ثم صار أمرها الى مروان، فوهبها لعبدالعزيز أبي، فورثتها أنا وأخوتي عنه، فسألتهم أن يبيعوني حصتهم منها، فمن بائع وواهب، حيت استجمعت لي، فرأيت أن أردها على ولد فاطمة، قالوا: فان أبيت إلّا هذا فأمسك الأصل، وإقسم الغلة، ففعل.[1]

ولعل ما نورده عن أمر فدك في رواية أخرى يعزّز ما نذهب إليه.

روى البلاذري عن عثمان بن أبي شيبة قال: حدّثنا جرير بن عبدالحميد، عن مغيرة أن عمر بن عبدالعزيز جمع بني أمية فقال: ان فدك كانت للنبيصلى الله عليه وآله وسلم، فكان ينفق منها، ويأكل، ويعود على فقراء بني هاشم، ويزوج أيمهم، وأن فاطمة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٧٨ دار احياء التراث العربي بيروت.

سألته أن يهبها لها فأبى ، فلما قبض عمل أبو بكر فيها كعمل رسول الله ﷺ ثم ولي عمر فعمل فيها بمثل ذلك ، واني أشهدكم أني قد رددتها الى ما كانت عليه .[1]

اذن لم يستطع عمر بن عبدالعزيز أن يتفاعل مع واقعية الحدث الاسلامي ليؤسس عليها مدرسة عدالته هذه ، بل لم يستطع أن يتخلص من آثار الثقافة الأموية وإلّا فإنّ الشرعية الالهية المتمثلة في آل علي عليه السلام كانت تعايشه وكان بإمكانه أن يكون أقرب إليها ، ولقد عاصر زين العابدين عليه السلام أيام إمارته على المدينة والباقر عليه السلام أيام خلافته .

ولعل مبادرة معاوية بن يزيد في اعلان استيائه عن امارة آله ستعطي انطباعاً هاماً من أن «الخليفة العادل» لم يجرأ أن يعلن الحق ويسلم الخلافة إلى أهلها ، فان الاعتراف بالحق أروع ما يتركه الحاكم من آثار عدله ، وبغضّ النظر عن المشاريع الثقافية التي أغفلت خطوة معاوية وأكدت بأنه ضعيفاً غير لائق ، وقد شاركت هذه الحملة المسعورة مدارس تاريخية تنتمي الى ثقافات غير حاكمية كذلك هي الأخرى شاركت في هذه الحملة وذلك بالسكوت عن هذه المبادرة العادلة والخطوة الرائعة ، ولم تلتفت الى أنها مكسباً فكرياً ثراً يودي بالكثير من المبتنيات السياسية المضادة لآل البيت عليهم السلام وسأنقل وقائع الخبر بطوله لتنكشف لنا أي المبادرات تستحق التمجيد والتعظيم ؟

قال الدميري: ذكر غير واحد أن معاوية بن يزيد لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلاً ، ثم حمدالله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء ، ثم ذكر

---

(١) فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري: ٤٥ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٩ ومثله في معجم البلدان للحموي البغدادي باب فدك ٤: ٢٤٠ دار صادر بيروت.

النبي ﷺ بأحسن ما يذكر به، ثم قال:

أيها الناس، ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم، واني لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لأنا بلينابكم، وبليتم بنا إلّا أن جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله وسابقته، أعظم المهاجرين قدراً، وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم ايماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأخوه زوّجه ﷺ ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمة، تربية الرسول وابني فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية، فركب جدي ما تعلمون، وركبتم معه مالاتجهلون حتى انتظمت لجدي الأمور، فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدي المنون بقي مرتهناً بعمله فريداً في قبره، ووجد ما قدمت يداه ورأى ما ارتكبه واعتداه، ثم انتقلت الخلافة الى يزيد أبي فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد ﷺ، فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ فقلّت مدته وانقطع أثره وضاجع عمله، وصار حليف حفرته رهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته وحصل على ما قدّم وندم حيث لا ينفعه الندم، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعري ماذا قال وماذا قيل له، هل عوقب باساءته وجوزي بعمله وذلك ظني، ثم اختنقته العبرة فبكى طويلاً وعلا نحيبه ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم والساخط عليّ أكثر من الراضي، وما كنت لأتحمل آثامكم ولا يراني الله جلت قدرته متقلداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم، فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولّوه، فلقد خلعت بيعتي من أعناقكم والسلام.

فقال له مروان بن الحكم وكان تحت المنبر: أسنة عمرية يا أبا ليلى ؟ فقال: اغد عني أعن ديني تخدعني ؟ فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم فأتجرع مرارتها، ائتني برجال مثل رجال عمر على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرفها عمن لا يشك في عدالته ظلوماً، والله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد نال أبي منها مغرماً ومأثماً، ولئن كانت سوءاً فحسبه منها ما أصابه، ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجوه يبكي فقالت له أمه ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك ؟ فقال وددت والله ذلك، ثم قال: ويلي أن لم يرحمني ربي، ثم ان بني أمية قالوا لمؤدبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته إياه وصددته عن الخلافة، وزينت له حب علي وأولاده، وحملته على ما وسمنا به من الظلم وحسّنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال ما قال، فقال: والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علي فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات[1].

وهكذا استطاع معاوية بن يزيد الأموي أن يعلن عن حقيقة حاول بنو أبيه اخفاءها، وليت عمر بن العزيز الخليفة الأموي قد فعل، ليرجع الأمر الى أهله أو على أقل تقدير يتخذ ما اتخذه سلفه معاوية بن يزيد وأن يكون ميوله للخلافه ورفضه على أساس الشرعية التي يعلمها هو، كما علمها معاوية بن يزيد من قبل.

وبعد ذلك الا يخفى أن التركيز عن أن عمر بن عبدالعزيز كان انموذج الحاكم

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري ١: ٨٨ مطبعة الحلبي وأولاده بمصر.

والحق أن شخصية معاوية بن يزيد وخطواته الشجاعة تستحق البحث والدراسة، فان الخبر يعطينا حقائق مهمة كثيرة يمكن الاستفادة منها في التأكيد على أحقية آل البيت عليهم السلام في الخلافة وهو ما يمكن حتى في نفوس الأمويين، ومحاولة تغطية هذه الحقائق والتعامل مع أي طارىء جديد يحاول ادانتهم والتصريح بشرعية آل البيت عليهم السلام، كما يستفاد منه أن العقيدة الصادقة والايمان الراسخ بالقضية سيعطي بعداً مهماً جداً ذلك هو بعد التضحية والايثار.

العادل سوف يترك نتائج خطرة في الوعي الديني لدى جماهير الامة، ومن هذه النتائج الخطيرة:

١ ـ تمييع النظرة التي تسالم عليها الجميع، وهي مظلومية آل البيت عليهم السلام، واغتصاب حقهم المشروع، فالتلقين الذي يتلقاه القارىء من روايات ورع عمر وعدله وتقواه، ستودي بالنظرة القائمة في ذهن القارىء من أحقية آل البيت عليهم السلام، وستطغى هذه القضية على موقف أئمة آل البيت عليهم السلام الذين أكدوا مظلوميتهم في جميع الأدوار الأموية المتعاقبة على الحكم، دون استثناء وأنهم لا زالوا يعانون من الحيف والجور الذي هيمن عليهم منذ أن صاروا مظلومين تحيف بهم كل الوجودات الحاكمية مهما أظهرت من العدل والتقوى، وأن الأمة لا زالت تتعامل معهم بأنهم مهضومي الحق مضطهدين.

٢ ـ إن خلافة عمر بن العزيز وبهذه الصفة من العدل والورع ستعزز من الشرعية الأموية المفتعلة والتي جاهدت مدارس فكرية حاكمية من ترسيخها في أذهان البعض، وأن موضع الخلاف سيتلاشى تماماً، وهو «شرعية الحاكم الأموي»، وانما الكلام سيكون فقط في عدالته وتقواه، وسيكون عمر بن عبدالعزيز حجة قوية تحتج بها المدارس الأخرى من صحة شرعية الأمويين سوى أنها تتنازل مع خصمائها في التسليم بعدم ورع وتقوى الحاكم الذي أطلقت عليه «خليفة»، أما الشرعية الأموية فقد تعززت بخلافة عمر بن عبدالعزيز العادل، التقي، الورع، الزاهد.. الى آخره من الصفات.

٣ ـ إن تسليط الأضواء على سيرة عمر بن عبدالعزيز والتكثيف المبرمج على شخصيته أثمر شيئاً مهماً لدى المدارس التاريخية الحاكمية، وهو إلغاء شخصية آل البيت عليهم السلام، الذين تتجسد فيهم أروع الصفات الخيّرة من العدل

والتقوى والزهد الى غير ذلك، وتهميش أدوارهم بعد التركيز على شخصية «الخليفة العادل».

٤ ـ أكدت مدارس تاريخية ذات نزعة حاكمية على برمجة صفات الخليفة وألقت في روع الأمة أن بالامكان أن يتوفر وجود حاكمي عادل، بغض النظر عن «مشروعية الخلافة» التي باتت «قضية غير مهمة» الى جانب صفات العدل والمروءة، وأن من الورع تلافي هذه المسألة ـ مشروعية الخلافة ـ مع توفر صفات العدل، وأن البحث في المشروعية سيؤدي بالتالي الى غبن شخصية عادلة قدّمت للمشروع الاسلامي «اطروحة العدالة الحاكمة».

وأخيراً يجب التنبيه الى:

إن مساهمة الأدب الشيعي في التركيز على هذا الموروث ـ عدالة عمر بن عبدالعزيز ـ كان في حدود امتداح بعض الجهود التصحيحية، كرفع الشتم عن علي عليه السلام وغير ذلك، ولن تتعدى هذه المساهمات الأدبية الى الاعتراف بمشروعية الخلافة هذه، مما يؤكد وجود هذا الاحساس ـ وهو إغتصاب الخلافة ـ قائماً في نفوس الشيعة وذهنيتهم دائماً.

هذا بعض ما يمكن استفادته من الجهود التاريخية المبرمجة لصالح النزعة العامة في تقديس الخليفة الأموي، ولعل شعوراً بخيبة أمل سيداهم البعض عند تلقيهم هذه الاستنتاجات، يرجع أسبابها الى المسلمات المرتكزة في الذهنية العامة من قدسية عمر بن عبدالعزيز وصلاحه.

نؤكد مرة أخرى، انا غير منكرين للنزعة الانسانية التي امتاز بها عمر بن عبدالعزيز، شاكرين له بعض الجهود الاصلاحية التي تحققت في عهده خصوصاً

رفع الشتم عن علي عليه السلام ، إلّا أن ذلك لا يعني السكوت عن التحقيق خصوصاً وأن البحث في شرعية الخلافة لافي المواصفات الشخصية الاستثنائية .

استفادت «المشاريع التاريخية المبرمجة» من تأريخها لعدالة عمر بن عبدالعزيز ، ما دعّمت فلسفتها واستندت الى شواهد توحي بمشروعية وجودات حاكمية ، أو العمل على الاطاحة بنظرة معينة ، أو التأكيد على سياقاتِ حكم معينة ، مما أربك التصور العام عن اتجاهات مدارس الخلافة التي عهدتها الأمة بأنها تشكيلات أفرزتها ظروف سياسية طارئة . ولغرض تعزيز هذه الرؤية فان شواهد معينة ستقدم لنا نماذج تؤكد ماذهبت اليه هذه المدارس:

أولاً: أخرج ابن سعد أن عمر بن الخطاب قال: ليت شعري: من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً .[1]

وكما تعلم ان الحديث هذا قد ورد على غرار قوله صلى الله عليه وآله وسلم في المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً» .

واكتملت الصورة وضوحاً عند السيوطي وهو يروي طائفة من الروايات في هذا المعنى ، منها:

١ ـ روايته عن الحسن البصري أنه قال: «إن كان مهدي فعمر بن عبدالعزيز ، وإلاّ فلا مهدي إلاّ عيسى بن مريم» ![2] .

٢ ـ عن حبيب بن هند الأسلمي قال: قال لي سعيد بن المسيب: انما الخلفاء ثلاثة: أبو بكر وعمر وعمر بن عبدالعزيز ، قلت له: أبو بكر وعمر قد عرفناهما ،

(١) طبقات ابن سعد ٥: ٣٣٠.
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢١٧.

فمن عمر بن عبدالعزيز ؟ قال: ان شئت أدركته وان مت كان بعدك ، قلت ومات ابن المسيب قبل خلافة عمر .[١]

اذن فالتأكيد على عدل عمر ومقارنته مع عدالة الشيخين توافق مبرمج يعمل على تقديم فلسفة أهل الأجماع دائماً بأنها البديل الصحيح لأية اطروحة اسلامية أخرى .

٣ ـ قال ابراهيم بن ميسرة: ما رأيت عمر بن عبدالعزيز ضرب أحداً في خلافته ، غير رجل واحد نال من معاوية ، فضربه ثلاثة أسواط .[٢]

وهكذا يستفاد من عدالة عمر لتثبيت شرعية خلافة معاوية !!

حاولت مدرسة الاجماع ـ كما قلنا ـ التأكيد على تقديس عمر بن عبدالعزيز ، لتحصل بعد ذلك على مستلزمات هذا التقديس من تصحيح أي عمل صدر عن «الخليفة العادل» ، لذا فهي تعمل حثيثة لادخال مبتنياتها دائماً ضمن الدائرة المقدسة لسلوكية عمر بن عبدالعزيز ، فأي عمل بعد ذلك يصدر ـ من الخليفة العادل ـ يعطي الشرعية لمقتضيات هذا العمل ومتعلقاته ، فتأديب عمر بن عبدالعزيز رجلاً نال من معاوية ، ـ وعمر هذا لم يضرب أحداً في حياته ـ سيقدم بلا ريب نظرة القداسة لمعاوية ، وكون خلافته هي الصيغة الشرعية للخلافة .

هذا ما يمكن استعراضه من فلسفة عدالة عمر ، ولعل المتتبع لشواهد أخرى سيحصل على متابعات مهمة في هذا المجال ، وكون عمر بن عبدالعزيز قد مات مسموماً بأيدي الأمويين أنفسهم لا يقلل من أهمية هذه النتائج .

---

(١) المصدر نفسه: ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٠.

سابعاً ـ يزيد بن عبد الملك

أجمع المؤرخون وأهل السير على صور اللهو والعبث التي حفلت بهما حياة يزيد، قد اختار حياة لهو، تغنّى بها شعراء حقبةٍ فنية داعرةٍ، واهتم بها أهل الفن، وقد استهواهم ما ارتكبه «الخليفة الأموي» فتغنوا به تغنّى شعراء الجاهلية والمجون بمثله.

حفلت مصادر تاريخ تلك الفترة، بقصص «الخليفة»، وهيامه بجاريتيه المغنيتين، «حبابة» و«سلامة القس»! وتكّفل أهل الأخبار نقل نُتفٍ من سيرته مع مغنيتيه المفضلتين، فالمسعودي نقل ما أورده الطبري في تاريخه، واتفق معهما ابن الأثير، وغيره من أهل السير، حيث كان يزيد يلهو مع جاريتيه، حتّى يحتجب أيّاماً، وقد طرب يوماً وعنده حبابة وسلامة القس يغنيانه، فقال: دعوني أطير.

فأهوى ليطير، فقالت حبابة: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة. فقال والله لأطيرنَّ.

فقالت: على من تخلِّف الأمّة والملك؟

قال: عليكِ والله! وقبّل يدَها.. فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك، فما أسخفك!

وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان، فرماها بحبة عنب، فدخلت

حلقها، فشرقت، ومرضت، وماتت، فتركها ثلاثة أيّام لم يدفنها، حتّى أُنتنت، وهو يشمها ويقبّلها وينظر إليها ويبكي، فكلم في أمرها، حتّى أذن في دفنها.. وبقي يزيد بعد موتها سبعة أيّام لا يظهر للنّاس، أشار عليه سلمة بذلك، وخاف أن يظهر منه ما يسفّههُ عندهم[١].

وكان لموت سلامة القس، أثرٌ في انهيار الخليفة، فمكث عند جسدها، لايفارقه، ولا يأذن بدفنه وقد أنتن!

هذه جملة من الآثار التي عصفت بالدولة الأموية، والتي عجلت في سقوطها، وهي عين الأخبار التي كانت تطرقُ أسماع ملوك الروم، فتعينهم على النظر باستصغارٍ إلى هيبة الدولة الإسلامية، ورسالتها المقدسة، فقدّمتها إلى شعوبها مادةً إعلامية غنية، تعمل على هدم ما ارتكز عند الروم وغيرهم من هيبة الدولة الإسلامية، مستغلّين ذلك أيضاً ترويجاً لشرعية سلطانهم وسلامة عقيدتهم السماوية، وصلاحها لهم أكثر من صلاح الديانة الإسلامية، هكذا استفاد الروم من هذه الحقبة الأموية، وتبعهم على ذلك مستشرقوهم، الذين عبثوا في سلامة الرسالة المحمّدية، إشارة إلى أعمال «خلفائها العبثيين» وسنورد طرفاً من أخباره، كشاهد عيان، على انحطاط الدولة الإسلامية، إبّان الخلافة الأمويّة.

وكذا، علّق أبو حمزة الخارجي على طيران الخليفة، قائلاً: أَقعدَ ـ أي يزيد ـ حبابة عن يمينه، وسلامة عن يساره، ثمّ قال أُريد أن أطير، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه[٢].

---

(١) الكامل لأبن الأثير ٥: ١٢١. وكذا رواه المسعودي في مروجه: ج٣، ص٢٠٧، ومثله الطبري في تاريخه ٧: ٢٢.

(٢) المسعودي في مروج الذهب ٣: ٢١٠.

أجل .. استغل الخوارجُ ، وأعداء الإسلام ، سلوكية «الخليفة» وقد حصلوا من تصرفاته ، على مفردة إعلامية ناضجة ، تُوجهْ للنيل من مقام الخلافة الأقـدس ، وتطعن في صميم الرسالة ، وبأمثال ذلك تربصت الدوائر الاستشراقية ، من أجل تشويش صورة العطاء الإسلامي الناضج ، والسلوك الرشيد لرجالات المسلمين ، وذلك بعرض طرف ، من حياة يزيد العبثية ، بحجة إهتمام «الخليفة» الفني وذوقه الموسيقي ، وهم في صدد بطولات أهل الملاحم من المسلمين ، أو فضل الإسلام على الثقافة الغربية في المجالات الفنية ، وهي «العطاءات الإنسانية» المتميزة ، التي تعرضها المدرسة الإستشراقية عن الإسلام والمسلمين .

ولمّا كان يزيد بن عبد الملك ، مـن رجـالات المـنظمة الأمـوية الإرهـابية ، حرص على التنكيل بمعارضيه ، من قريش وعمل على كتم الأفواه ، لأي اعتراض صدر ، أو سيصدر مستقبلاً على استئثار الخليفة بالملك ، وإستغلاله موارد الدولة لاغراضه الشخصية فقد روى ابن قتيبة الدينوري طرفاً من سياسته فـي الأمّـة ، وتجبره في الرعية بقوله:

واتَّهم منهم ـ أي من قريش ـ نفراً بالخلع والخروج ، فأخذهم عمُّه محمّد بن مروان بن الحكم ، فأسكنهم السجن ، عشرين شهراً ، ثمّ دس لهم السم ، فماتوا جميعاً ، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلاً ، بعد أن أغرمهم مـئه ألف ألف ، وباع عقر أموالهم ورباعهم ، وحمل العذاب عليهم والنكال ، حتّى أصارهم عالة يتكففون الناس ، متفرقين في كور الشام وآفاق البلاد ، وصلب من النّاس جملة ممن ألِفَ هؤلاء القوم ، واتُّهم بمصانعتهم ومصاحبتهم[1] .

لقد حرص الإعلام المضاد ، والمناهض ، لتوجهات الرؤية الإسـلامية ، إلى

---

(١) الإمامة والسياسة / ابن قتيبة الدينوري: ص ١٢٤.

زج يزيد بن عبد الملك في شرعية الخلافة الإسلامية ، بحجة أن الأُمّة قد أجمعت على خلافته ، وأعطته البيعة من أمرها ، وغضت عن شروط الخلافة الإسلامية ، وسيرة أهلها ، ونزاهة رجالاتها .

ثامناً ـ هشام بن عبد الملك

سجّلت المشاريع التاريخية، المهتمة بشؤون الخلافة الإسلامية، على هشام بن عبد الملك جشعه المالي، وحبه لجمع الموارد المالية القادمة من أطراف الدولة الإسلامية، وإدخالها في تصرفاته الشخصية، حتى وصفته بالبخل، وزاد عليها المقريزي وصفه بالسرّاق، لأنّه كان يؤثر نفسه على أرزاق الجند، وربما حجب عنهم عطاءهم، وهذه صفةٌ لا ينبغي لمن يلي أمور الأُمّة أن يقارفها، فهي صفة العاجز، تنأىٰ بصاحبها عن المحاسن وإعتلاء المكرمات، وتبعده عن الخير والبر والكرم والسيادة، وتعزّز فيه حب الذات، والاثرة الشخصية، وقد كان يستعين بالمعاذير الواهية، ليوجه أموال الأُمّة إلى خدماته الخاصة، ليهمل الرعية، فلا عمران، ولا انتشال من فقر أو ضياع، ولا سد رمق، بل يسلك المحتاجون من رعايا هؤلاء الخلفاء، ما يضمن سد رمقهم، بالتكفف، وطلب ما في أيدي الناس، فيما يضجّ البلاط الملكي ببرامج الترفيه عن الخليفة حتّى الصباح.

لقد تسببت سياسة هشام المالية في تخلخل الموازنات الاقتصادية للدولة الإسلامية، لذا عاشت الدولة الإسلامية حالة من التخلخل الاجتماعي، وحتّى الفكري، فقد كانت مساحات الفراغ العقائدي والفكري لدى بعض الطبقات تُستغل من قبل دوائر ثقافية معادية للإسلام، فيتم ملأ الفراغ الإقتصادي لدى الضعفاء من النّاس، مقابل الانتماء الفكري المضاد، حتّى تنامت حركات فكرية في ظل الخلافة الأموية، كانت نتائجها انحراف أُمّة من النّاس.

لقد ارتكزت سيرة هشام المالية حتّى عند بني أبيه، فطعنوا في لياقته

للخلافة، حتّى أخيه مُسلمة بن عبد الملك، وهو يمازحه يوماً، فقال له: يا هشام، أتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل!

فقال: والله إنّي عليم حليم[١].

وقال صاحب خطط الشام: وكان هشام، يحب جمع المال، وعمارة الأرض، واصطناع الرجال[٢].

ومن طريف ما رواه الجاحظ في كتابه «البخلاء» قال: دخل هشام بن عبد الملك حائطاً له، فيه فاكهة وأشجار وثمار، ومعه أصحابه، فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة، فقال هشام: يا غلام، اقلع هذا، واغرس مكانه الزيتون[٣].

وأنت تعلم، أن ثمر الزيتون لم يكن يسير الأكل عند اقتطافه، بل يحتاج إلى مؤنة زائدة، وزمن طويل، وبعد العناية العسيرة ليطيب أكله، فمرارة الزيتون عند اقتطافه تمنع المارة من أخذه وأكله عند ساعته، فآثر هشام العبث في بستانهِ على أن يطعم أحداً من رفقائه، أو المارة من رعاياه.

هذه هي سلوكية هشام مع خاصته، فكيف بعامته؟!

ولا يخفى، أن صفة البخل والحرص عند الحاكم تُثقل كاهل الرعية، فتأخذ بالسلطان إلى أقصى غاية الظلم، لأنّ النفس اللئيمة تأبى أن تجود بصاحبها في إصطناع المعروف، فيكون تواقاً إلى الانتقام والبطش، بدافع الحفاظ على ما في يده من مُلك السلطان، أو مُلك المتاع، لذا فإن البخيل إذا ظفر ببغيته يكون

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٢٣.

(٢) خطط الشام محمّد كرد علي ١: ١٢٦، مكتبة النوري دمشق طبعة ثالثة ١٩٨٣.

(٣) البخلاء للجاحظ: ص١٧٧، دار صادر بيروت ١٩٦٠م.

أحرص الناس على الاستئثار بها، فلا يميل إلى الترفع عن ارتكاب أرذل الصفات وأخسها، فلما ظفر هشام بن عبد الملك بعدوه زيد بن علي، قتله وقتل أصحابه، ثم أمر بصلبه حتّى هلاكه، وكان قد صلب زيداً عارياً، ولم تستر له عورة، وهي أخطر ما تصل إليه النفس الإنسانية، من البطش والامتهان.

قال المسعودي: وما نال هشاماً من المثلة، بما فعل بسلفه من الإحراق، كفعله بزيد بن علي، وقد ذكر أبو بكر بن عيّاش، وجماعة من الاخباريين أن زيداً مكث مصلوباً خمسين شهراً، عرياناً فلم يـر له أحـد عـورة، سـتراً مـن الله له وذلك بالكناسة بالكوفة، فلمّا كان في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وظهر ابـنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد إلى عامله بالكوفة: أن أحرق زيداً بخشبته، ففعل ذلك به وأذرى رماده في الرياح، على شاطئ الفرات[١].

لقد نحت دوائر تثقيف النظام إلى سياسة الاعتذار، وحاولت إظهار ما ارتكبه هشام من البطش بانّه حزم، تستوجبه سياسة البـلاد وهـيبة الدولة الإسـلامية، وإظهار حرصه بأنّه من متطلبات سياسة الإصلاح، واختفت خلف ذلك حقوق الإنسان التي أقرّها الإسلام وأكدت تعاليمه على المحافظة عليها، والتشديد على عدم انتهاكها تحت أي عنوان.

ولا يذهبن بك القول إلى أن حرص هشام كان من صـالح الدولة وشـؤون الرعية، حيث ترّفع عن حياة اللهو التي يمارسها أمراء البلاط، بل كانت لهشـام سيرة في حياته الخاصة، استجابة إلى ما تـتطلبه نـفسه مـن التـرفيه والتـرويح، واعترف هو بذلك في قوله: ما بقي شيء من لذات الدنيا إلّا وقد نلته[٢].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٢٠، وأُنظر الكامل لأبن الأثير ٥: ٢٤٦.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٢٣٠ دار الفكر بيروت.

فإذا كان هذا اعترافه ، فلا مسوغ بعد ذلك للدفاع عنه ، وتبرير ما ارتكبه ، كما إنّه لا مسوغ لإقحامه ضمن قائمة الخلفاء ، وهو كما ترى ..

تاسعاً ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك

غدت حياة الترف من مراسم البلاط الأموي، وحفلت مراسمه بما تتكفل تهيئة برامج المرح والترفيه للخليفة، حتّى لو كان ذلك على حساب هيبة الخلافة، ومراسم السلطان، وقد يقترح الخليفة في بعض الأحيان، على مسؤولي البلاط لايجاد جو خاص من اللهو يهيئه البلاط، وكان الوليد بن يزيد، قد شذ عن هذه القاعدة، حيث تعهد هو لنفسه أن يُدخل في لوائح البرامج الترفيهية للبلاط حياته الخاصة جداً، يوم كان خارج البلاط، وأوغل في اختيار حياته دون مراعاةٍ لأبسط تقاليد البلاط، مما أدى إلى توهين البيت الأموي، وزعزعة النظام من الأساس، فالتفت بنو أبيه إلى ما أحدثه الوليد من شرخٍ في إطار العلاقة بين الحاكم الإسلامي وبين الرعية، المبنية أساساً على الورع والتقوى، أو ممارسة ما يشاء من اللهو خلف جدران قصره، دون السماح لرعيته بالاطّلاع عليه، وافتضاح أمره، كما كان سلفه يصنع من قبل، وحرص بنو أبيه على الحكم من الانفلات، بعد توجسهم من الغضب الجماهيري، الذي تحفّز لينقضّ على القصر الأموي وتصفية أزلامه، لذا عمدوا إلى سبق الأحداث، وثاروا هم قبل غيرهم، امتصاصاً لنقمة الأُمّة المتربصة بالنظام، فوثبوا عليه وقتلوه.

لقد كان هذا التحول في سياسة البيت الأموي، من الإقدام على خلع الخليفة وقتله حدثاً خطيراً أربك المعادلات السياسية التي التزم الأمويون إيجادها والإبقاء

عليها دائماً، ومن ذلك التقديس الذي تمنحه فلسفة النظام وإسباغ الشرعية على تصرفات الخليفة، وعدم الخوض في مناقشة سياساته، أو ما يختاره من حياته الخاصة، حتّى كانت الحياة التي اتخذها الخليفة قد أثارت استياء وسخط الأُمّة وتحركت القواعد الثورية، بإيحاء من قياداتها للإطاحة بالنظام، فأحس الأمويون بتفاقم الحالة الخطرة، وحاولوا إرباك كل التحالفات السياسية، التي استغلت وضع الوليد غير الطبيعي، فأجهزوا عليه وقتلوه، ونصبوا بدله أخاه، حرصاً منهم على عدم خروج الأمر من أيديهم.

ساهمت هذه الحقبة الزمنية في حبط الآمال، حيث كانت الصحوة الإسلامية لدى المجتمع الإسلامي على أشدها، وكانت في الوقت نفسه، الثقافات المضادة تتربص بالأُمّة من أجل إنفاذ مقرراتها الفكرية، واحتاجت هذه الأزمة إلى قيادة إسلامية صريحة مع الحدث، مبسوطة اليد، فالقيادات الفكرية الشرعية ـ كأهل البيت عليهم السلام ـ كانت قد حجبها النظام عن قواعدها لممارسة مهمتها الرسالية، والخليفة الإسلامي منغمس بما سيأتي بيانه من حياته الخاصة، وزمام مبادرة الإصلاح كان بيد السلطة، وهي مشغولة في تنفيذ ما يحتاجه الخليفة من أسباب الترف، لذا كانت هجمة فكرية مضادة، غير معلنة، أو معلنة أحياناً، تخترق وجدان المسلم، وتستغل ما عكف عليه خليفته من حياته الخاصة. وسنورد نبذاً عن يوميات الوليد بن يزيد، لتقدم لنا صورة تشارك في رسم معالم تلك الحقبة الإسلامية.

١ ـ قال السيوطي في تاريخه، مؤرخاً للوليد بن يزيد ما نصه: الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الخليفة الفاسق، أبو العباس. وكان فاسقاً، شرّيباً للخمر منتهكاً حرمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته

الناس لفسقه وخرجوا عليه، ولما قتل وقطع رأسه وجيء به إلى يزيد الناقص، نصبه على رمح فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد، فقال: بُعداً له، أشهد أنّه كان شروباً للخمر، ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي. وقد ورد في مسند أحمد حديث: ليكونن في هذه الأمّة رجل يقال له الوليد، لهو أشد على هذه الأمّة من فرعون لقومه.

وقال ابن فضل الله في المسالك: الوليد بن يزيد الجبار العنيد، لقباً ما عداه، ولقما سلكه فما هداه، فرعون ذلك العصر الذاهب، والدهر المملوء بالمعائب، يأتي يوم القيامة، يقدم قومه فيوردهم النار، ويرديهم العار وبئس الوِرد المورود، والمورد المردي في ذلك الموقف المشهور، رشق المصحف بالسهام، وفسق ولم يخف الآثام[1].

٢ ـ قال المسعودي: وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب، ولهو وطرب، وسماع للغناء، وهو أوّل من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشرب والملاهي والعزف.. وغلبت عليه شهوة الغناء في أيّامه، وعلى الخاص والعام واتخذ القيان، وكان متهتكاً خليعاً، وطرب الوليد لليتين خلتا من ملكه، وأرِق، فأنشأ يقول:

طال ليلي وبت أسقي السلافة وأتاني نَعِيٌّ من بالرصافه
وأتاني ببردة وقضيب وأتاني بخاتم للخلافة

قال المسعودي: وأخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي القاضي، عن محمّد بن سلام الجمحي، قال حدثني رجل من شيوخ أهل الشام، عن أبيه قال:

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٢٣٣.

كنت سميراً للوليد بن يزيد، فرأيت ابن عائشة القرشي عنده، وقد قال له: غني، فغناه:

إنــي رأيت صـبيحة النـحرِ ... حـوراً نـفين عـزيمة الصبر
مثل الكـواكب فـي مطالعها ... عـند العشـاء أطـفن بـالبدر
وخرجت أبغي الأجر محتسباً ... فـرجعت موقوراً مـن الوزر

فقال له الوليد: أحسنت والله يا أميري، أعد بحق عبد شمس، فأعاد فقال: أحسنت والله، بحق أُميّة أعد، فأعاد فجعل يتخطى من أب إلى أب، ويأمره بالإعادة حتّى بلغ نفسه، فقال أعد بحياتي، فأعاد، فقام إلى ابن عائشة فأكب عليه، ولم يُبقِ عضواً من أعضائه إلّا قبَّله...

وقال: وا طرباه وا طرباه، ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة، وبقي مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها، ودعا له بألف دينار.

وقرأ ذات يوم **﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مَن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾**[1]، فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشّاب، وأقبل يرميه وهو يقول:

أتـوعِدُ كـل جـبار عـنيدٍ ... فـها أنـا ذاك جـبار عـنيد
إذا ما جئت ربك يـوم حشـر ... فـقل يـا رب خـرّقني الوليـد

وذكر محمّد بن يزيد المبرد النحوي، أن الوليد ألحد في شعرٍ له ذكر فيه النّبيّ ﷺ وأن الوحي لم يأته عن ربه، كذب أخزاه الله من ذلك الشعر:

تـلَعَّب بـالخلافة هـاشمي ... بـلا وحـي أتـاه ولا كـتاب
فـقل لله يـمنعني طـعامي ... وقـل لله يـمنعني شـرابـي

فلم يُمهل بعد قوله هذا إلّا أياماً، حتّى قتل.

---

(١) ابراهيم: ١٥، ١٦.

ودخل عليه بعض حجابه، فقال: يا أمير المؤمنين إن بالباب جمعاً من وفود العرب وغيرهم من قريش، والخلافة تجلُّ عن هذه المنزلة ـ وقد سكر الوليد ـ وتبعد عن هذه الحال، فقال: إسقوه فأبى، فوضع في فمه قِمعٌ، وجعلوا يسقونه حتّى خر ما يعقل سكراً[١].

٣ ـ قال ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة: وذكروا أن الوليد بن يزيد، لما تولى الأمر بعد هشام أساء السيرة وانتحى على أهله وجماعة قريش، وأحدث الاحداث العظيمة، وسفك الدماء، وأباح الحريم[٢].

اعتاد الوليد على حياته العابثة قبل دخوله البلاط، وحفلت أيامه العبثية بمغامرات لم يسبق لها مثيل، واطلع على حاله العام والخاص فلم يخفَ عليهم ما عزم عليه الوليد من جلب قبة ليضربها على الكعبة ليشرب فيها الخمر، وهو يومئذ أمير الحج من قبل الخليفة، حيث روى الطبري في تاريخه، وأورده ابن الأثير في كامله مانصّه: إتخذ الوليد ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه، فولاه الحج سنة تسع عشرة ومائه، فحمل معه كلاباً في صناديق، فسقط منه صندوق ـ فيما ذكر علي بن محمّد عمن سميتُ من شيوخه ـ عن البعير وفيه كلب، فأجالوا على الكريّ بالسياط، فأوجعوه ضرباً. وحمل معه قبة، عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة، ويجلس فيها، فخوّفه أصحابه، وقالوا لا نأمن النّاس عليك وعلينا معك، فلم يحركها، وظهر للنّاس معه تهاون بالدين، وإستخفاف به[٣].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٢٥ إلى ص ٢٢٩.
(٢) الإمامة والسياسة للدينوري: ص ١٣٢.
(٣) تاريخ الطبري ٧: ٢٠٩. وكذا ابن الأثير / الكامل في التاريخ ٥: ٢٦٤.

في هذه الفترة بالذات، شهدت العلاقة بين الحاكم وبين الأُمّة تراجعاً ملحوظاً، حيث ظهر من ولي العهد منكرات لا تقبل الاعتذار، وعجز البلاط الأموي عن إصدار أي توجيه يُحسّن فيه صورة ولي العهد، أو يحصل على مبرر واحدٍ لما يرتكبه الوليد وحاشية البلاط، وعلى رأسهم الخليفة، من أعمال.

فالأُمّة تئنُ من الحالة المعيشية السيئة، التي نتجت عن سياسة هشام الاقتصادية، فالحرص والبخل في مقدمة توجهات الخليفة، حتّى وصل الأمر إلى أن يمنع هشام عطاء الجند ويستأثر به، والحالة الدينية وتوجهات الطلائع المؤمنة ترزح تحت وطأة الانفلاتية، التي أحدثها ولي العهد وحاشيته، حيث ارتكب من مجالس اللهو والغناء ما تفطنت إليه العامّة، وأحيت به محافلها، وكان ذلك سبباً إلى خلق حالة التمرد على التقاليد الدينية، والاعراف الاجتماعية، في مجتمع إسلامي يُمثّل حاضرة الخلافة الإسلامية، وعاصمة الدولة التي تهدد في مبادئها امبراطوريات الروم، لذا حاولت طبقة من الشباب أن تُقّلد ولي العهد في حياته، فتابعت يومياته ونحت بمثل ما ارتكبه.

هذه هي الحالة العامّة، التي أفرزتها خلافة هشام، وولاية عهد الوليد، والسؤال الذي يقتضيه المقام، ويفرضه البحث، هو: ما الذي دفع هشام إلى الاعتراف بولاية العهد للوليد، وقد ظهرت منه هذه المنكرات، وهلّا أعلن هشام عزل الوليد، وهو لا يزال الخليفة المطاع، والمبسوط اليد، المهيمن على جميع مقررات الدولة؟ مع العلم أن الوليد لم يكن صاحب قوة ورجال، بل هو أهل لهو وطرب وغناء، وقد نبذه أهله فضلاً عن عامة النّاس، وما الذي دعى الخليفة أن يولي أمر الحج، إلى خليع مشهورٍ بالمنكرات، وكيف سمح له ورعه، أن يبعث بالوليد، وقد عزم على ما ذكرناه من شرب الخمور، وقد جلب معه قافلة من

الكلاب ؟

إننا لا نجد جواباً عن هذا السؤال إلّا القول بأن هشاماً كان لتهاونه في الأمر ، أنْ جرّأ الوليد بن يزيد على هكذا حياة ، وقد غض الطرف عن أعماله ، لما يرى من مسّوغاتٍ في حرية ما يختاره الوليد ، أو أي طاقمٍ أموي يعيش داخل البلاط ، أو خارجه ، من حياة لهو وترف ، مع العلم أن حياة الوليد ، هي صورة أُخرى لحياة الخليفة وعماله ، لذا لم ينكر هشام على الوليد أفعاله ، إلّا التعامل الشخصي ، الذي اتخذه الوليد مع عمه هشام ، والذي أحدث تشنجاً غير طبيعي ، بينه وبين الخليفة .

هذا هو السؤال الأول ، أمّا السؤال الآخر والمهم ، وهو أن الأُمّة لما كانت قد اطلعت على حياة الوليد وإعلانه لممارساته المنكرة ، وقد صدر منه أيّام ولايته العهد ، خصوصاً أمارته الحج من قبل الخليفة ما «ظهر للنّاس معه تهاون بالدين واستخفاف به» وهو نص ما عبر عنهُ الطبري مؤرخاً تلك الفترة ، فما الذي سوّغ للأُمّة أن تجتمع على مثل الوليد ، وقد رأت منه من الأعمال ، ما أساء عامتها ، فضلاً عن أهل الحل والعقد منهم ؟ وهل عجزت الأُمّة عن معرفة خصوصيات الوليد ، وممارساته اليومية ؟ أم أن مسألة الإجماع لا أساس لها ، بل هي احدى المحاولات التخريجية ، التي قصد منها الكتّاب ، محاولة إدخال الأسماء المرشحة ضمن قائمة الخلافة ؟

والجواب على ذلك ، أنّه بعد سبر «التاريخ الخلافتي» ومحاولة إستقصاء الواقع الذي عاشه الخلفاء ، نحصل على «شهادة تبرئة» للأُمّة الإسلامية ، من أن تكون قد أجمعت على السياسات الجائرة لهؤلاء ، أو السلوكيات المنحرفة لولاة عهدهم ، فإن التاريخ حافل بوقائع اللهو والترف ، التي إختارها البلاط الأموي ، والأُمّة لا زالت تعيشُ حالتها الإسلامية ، التي ورثتها من أحداث حُقَبٍ ماضيةٍ ، فرضت

الإسلام على حواضر الدولة المجاورة وامتدت أجنحة الدولة الإسلامية، لتضم إليها شعوب المنطقة وما والاها، والأُمّة بعد ذلك تواقة إلى امتداد الفكر الإسلامي وهيمنته على مساحة أوسع من مناطق العالم، تطمحُ إلى إيجاد برامج ثورية فكرية، تزحف إلى الشعوب التي لم تؤمن بعد، والقيادةُ الراشدةُ الحكيمةُ، من مقتضيات توجهات الأمّة هذه، لذا كان من دواعي هذه البرامج الإصلاحية، اختيار القائد والقيادة، اللتين تستجيبان لمتطلبات الإصلاح، والخلافة الأموية لاهيةٌ عن تحقيق أي هدف يستريح إليه كبرياء الأُمّة ومجدها، فالحياة الخاصة التي اختارها الخلفاء تأبى أن تتوافق مع أي برنامج إصلاحي موفق، يستجيب لضمير الأُمّة، كما أن إنعزال الخليفة عن المهام الدينية، أحبط أمال الأمّة في الحصول على قيادة الٰهية، تعالج مستجدات الحياة، على ضوء الرسالة المحمّدية، فما كان من الأُمّة إلّا رفض هكذا قيادات منفلتة عن زمام الدين، ورباط الإصلاح، وأحست، أن فجائع الأيّام تتوالى عليها من تقصير القيادة الأموية ذاتها، لذا رفضت الإنصياع إلى شعار «إجماع الأُمّة»، الذي رفعته دوائر النظام، وأكدت في الذي أكثر من مناسبة براءتها من أن تجتمع على قيادة جعلت الدين سلّماً للوصول إلى مآربها السياسية، فكانت الثورات النابعة من صميم الأُمّة، والمنطلقة من صميم العمل الجهادي، قد أخذت العهد على التاريخ وكاتبه وقارئه، من أن يزجوا الأُمّة في أسباب نكساتها، فكيف تجتمع بعد ذلك الأمة على حاكم يختار لنفسه حياة خاصة، ويوظف الدولة ومواردها لخدمته، ويطرح في الوقت نفسه متطلبات الاصلاح ؟!

إن نظرية «إجماع الأُمّة»، تتراجع في البحوث، التي تستقصي حياة الخلفاء الأمويين، وما تفرضه نزاهة الأمّة، يأبى لها الاجتماع على واحد منهم، فوثبة الأمّة على الوليد ـ الخليفة ـ وقتله، تتكاذب مع دعاوى الإجماع عليه، وإلّا كيف اجتمعت الأمّة على الوليد ثم تثب عليه لتقتله ؟ ألفسق الأُمّة وقد اجتمعت على

خليفتها، وأعطت له الطاعة والبيعة ؟ أم لفسق الوليد بن يزيد، الذي ينسفُ معه نظرية الإجماع ؟ أم الترتيبات الفنية، لبعض المشاريع التثقيفية، اقتضت أن تزج بسلسلةٍ من هكذا خلفاء !!

نظرات في قراءة الحدث الاسلامي..

المنهجية والسلوك..

لم تكن مدرستي الاجماع والنص النبوي في مقام المقارنة والتفاضل، لا على أساس السير التاريخي الذي يتيح للباحث أن يجعل أولويات بحثه على أساس السبق الزمني للأحداث، ولا على أساس حيثيات التقييم العلمي الموضوعي، ذلك لأن مدرسة الاجماع لم تنشأ ضمن تاريخ معين، أو دورة زمنية محددة، بل كانت هذه المدرسة هي نتيجة إفراز لظروف سياسية غير ناضجة، وأحداث غير متكاملة، تصدّى لها منظرون كانت لهم دوافعهم الخاصة، فبعضهم نظّر لهذه المدرسة لدوافع وانتماءات سياسية معينة، فرضت عليه انتماءاته أن يذب عما أثير في وجه خلافة الشيخين، التي ستكون بعض الوجودات الحاكمية هي امتدادات لها، وتبويب يُدخلها ضمن تشكيلة معينة، ولابد لهذه الوجودات من منظّرين يمنحون الشرعية لهذه التيارات ذات الفلسفات السياسية التي جعلت خلافة الشيخين دليلاً على صحة قيامها، لتواجه بها تيارات المعارضة الناشطة والمتصاعدة يوماً بعد آخر، لذا فتحت هذه المدارس باب التنظير لتصحيح شرعيتها وامتازت بالمطاطية لادخال أية تشكيلة ضمن حوزتها، فكان نصيب نظريات الاجماع وأهل الحل والعقد، أو الشورى كبيراً في استقطاب أي وجود يحتاج إلى شرعية تنظيرية بعد أن يعاني من تأجيج المعارضة الفكرية ضده فضلاً

عن المسلحة .

لذا كان ابن خلدون أوّل من غامر في نظرية أهل الحل والعقد ، وحصرها في نطاق التشكيلة الواحدة ، ونفى أن تكون نظرية أهل الحل والعقد منبثقة من توجهات التعددية الفكرية ، أي منبثقة من أهل الحل والعقد للمسلمين جميعاً .

قال في مقدمته: والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بولاية العهد دون من سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائِهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أُمية ، إذ بنو أُمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش ، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظنُّ أنه أولى بها ، وعَدَل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع[١].

فكانت مقالة ابن خلدون هذه دعوة فتحت باب التصويب والاعتذار لأي تحرك سيحتاج فيما بعد إلى مشروعية لتحركه فضلاً عن مشروعية قيامه .

وأكبر الظن أن محاولات ابن خلدون التنظيرية وأمثالها كانت استجابة متأخرة «لحس التيار المحافظ» الذي نشأ في أوساط الباحثين ، والذين خلقوا من قدسية الخليفة ما ينزّه أفعاله عن أية خروقات شرعية ، لذا تجد أن هؤلاء يبذلون الوسع في الاعتذار والتوجيه ، إلّا أنها محاولات غير موفقة فضلاً عن أنها غير جادة .

فالباحث الاسلامي بات يعيش على نزعة القداسة الممنوحة للخليفة في حديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ، وهو على ضعفه دلالة وسنداً ، إلّا أنه أضحى يجر الأحداث الإسلامية ويدخلها تحت مظلته المتهرئة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١: ٢٦٣ دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

لذا ترى أن الباحث الإسلامي إذا وصل إلى طريق مسدود في بحث يُرجع وجوب توقفه عن البحث لقوله تعالى: **﴿تلكَ أُمَةٌ قَد خَلَتْ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبتُمْ ولا تُسئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[١]، ولا يكتفي بذلك بل يستدل على عدم وجوب البحث، بأن يتهم كل محاولة هادفة لقراءة التاريخ الاسلامي بالموضوعية والجدية يتهمها بالفرقة والاختلاف، وهذا ما يرتئيه الشيخ محمد الخضري بك في كتابه محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، حيث قال في معرض حديثه عن واقعة كربلاء: وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأً عظيماً في خروجه هذا الذي جر على الأُمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا، وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلّا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها. غاية الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعدّ له عدّته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه، وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين ومن يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجاً، وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا[٢].

هذه هي أساليب الدراسة التي يُحبّذها البعض، يعمد إلى نسف كل المسلّمات التاريخية والدينية، ثم هو يحمل على كل من يريد أن يكتب عن الحدث الاسلامي ينسبه إلى إثارة الخلافات والتفريق بين الأُمة.

لم تكن هذه المحاولات عفوية طاهرة، بل هي ترتبط تاريخياً وعقائدياً بالمحاولات الثقافية الساقطة التي أسستها لجان تثقيفية يرأسها الحاكم نفسه، حيث يعمد الحاكم إلى محاولات الابتزاز الفكري للباحث، فإذا استجاب تورط

---

(١) البقرة: ١٣٤.

(٢) محاضرات تاريخ الأُمم الإسلامية، الدولة الأموية محمد الخضري بك ٢: ١٣٠ المكتبة التيمارية مصر ١٩٦٩.

بعد ذلك في الدخول ضمن دائرته، عندها يستذوق أية سقطة فكرية يمليها الحاكم عليه أو تمليها نزعاته المنفلتة عن زمام الشرع والأخلاق.

لم تدم مشكلة البحث هذه طويلاً، فإن الذي ذكرناه كان مبتنيات الحكومات المتعاقبة وهي لم تسمح بالطبع لأية محاولة جادة تعنى بدراسة التاريخ الإسلامي وتحليل حدثه، على أساس النزعة العلمية، لا على أساس النزعة الشخصية أو السياسية، وحاولت هذه الحكومات التضييق على هذه الجهود، وإرجاع أي بحث يلتزم الموضوعية في بناء التشكيلة المسلمة، أرجعته إلى محاولات تمزيق الوحدة الإسلامية وتوهين كلمة المسلمين، كما قرأت سابقاً.

فرضت مدرسة النص النبوي نفسها على الواقع العملي ونجحت في ملئِ الفجوة التي أحدثتها محاولات المدارس التاريخية الأخرى، حيث كانت مدرسة النص استجابة لملئِ الفراغ الفكري، الذي بات يعاني منه القارئ، وهي على الرغم من محاولات التضييق التي واجهتها، برزت هذه المدرسة على أنقاض محاولات التبرير الذي يُخرج البحث التاريخي عن إطاره العلمي والموضوعي إلى محاولات السرد القصصي والتوجيه التبريري والاعتذاري.

عمدت مدرسة النص إلى مخزون من التراث النبوي، للاستدلال به على حادثة الخلافة الإسلامية، وقدّمت لجهود البحث العلمي التاريخي نقلة كبيرة في الاعتماد على الآية القرآنية، أو الحديث النبوي، فضلاً عن الدلالة التاريخية، حتى أعطت هذه الطريقة بعداً آخر للبحث التاريخي، وجدية أكثر مصداقية خصوصاً في مسألة الخلافة الإسلامية.

مدرسة
النص النبوي

تمهيد

إذا توخينا الدقة في التعبير، فلا يحسن بنا أن نطلق على الرؤية الأخرى المقابلة لمدرسة الإجماع بمدرسة النص، ذلك أن اصطلاح «مدرسة» إنما تطلق على كل ما يُستجد أو يُستحدث من رؤية في التنظير أو توجهٍ في العمل، والنص النبوي لا تصدق عليه هذه الإطلاقات على أنه رؤية جديدة مستحدثة أو عمل مستجد، وإنما هو خلاصة الوحي تُصاغ على لسان النبي الكريم والرسول المبلغ، فتُترجم إلى لغة تفهم منها الأُمة إرادة السماء. إلّا أن مقتضيات البحث الفني، توجب على الباحث أن يلتزم بمصطلحات هي فنية أكثر من كونها واقعية حقيقية، لذا فلا محيص من إدخالها في تبويب المدارس الإسلامية والاصطلاح عليها «بمدرسة النص» بالرغم من أنها الأصل في الرؤية الإسلامية، والتعبير الحقيقي عن المفهوم الإسلامي الخالص.

أُدرجت مدرسة النص النبوي ضمن المدارس الكلامية الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ، يوم أُعلِنَ عن مبايعة أبي بكر، ودعت الحاجة إلى تنظير تحركات السقيفة على أنها مدرسة إسلامية تنطلق من مسلّمات إسلامية ومبادئ مشروعة كالإجماع والشورى، وانكبَّ علماؤها على تأطير أي تحرك حاكمي يصدر على أنه ضمن مبتنيات الإجماع، في خضم هذا «الهيجان التنظيري» والذي أسس مدارس كلامية تلتزمها توجهات حاكمية معينة، برزت النصوص النبوية الداعية إلى تعيين الخليفة الشرعي على أنهامدرسة كلامية مقابلة للمدارس الكلامية

الأخرى، ذلك من أجل إبراز حقيقة الخلافة الإسلامية المنبثقة من منظور إسلامي يشدد على مواصفات الخليفة الشرعي، فضلاً عن تعيين اسمه، وضمن ترتيبات نبوية متواصلة حرص النبي على أن لا يترك محفلاً من محافل المسلمين، أو حادثة يومية تدخل في كيان المجتمع الإسلامي، إلّا ويلقي فيها التوصيات الخاصة في تعيين الخليفة، مما بات من مرتكزات المفهوم الإسلامي العام ومسلماته.

لم تدم هذه الحالة بعد وفاة النبي ﷺ، بل عمدت الحالة المتشنجة إلى احتواء هذه النصوص النبوية وتسخير الفهم العام على أنها لم تكن إلّا عملية اقتراحية في اختيار الخليفة، غير ملزمةٍ في تعيين الخليفة الشرعي، وبعد الفراغ من أن الأُمة هي صاحبة الاختيار للخليفة بعد رسول الله ﷺ، توالت التنظيرات على أن الخلافة هل هي منصب ديني أم نظام إنساني؟ وعن ذلك تسائل أحد الباحثين بقوله: ما طبيعة العنصر الديني في الخلافة؟ ثم يخلص بالقول عند إجابته عن هذا التساؤل: وعلى هذا فلتكن نظرتنا إلى الخلافة على أنها نظام إنساني، لمجتمع من الناس، له دين، وفي تعاليم هذا الدين مبادئ ومقررات تنظم حياة هذا المجتمع، وترسم معالم الطريق له... وأن الحكم الذي يقوم في هذه الجماعة أو تقيمه هي، هو خطة من خطط حياتهم، يظهر فيها من الدين ومن تعاليمه بالقدر الذي يكون في قلوبهم وعقولهم من تعاليم الدين وأحكامه...[1].

هذه هي نظرة باحثي مدرسة الإجماع للخلافة، وأقل ما يقال عنها، أنها نظرة متسرعة غير متوازنة يظهر فيها الكثير من الأجحاف بالواقع وحقائق الامور، فالبحث عن ماهية منصب الخلافة هو عين البحث عن منصب النبوة، لأن الخلافة

---

(١) الخلافة والإمامة عبد الكريم الخطيب: ٣١٠ دار المعرفة بيروت ط ٢ ١٩٧٥.

لم يكن اصطلاحاً أولدته ظروفه، بل هو اصطلاح أطلقه رسول الله ﷺ قبل ذلك، حيث روى أصحاب السنن عن النبي ﷺ أنه قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً[1]، فاطلاق مصطلح الخلافة لابد أن يكون قد أدخل في المفهوم الإسلامي الذي تسالم عليه المسلمون وارتكز في مقرراتهم وأدبياتهم، فالنبي ﷺ لن يطلق القضية دون بيان حدودها ولوازمها، أو كان على المسلمين استيضاح ما يطلقه ﷺ، فلا معنى إذن من مناقشة ما اصطلحه ﷺ ولن يغفل عن بيان مفهومه فضلاً عن مصاديقه.

هذا ما يمكن الإجابة عنه في هذه البحوث التي تبدو عقيمة ولأول وهلة، إلّا أن المتمعن في توجهات الباحثين سيجد أن الحرص الدؤوب على محاولات التنظير قد تخرج البحث عن منطق الاستدلال إلى المساحات الشاسعة من الأراء والاستحسانات والاحتمالات، مما يفقد مثل هذه البحوث حيويتها وهي تخوض في عباب أهم مسألة شغلت حياة المسلمين، تلكم هي خلافة النبي ﷺ، إلّا أن الحق الذي يمكن أن يقال، أن محاولات الباحثين هذه لم تكن عفوية مستلةً من مسألة مستحدثة ليست لها أسبابها، بل إن الباحث يجد نفسه ملزماً أن يدخل في معترك هذه التنظيرات ليخرج بحالة تُحسّن ما آلت إليه الخلافة الراشدة، فانطلاق الخلافة من حالة المجازفة التي ارتكبها الشيخان وفرضاها على المفهوم الإسلامي، هي مغامرة أطاحت بكثير من قيم الخلافة، وهي الحالة التي شخّصها بعضهم، أمثال طٰه حسين في كتابه الفتنة الكبرى بقوله «وأكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية، كما فهمها أبو بكر وعمر، إنما كانت تجربة حربية توشك أن تكون مغامرة..»[2]، ثم يستدرك بانها قد سبقت عصرها تعليلاً لنظرته هذه إلّا أنها في

(١) راجع فتح الباري لابن حجر العسقلاني باب الأحكام ١٣: ٢١٢ دار المعرفة بيروت.
(٢) الفتنة الكبرى، طٰه حسين. ٢٠٠ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط١ وس١٩٧٣م.

حدود تخفيف حدة مقالته وتلطيفاً للجو المتشنج ، ونحن نؤيده في حدود كونها مغامرة ، على أنها قد تجاوزت مفاهيم الخلافة التي أسسها النبيﷺ ، ولعله يوافقنا في قولنا حينما يذهب إلى القول «وسنرى أن نظام الشورى هذا كما وضعه عمر لم يكن كافياً ولا مقنعاً ، ولكن المهم هو أن عمر فكر في الشورى واتخذها أصلاً لاختيار الخلفاء . . .»[١].

هذه هي الرؤية العامة للباحث ، وهذا ما يمكن أن يحصل عليه من خلال استقصائه للظروف العامة ، التي جرت فيها البيعة ومقارنتها مع الثوابت الإسلامية التي رسمت ملامح الخليفة الإسلامي فضلاً عن الإفصاح عن اسمه .

وإذا كانت هذه هي النظرة العامة السائدة لحيثيات ما جرى يومذاك ، فإن البحوث لن تقف عند هذا الحد ، بل ستعم كل الوجودات الحاكمية اللاحقة والتي أخذت مشروعيتها من خلافة الشيخين ، لذا فإن الدوائر الحاكمة التفتت إلى هذا المعنى ، ووجدت نفسها أمام مما لا سبيل معه إلى التخلص من التشكيك في مدى صلاحيتها ، حاولت إثارة بحث عقيم مفاده: هل الخلافة منصب شرعي ديني يتم فيه التعيين بالنص ؟ أم هي منصب لادارة نظام إنساني تتدخل فيها رغبتات الأُمة في اختيار الخليفة ؟ كوحدةٍ إنسانية لها نوازعها وتوجهاتها .

هذه هي نظرة المدارس الكلامية للخلافة ، وهذا هو منطق التعامل الذي ابتعد كثيراً ـ ولأسباب لا تخفى ـ عن الموضوعية والدقة والجدية .

---

(١) نفس المصدر: ٢٤٣.

مبتنيات مدرسة النص..

وإذا كنا ابتعدنا قليلاً عن عنوان البحث ، فإنا قد حصلنا على غـايتنا ، وهـي قراءة جديدة لدوافع مدرسة الإجماع ومنهجيتها ، تمهيداً لقراءة مـدرسة النـص التي لم تنشأ ـ كما قدّمنا ـ إلّا كحالة مقابلةٍ للمدارس الكلامية الأخرى ، وإلّا فهي الثابت للمفهوم الإسلامي للخلافة ، وما قابلها إنـما هـي المـتغيرات فـي الرؤى والتوجهات ، والتي شكلّت فيما بعد مدارس كلامية لها ملامحها وخصوصياتها .

فمدرسة النص ترتكز على مفاهيم تشكل المحورية العامة لمعالمها الفكرية ، كفلسفةٍ تستمد أصولها من البرنامج النبوي الإلٰهي ، كما تشكّل هيكليتها كمعارضة سياسية تستوحي تحركاتها من المفهوم الإسلامي الخالص ، الذي يدعو لإقـامة حكم الله في الأرض .

وسنستعرض بعض المعالم لمدرسة النص التي تشكل المبتنيات الأساسية والفكرية ، وإليك أهمها:

١ ـ ترى مدرسة النص ، أن الخلافة منصب إلٰهي مقدس ، وهو يعني التمثيل الحقيقي لمنصب النبوة .

٢ ـ تشترط مدرسة النص أن يكون الإمام معصوماً ، والعصمة هـي المـلكة الموجودة في نفس المعصوم ، تجنّبه ارتكاب المعاصي وتسدده للطاعة دائماً .

٣ ـ لما كانت العصمة أمر خفي ، يتعلق بمكنون النفس ونوازعها ، فإن هذا الأمر لا يمكن تشخيصه ومعرفته من قبل الأُمة ، وهو أمر ليس ظاهر بيّن ، فتعسر عند ذلك معرفة الإمام المعصوم وتشخيصه .

٤ ـ لما كانت الأُمة عاجزة عن معرفة الإمام المعصوم وتشـخيصه فـقد لزم

تعيين الإمام بالنص من الله تعالى، إكمالاً للغرض، وهو العبودية المطلقة لله الذي لا يتم إلّا بمعرفته تعالى، والإمام المبلغ هو الدال عليه والداعي إليه ليتم الغرض من التكليف، فيثاب المطيع، ويعاقب المسيء.

٥ ـ ترى مدرسة النص، أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه، فلا يدانيه في الفضل أحد، ولا يقاربه أحد، فهو أعلم أهل زمانه، وأشجعهم، وأزهدهم، وأعبدهم، إلى غير ذلك من صفات الإمامة والقيادة، وإلّا فلا معنى أن يكون في الرعية من هو أفضل من الإمام، فإن تقديم المفضول على الفاضل، مما لا تقره الإمامية، وتعتبره اجحافاً في حق الفاضل، وغبناً لحقوق الأُمة، التي تتطلع إلى أن يكون إمامها هو الأكمل والأرشد والأصلح.

٦ ـ تعتمد مدرسة النص على الموروث النبوي الكبير من الأحاديث الصحيحة التي تعيّن الخليفة الشرعي، وتقدّم الخلافة الإسلامية على أنهاالمنصب الإلٰهي الذي يتم من خلاله وراثة النبوة وتبليغ الرسالة، وترى أن علي بن أبي طالب هو الخليفة الشرعي بعد رسول الله ﷺ بالنص، فقد روت بطرقها الصحيحة النص على خلافة علي فضلاً عن نصوص صحاح المدارس الإسلامية الأخرى، وإليك طرفاً من هذه النصوص الصحيحة وبرواية الفرق الأخرى:

حديث المنزلة: عن سعدٍ قال: قال النبي ﷺ لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»[1].

حديث الغدير: عن سلمة بن كُهيل قال: سمعت أبا الطفيل عن أبي سُريحه أو زيد بن أرقم، شك شعبة، عن النبي ﷺ قال: من كنت مولاه فعلي مولاه»[2].

---

(١) صحيح البخاري باب فضائل الصحابة ٥: ٢٤ دار الجيل بيروت.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٦٣٣.

لا يؤدي عن النبي إلّا علي: عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليٌ مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلّا علي»[1].

علي ولي كل مؤمن بعد النبي (ص): عن عمران بن حصين قال: بعث رسول الله ﷺ جيشاً واستعمل عليهم علي بن أبي طالب فمضى في السرية فأصاب جاريةً فانكروا عليه، وتعاقد أربعةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا إذا لقينا رسول الله ﷺ أخبرناه بما صنع علي، وكان المسلمون إذا رجعوا من السفر بدءوا برسول الله فسلموا عليه ثم انصرفوا إلى رحالهم، فلما قدمت السرية سلمّوا على النبي ﷺ فقام أحد الأربعة فقال يا رسول الله ألم تر إلى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم قام الثاني فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الثالث، فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل رسول الله ﷺ والغضبُ يُعرف في وجهه فقال ما تُريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ما تريدون من علي ؟

إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمنٍ بعدي[2].

هذا ما يمكن ذكره من النصوص في هذا المختصر، ويمكن لمن أراد المزيد مراجعة مصادر الحديث لدى الفريقين.

ولعل حديث ابن عباس يستفاد منه بعض صفاته عليه السلام وإليك نصه:

عن عمرو بن ميمون قال أني لجالس إلى ابن عباس إذ أتاه سبعة رهط فقالوا

---

(١) سنن ابن ماجه ١: ٤٤ ورواه النسائي عن حبشي بن جنادة السلولي فراجع خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص٨٢ طبعة ٢ ١٩٩٦م دار الكتاب العربي بيروت.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٦٣٢ ورواه النسائي بطريقين راجع خصائص النسائي: ٩٢ ط٢ دار الكتاب العربي ١٩٨٦ بيروت.

يا ابن عباس إمّا أن تقوم معنا وإمّا أن تخلو من هؤلاء، قال: بل أقوم معكم، وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى قال فانتدبوا يتحدثون ثم جاء ينفض ثوبه ويقول أف وتف، وقعوا في رجل له عشر، وقعوا في رجل:

قال له النبي ﷺ لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله قال فاستشرف لها من استشرف، فقال أين علي قالوا هو يطحن قال فما كان أحدكم يطحن فجاء وهو أرمد لا يكاد يبصر، فنفث في عينيه ثم هز الراية ثلاثاً فأعطاه إياها فجاء بصفية بنت حيي.

قال: ثم بعث أبا بكر بسورة التوبة فبعث علياً خلفه فأخذها منه وقال لا يذهب بها إلّا رجل مني وأنا منه.

قال وقال لبني عمه أيكم يواليني في الدنيا والآخرة، قال وعلي معه جالس، فأبوا قال علي أنا أواليك في الدنيا والآخرة، قال: فتركه، ثم أقبل على رجل منهم فقال أيكم يواليني في الدنيا والآخرة، قال: قال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة، قال: أنت ولي في الدنيا والآخرة.

قال: وكان أوّل من أسلم من الناس بعد خديجة.

قال: وأخذ ﷺ ثوبه فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين، فقال «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

قال: وشرى نفسه ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه...

قال: وخرج بالناس في غزوة تبوك قال، فقال له علي: أخرج معك، قال: فقال له النبي ﷺ: لا، فبكى علي، فقال أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنك ليس بنبي إنّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي.

وقال له رسول الله ﷺ أنت ولي كل مؤمن بعدي.

قال: وسد أبواب المسجد إلّا باب علي، قال فيدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره.

وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه[1].

فضلاً عن رجوع الصحابة إليه واعترافهم بأنه أعلمهم، وأفقههم، وأقضاهم، وإليك طرفاً مما يمكن تتبعه من أقوالهم.

أبو بكر الصديق: عن ابن عمر أن اليهود جاءوا إلى أبي بكر: فقالوا صف لنا صاحبك، فقال: معشر اليهود، لقد كنت معه في الغار كإصبعيَّ هاتين، ولقد صعدت معه جبل حراء وإن خنصري لفي خنصره، ولكن الحديث عنه ﷺ شديد، وهذا علي بن أبي طالب فأتوا علياً، فقالوا يا أبا الحسن صف ابن عمك، فوصفهُ لهم ﷺ[2].

عمر بن الخطاب: روى أبو ظبيان أن عمر أراد رجم المرأة التي ولدت لستة أشهر، فقال له علي أن الله عزّوجلّ وعلا، يقول **﴿وحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾**[3] وقال تعالى **﴿وفِصالُهُ في عَامَيْنِ﴾**[4] فالحمل ستة أشهر والفصال في عامين فترك عمر رجمها، وقال لولا علي لهلك عمر.

وعن يحيى بن عقيل، قال: كان عمر يقول لعلي إذا سأله ففرج عنه: لا أبقاني

---

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى للطبري: ٨٨ دار المعرفة بيروت، الحديث في مسند أحمد.

(٢) المصدر السابق: ٨٠.

(٣) الاحقاف: ١٥.

(٤) لقمان: ١٤.

الله بعدك يا علي[١].

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع عمر يقول لعلي وقد سأله عن شيء فأجابه: أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن[٢].

وعن أذينه العبدي قال: أتيت عمر فسألته من أين أعتمر ؟ فقال أئت علياً فاسأله[٣].

معاوية بن أبي سفيان: وعن أبي حازم قال: جاء رجل إلى معاوية فسألهُ عن مسألة، فقال سل عنها علياً فهو أعلم، فقال: يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إلي من جواب علي، قال بئسما قلت، لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغزه بالعلم غزا، ولقد قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذ منه[٤].

أُم المؤمنين عائشة: وعن عائشة وقد سئلت عن المسح على الخفيّن فقالت أئت علياً فاسأله[٥].

هذه جملة من الأحاديث الصحيحة التي تعتمد عليها مدرسة النص في تعيين الخليفة الشرعي، والتي أجمعت على خلافة علي بن أبي طالب، أمّا المدارس الإسلامية الأخرى فمع روايتها لهذه النصوص الصحيحة إلّا أنّها أوّلت هذه النصوص لصالح توجهاتها وفلسفتها في اختيار الخليفة.

---

(١) ذخائر العقبىٰ: ٨٢.

(٢) المصدر السابق: ٨٢.

(٣) المصدر السابق: ٧٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

٧ ـ لما كانت الخلافة والإمامة بالنص، فإن السابق ينص على اللاحق، بعهد معهود من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما كانت مدرسة النص قد أثبتت من خلال النصوص الصحيحة خلافة علي ابن أبي طالب، فانها أثبتت مثل ذلك، خلافة الأئمة من بعده وإليك طرقاً منها:

عن ابن عباس في سؤال اليهودي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جملة أسئلة ثم سأله عن وصيه، حيث قال:... فأخبرني عن وصيك، من هو، فما من نبي إلّا وله وصي وإن نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن وصيي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين، قال يا محمد فسمهم لي قال: إذا مضى الحسين فابنه علي فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر فإذا مضى جعفر فابنه موسى فإذا مضى موسى فابنه علي فإذا مضى علي فابنه محمد فإذا مضى محمد فابنه علي فإذا مضى علي فابنه الحسن فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي فهؤلاء إثنا عشر.. إلى آخر الحديث[1].

وعلى هذا فإن مدرسة النص تقول بامامة اثني عشر إماماً أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم المهدي عليه السلام، وذلك لما روته عن طرقها الخاصة فضلاً عن طرق المدارس الإسلامية الأُخرى، فالأئمة إذن على ما هي عليه النصوص الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد رواها الفريقان كالآتي:

علي بن أبي طالب، الحسن بن علي، الحسين بن علي، علي بن الحسين، محمد بن علي الباقر، جعفر بن محمد الصادق، موسى بن جعفر الكاظم، علي

---

(١) ينابيع المودة للبلخي القندوزي ٢: ٩٩ مؤسسة الأعلمي بيروت.

بن موسى الرضا ، محمد بن علي الجواد ، علي بن محمد الهادي ، الحسن بن علي العسكري ، الحجة بن الحسن المهدي ، عليهم أفضل الصلاة والسلام .

ولما كان هذا التمهيد قد استوعب الحديث عن إمامة علي عليه السلام ، فسنشرح في بحوثنا اللاحقة بمن بعده من الأئمة

أولاً ـ الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام

حاز الحسن بن علي عليه السلام ، مكانةً خاصة من نفس النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت له منزلة شريفة من قلبه الكريم ، وصرّح بحبه له ونوّه عن قربه إليه ، وحث المسلمين على حبه وإكرامه ، وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يستغل أية مناسبة للإشادة بفضله ومكانته من نفسه .

ولم يكن حب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مبنياً على عُلقة النسب ، وإن كانت العاطفةُ والوجدانُ حقوقاً أقرها الإسلام للمسلم ، ورتب عليها آثاراً وأحكاماً ، مراعاة للنزعة الإنسانية ، ومداراةً لما تكنهُ النفس من ميلٍ وعاطفةٍ تفرضها الطبيعة البشرية ، ولما كان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم صاحب قضية ، وحامل رسالة ، ترفّع عن العاطفةِ والهوى ، وجاءت سنتهُ قولاً وعملاً ، على أساسٍ من الوحي الإلٰهي ، تنطلق في رحاب المصلحة الإسلامية ، وتتحرر من نطاق النظرة الضيقة الشخصية ، وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ إنْ هَوَ إلّا وَحِيٌ يُوحَىٰ﴾[1] فكان القرآن شاهد على الصيغة الإلٰهية من التعامل النّبوي الكريم ، وحذّر من اتهامه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه يتعامل مع الرسالة على أساس ما تفرضه نظرته الشخصية الخاصة المقرونة بالعاطفة والأهواء ، بل أكد أن تعامله مبنيّ على تعاليم الوحي ، وتسديد السماء .

---

(١) النجم: ٢ ، ٣.

لذا فإنّه ﷺ ذكر الحسن بن علي في موارد، ونوّه عن حبه إيّاه، وإكرامه له، فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ، إنّه قال لحسنٍ، اللّهُمَّ إنّي أحِبّهُ فأحِبّه، واحبب من يحبه. وعن البراء بن عازب، قال: رأيت الحسن بن علي على عاتق النّبيّ ﷺ، وهو يقول اللّهُمَّ أنّي احِبُه فاحِبه[1].

ولا يخفى، أن النّبيّ ﷺ، ما كان يحب إلّا في الله، ولا يبغض إلّا في الله، ولقد أوصى بذلك اُمّته، أن تتعامل في الله، فتحب وتبغض، في الله كذلك، ودعى المسلم، أن يؤدب نفسه في حدود ذلك، وأن يوظف كل إحساساته، ومشاعره لله تعالى، لذا فلا يكون الحب الحقيقي، إلّا ما إنعقدت عليه القلوب في رضاه تعالى، وأن يتحرر من النظرة الضيقة، الكامنة في النفس الأنانية المقيتة، فقد روى البخاري، عن أنس بن مالك قال: قال النّبيّ ﷺ: «لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان، حتّى يُحبَّ المرء، لا يحبه إلّا لله»[2]..

والنّبيّ ﷺ في صدد تنبيه الأمّة على مكانة ولده، وسمو مرتبته، وذلك لترتيب الآثار المهمة الملازمة لهذا الحب، وهو الولاء وأخذ الطاعة، التي تنتهي بالبيعة لسبطه الكريم، وإيجاد الأرضية المناسبة، لتقديم الصيغة المحمدية على ذلك، وتهيئة النفس المسلمة، وترويضها على قبول لطف السماء.

هذا ما كان من أمر النصوص النبوية، وسيأتي إتمامها في الحديث عن الحسين بن علي عليه السلام، لاشتراكهما في نصوص كثيرة اُخرى.

أما ما كان من تقريض العلماء، وآراء المؤرخين، فهو ما ستقرأه في

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٢٩ ـ وأخرجه ابن ماجه في سننه وزاد عليه: قال وضمّه إلى صدره. انظر ابن ماجه فضائل الحسن والحسين ١: ٥١. وكذا الترمذي في صحيحه ٥: ٦٦١.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٥٧.

النصوص التالي ذكرها:

قال السيوطي: كان الحسن ﷺ له مناقب كثيرة، سيداً، حليماً، ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً، ممدوحاً.

وأخرج الحاكم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: لقد حجّ الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإنّ النجائب لتقاد معه.

وأخرج ابن سعد عن زريق بن سوار: كان بين الحسن، وبين مروان كلام، فأقبل عليه مروان، فجعل يغلظ له والحسن ساكت، فامتخط مروان بيمينه، فقال له الحسن: ويحك، أما علمت أن اليمين للوجه، والشمال للفرج؟ أفِّ لك فسكت مروان.

وأخرج ابن سعد، عن عمير بن إسحاق، قال: كان مروان أميراً علينا، فكان يسب علياً كل جمعة على المنبر، وحسنٌ يسمع، فلا يرد شيئاً، ثم أرسل إليه رجلاً يقول له: بعلي وبعلي وبعلي، وبك وبك، وما وجدت مثلك إلّا مثل البغلة، يقال لها من أبوك؟ فتقول: أمي الفرس، فقال له الحسن: أرجع إليه فقل له: إنّي والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلت بأن أسبك، ولكن موعدي وموعدك الله، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك وإن كنت كاذباً فالله أشد نقمة.

وأخرج ابن عساكر، قال: لما مات الحسن بكى مروان في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه، وقد كنت تجرعه ما تجرعه؟ فقال: إنّي ما كنت أفعل ذلك إلّا إلى أحلم من هذا، وأشار بيده إلى الجبل[١].

لقد أوغل مروان، في عدائه للإمام الحسن بن علي عليه السلام، وهي الصفة التي

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٧٧.

ورثها بنوه من بعده، فقد تجرّع الإمام الحسن غصصاً لا يمكن إعذار مسببها بأي حال، مع ما سمع من أحاديث جده فيه.

وكان مروان، قد أسس مدرسة متميزة في اتباع الإسلوب، الذي يفرض فيه مفاهيمه على المفاهيم الإسلامية الجليلة، فقد اتبع أسلوباً مبتذلاً، ولغة فاحشة، حاول أن يجعلها مبتنيات تحركه، فاسلوب الشتم قد ترفع عنه العامة من المسلمين، بعد أن أدّبهم نبيهم ﷺ بأدب الإسلام، وروّضهم على تعاليم الشريعة السمحاء، ونجح في أن يغيّر من أذواقهم إلى الحد الذي ترفّع المسلم عن أن يخدش صاحبه بنظرة مريبة، أو عمل يشين مروءة جليسه، وإذا بمروان، وقد مثّل لسان حال النّظام آنذاك، يستعمل أساليب لم يألفها المسلمون، إلّا في جاهليتهم، حتّى كان العربي آنذاك، يُنّزه نفسه عن أن يذكر معائب عدوه، إلّا بتلميحٍ، هي إلى الألغاز أقرب، ترفعاً، من أن يوغل في ذكر معائبه، بألفاظ مستهجنة فاحشة.

٢ ـ قال ابن الجوزي: وخرج ـ أي الحسن ـ من ماله مرتين، وقاسم الله عزّوجلّ ثلاث مرات، حتّى أن كان ليعطي نعلاً، ويمسك نعلاً[١].

٣ ـ قال الذهبي: الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، الإمام السيد، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أبو محمّد القرشي الهاشمي المدني الشهيد.

وقد كان هذا الإمام سيداً، وسيماً، جميلاً، عاقلاً، رزيناً، جواداً، ممدحاً، خيّراً، ديناً، ورعاً، محتشماً، كبير الشأن[٢].

---

(١) صفة الصفوة لأبن الجوزي ١: ٧٥٨، دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية / ١٩٧٩.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣: ٢٥٣، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى / ١٩٩١.

هذه أسرار الخلافة، تودع في كلمات الله التامة، وتسدد بفيوضاته، فهو أعلم حيث يجعل رسالته.

حديث الصلح بين فئتين من المسلمين..

لم تكد أيام صفين تضع أوزارها، حتّى انتقل علي بن ابي طالب عليه السلام إلى جوار ربّه، راضياً مرضياً، مظلوماً، تجرّع من غصص المحنة، ومنذ يوم وُسِّدَ رسول الله صلى الله عليه وآله مثواه الأخير، حتّى سّعر معاوية للحرب نيرانها، فحصل معاوية على نصره العاجل، وتيقن من اندحاره الآجل، وعلِمَ أن كأس النصر هذا، لم يكن خالصاً، حتّى مُزجَ بالسم الزعاف، الذي سيودي بكيانه المزعوم بعد حين، يوم تقرأ الأجيال القادمة تأريخ الصراع، بين خليفة قد أجمعت عليه الأمّة من المسلمين، وبين أحد ولاة الدولة السابقة المتمردين، فلم يقر الخليفة الشرعي ولايته، ولم يسمح لمثل وجوده أن يقتات على فتات موائد الظروف السياسية المرتجلة، وإذا قرأتْ الأجيال هذه الحقائق بعد حين، فإنّها ستكتشف الزيف الذي طلاه معاوية، يوم نادى بالقصاص من قتلة عثمان، وتفطّن آخرون، أن هذا سينجر إلى كيانات، استغلت ظروفاً سياسية طارئة، لتبدأ بلعبتها، يوم أعطت الأُمّة بيعتها لابن أبي طالب، وأعلنت هي الأخرى، عن توجعها المفتعل، وبكائها المصطنع، على مقتل «الخليفة المظلوم» بعد أن حرّضت الأمّة، وألّبت عليه جموع المسلمين.

تظافرت جهود الفريقين، ليشّكلا فريق عمل فني، يقحم من الأحاديث النبوية ما يعزز مواقف القوم، بعد أن تُدخِلَ في روع الآخرين: أن في قتال علي لمعاوية وأصحابه، هدرٌ لدماء المسلمين، ونزاع لسلطانٍ أقره عليه الخلفاء الراشدين، فلا حاجة إذن لمنازعته، ومحاولة إزاحته عن ملكه العضوض، وأنت

إذا قرأت طرفاً مما قيل في معاوية، تدعيماً لمشروعيته المفتعلة، فإنّك ستقرأ جهداً إعلامياً استثنائياً، يسعى لإحالة الحقائق إلى محاولات باهتة، تصاغ من خلالها مشاريع سياسية، مرتبكة فيما بعد، فمثلاً، ما روي عن ابن أبي مليكة قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعة، وعنده مولى لابن عباس، فأتى ابن عباس، فقال: دعه، فإنّه صحب رسول الله ﷺ[١]، وعن ابن ابي مليكة، قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنّه ما أوتر إلّا بواحدة، قال: إنّه فقيه[٢].

وهذان الحديثان، سيصبغان معاوية بالصحبة، والآخر بالفقاهة، وكلا الصبغتين لا تبيحان للمرء، أن يبحث عما ارتكبه معاوية من أمور، وإذا كان كذلك، فليكن ما كان منه اجتهاداً، أباح له أن يتحرك من خلاله، فكان محاربة علي إيّاه في غير محلها المشروع، وكان ما صدر منه في علي، ما يصدر عن الفقيه في حق الآخرين، لذا كان حديث الصلح بين فئتين، هو تذييل لكل تصرفات معاوية، التي افتتح فيها خلافته المزعومة المناوئة للخليفة الشرعي، إلى أن اختتم خلافته بتنصيب ولده يزيد، ولياً للعهد، ليكون فيما بعد خليفة المسلمين، من أقصى الدنيا إلى أقصاها.

وعليه فإن الحسن بن علي التفت إلى هذا المعنى، فصالح معاوية ليحقن دماء فئتين من المسلمين، أحدها معاوية وأصحابه، والأُخرى الحسن بن علي وأصحابه، فكان على علي كذلك أن يتدارك الأمر، وأن لا يضع السيف بين فئتين من المسلمين، وهكذا تعززت هذه الفكرة بحديث تلو حديث، عن رسول الله ﷺ، وقصة تردفها قصة، حتّى حيك حديث الصلح بين فئتين، وإليك نصه:

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب معاوية ٥: ٣٥ دار الجيل بيروت.

(٢) المصدر السابق.

حدثنا أبو موسى، عن الحسن، سمع أبا بكرة، سمعت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر، والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرةً وإليه مرة، ويقول: «**إبني هذا سيدٌ ولعل الله يُصلح به بين فئتين من المسلمين**»[1] لذا فإن هذا الحديث لقي رواجاً أكثر من غيره، واحتل مساحة من كتب السير والحديث، حتّى إنّك لن تجد أحداً كتب عن الحسن بن علي إلّا وذكر هذا الحديث وأمثاله، تعزيزاً لمعاوية وأصحابه، وتنكيلاً لمن حاربه، وإنتزع منه ولايته المزعومة، وخلافته المفتعلة.

السيوطي وتهافتات لعلّها غير مقصودة:

لغرض دراسة أي مشروع ثقافي، يحسن بنا القول، أن البحث في التهافتات التي يقع بها الكاتب ستعطي بعداً آخر للقضية المبحوث عنها، وسيعين هذا الاسلوب للحصول على حيثيات أكثر تشارك في رفد النظرة العلمية المجردة، فمن البحث العلمي الموضوعي الذي حرص عليه الكاتب مثلاً ينتقل البحث إلى مواضع يتخلخل فيها البحث العلمي، ناشئة عن تهافتات تساهم في زعزعة الثقة المتبادلة بين القارئ والكاتب، وهي الحالة التي تبتلى بها ـ وللأسف ـ أكثر كتاباتنا الإسلامية، تسببها ظروف عاطفية غير عقلانية، أو عقلانية غير مقصودة تُسيء إلى العلاقة بين الكاتب وقارئه لقطع الجسور بينهما فيفقد طبقة عريضة واعية من القرّاء، ويغدو هذا المشروع أو ذاك متهماً في نظر القارئ باللا مبالاة إذا أحسن الظن بكاتبه، أو بنوايا سيئة يظنها القارئ لتشنج العلاقة بينه وبين ذلك المشروع.

وفي عرض سريع لاحصاء هذه الحالات المؤسفة سنشير إلى ما وقع به السيوطي في هذه المشلكة، وما سببته أمثال ذلك من الفجوات التي باعدت بين

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب الحسن ٥: ٣٢ دار الجيل.

المشروع الثقافي الإسلامي وبين جيل عريضٍ له ثقافاته الموضوعية ومواقفه المجردة من الأحداث ، ففي عرضه لخلفاء النّبيّ ﷺ أكد السيوطي أن الخلفاء الاثني عشر الذين أشار إليهم النّبيّ ﷺ هم الراشدون من الخلفاء والحسن ومعاوية وضم إليهم ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز ، ثمّ قال ويحتمل أن يضم إليهم المهدي من العباسيين إلى آخر كلامه[١].

وكان على السيوطي ـ وهو العالم المتبحر والمحقق المدقق ـ أن يبتعد عن أسلوب الاحتمالات عند أي بحث يأخذ على عاتقهِ قضية إسلامية مهمة كهذه ، فالاحتمالات والافتراضات هي إلى المناورة الجدلية أقرب منها إلى اسلوب البحث العلمي ، وسيفاجئ القارئ بمطباتٍ تعرقل مسيرة بحثه وهو لا يزال يبحث عن قضية إسلامية تدخل في إيجاد مبتنيات فكره وعقيدته ، فالحديث الذي بحثه السيوطي تكفّل ببيان الاثني عشر خليفة ، وحاول السيوطي أن يقدّم أُطروحته في عدد الخلفاء وأسمائهم ، فعدّد أسماء من اقترحهم ، ثم فاجأ القارئ بقوله عند تاريخه للحسن بن علي «سبط رسول الله عليه الصلاة والسّلام وريحانته وآخر الخلفاء بنصه» يريد النص المروي: «الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ، ثم تكون ملكاً عضوضاً» ، والذي استحدثه السيوطي في بحثه هو تراجعه عن سابق كلامه الذي عدّد فيه الخلفاء ، ثم ذكر في معرض حديثه عن الحسن بن علي أنّه آخر الخلفاء ، فأين الآخرين من بعده الذين افترضهم في قائمته السابقة ؟ هل تراجع عن كلامه السابق بأن الخلافة لا تليق فيمن جاء بعد الحسن بن علي ، وهي الحقيقة التي لابد أن يقرها السيوطي ؟ أم هي تهافتات تُظهرها حقائق كامنة في نفسه لا يقوى على إظهارها لظروف أعذرتهُ في إلتزام هكذا طرقٍ ؟

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٢ دار الفكر ـ بيروت.

ثانياً ـ الحسين بن علي عليه السلام

في بعض ما اشترك مع الحسن من حديث:

لم يكن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد أفرد حبه لولده الحسن وحده، بل شاركه أخوه الحسين في كل ذلك، وكأن وحدة القضية والمهمة، ووحدة المواجهة والمصير، أتاحت للكلمة أن تتوحد بين الأخوين، وأباح للحديث أن يتناوب للحسين كما هو في الحسن، وكأن صفات الكرائم تتقاسم بين الأخوين فيحظى هذا شطراً ويحوز ذلك آخر، والنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في كل ذلك يقرأ غيب السماء في ولده الحسن كما هو عند ولده الحسين، حتى عناية الله تعالى يتناصف فيها الشقيقان فلا يكون بينهما من العمر سوى فارق شهور ليحوز الحسن قبل أخيه الحسين لطف الإمامة.

وتتابع الشقيقان في قضية واحدة موحدة، وحاز الإمامان على مصير واحد موحد، مواجهة مع الكفر والنفاق، ومصير للشهادة والخلود.

أخرج ابن ماجه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»[1].

وزاد ما أخرجه الترمذي في سننه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

---

(١) سنن ابن ماجة باب مناقب الصحابة ١: ٥١ دار الفكر.

«أن الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا»[1].

وعن أُسامة بن زيد قال: خرج رسول الله ﷺ ليلة وهو مشتمل على شيء قلت: ما هذا ؟ فكشف فإذا حسن وحسين على وركيه، فقال: «هذان ابناي وابنا بنتي، اللّهُمَّ إنّي أُحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»[2].

وعن حذيفة، قال النّبيّ ﷺ: «يا حذيفة، جاءني جبريل فبشّرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة»[3].

وعن أبي هريرة قال: كنّا مع النّبيّ ﷺ في صلاة العشاء، فكان إذا سجد، ركب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه رفعهما رفعاً رفيقاً، ثمّ إذا سجد، عادا، فلما صلّى، قلت: ألا أذهبُ بهما إلى أمهما ؟ قال: فبرقت برقة، فلم يزالا في ضوئها حتّى دخلا على أمهما[4].

البرنامج التربوي الإسلامي وصياغة التركيبة المسلمة:

وبعد هذه الأحاديث التي أوردناها عن النّبيّ ﷺ في سبطيه الحبيبين، نود أن ننوه إلى أن المفهوم الإسلامي في تزكية فرد أو مجموعة لم يكن مبنياً على الاعتبارات الشخصية أو النظرة الفردية الخاصة، بل كان التعامل مع الفرد منبثقاً عن أسس إسلامية ثابتة، وقواعد عامة، تنشأ ضمن الأدبيات التي حددها القرآن وعينتها السنة، وعليه فإن قراءة للسنة النبوية الشريفة، ستكشف أن التعامل الشخصي لم يكن له اعتبار في مفهوم الإسلام، ولا القرابة أو النسب لهما شأنهما

---

(١) سنن الترمذي باب فضائل الصحابة ٥: ٦٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٥، ٢٥٦ مؤسسة الرسالة: ط ١ / ١٩٨١م.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

في تعامل نبي الإسلام، بل كان صلى الله عليه وآله دقيقاً جداً في انتقاء الألفاظ واختيار الأسلوب الذي يعني من خلاله التأكيد على شخصية هذا، أو تشخيص خصوصيات ذاك. فمحاولة التنويه عن هؤلاء أو أولئك هي عملية تربوية يُستهدف من ورائها رفد المشروع الإسلامي التربوي بصيغ ومفاهيم أكدها الإسلام وفرض على المسلمين اتباعها.

لقد أدخل البرنامج التربوي في الإسلام نموذجين متغايرين، وجعلهما دالتين للمسلم في ترتيب أخلاقيته وصياغة التركيبة المسلمة على أساسها. فكان أبو لهب مثلاً أغنى شخصية نصبت العداء لرسالة السماء، وهو مع ذلك أقرب الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله حتّى أنزل الله فيه قرآناً يلعنه، وكان بلال مثلاً أحب أصحابه إليه وهو مع ذلك أبعد النّاس نسباً، حتّى قال يوماً: يا بلال بم سبقتني إلى الجنة، ما دخلت الجنة قط إلّا سمعت خشخشتك أمامي.. الحديث[١].

إذن فكل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يكن ذلك إلّا للتنويه عن كريم صفة، أو عظيم ذنب.

والحسنان لم يحوزا ما حازا عليه من تعظيم وإجلال لقرابة فحسب، بل هو مقتضيات الرسالة ووحي السماء.

الأحاديث النبوية في الحسين بن علي عليه السلام

عن جابر إنّه قال ـ وقد دخل الحسين المسجد ـ من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنّة فلينظر إلى هذا[٢].

---

(١) صفة الصفوة لأبن الجوزي ١: ٤٣٩ دار المعرفة بيروت لبنان.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣: ٢٨٢.

وعن يزيد بن أبي زياد: أن النّبيّ ﷺ سمع حُسيناً يبكي، فقال لأمّه: «ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني»[١].

وأخرج ابن ماجه عن النّبيّ ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسينٌ سبط من الأسباط»[٢].

ومثله ما أخرجه الذهبي عن سعيد بن راشد عن يعلي العامري[٣].

والحسين.. كغيره ممّن التحق بقافلة الخلود، يوم ابتدأها أبوه إبراهيم ومن قبله نوح، يدعوان إلى عبادة الله ونبذ عبادة من دونه، واختتمها جده محمّد ﷺ، ولم يكتفِ الحسين أن يلتحق بهذا الركب وحده، بل دعى أهل بيته إليه وأدخلهم فيه يوم شاطروه القضية وانتهوا معه في المصير، ولم يكتف الحسين بهذا القدر فقط، بل ألحق في ركبه رضيعهُ الوليد ليجعل من قضيته ملحمة تفوق كل ملاحم الفداء، فلم يعز عليه ما قدمه قرابين لرضا الرّب تعالى، واعتادت ملاحم الأنبياء أن يكون النّبيّ ﷺ هو وحده الداعي أولاً وهو وحده المضحي أخيراً، فيتقاطر الأنبياء هكذا إلى ركب الخلود، والحسين وحده يجود في العطاء إلى حيث العطاء فيكون للصغير كما للكبير من سخاء، كل ذلك يقرأه جده في صغيره السبط ليقول: «حسين منّي وأنا من حسين»، فلم يكن هذا التبعيض تبعيض نسب فحسب، بل هو تبعيض روح، وجزء رسالة وقضية، بدليل قوله هذا، وإلّا لما صح قوله «وأنا من حسين»، فهل يستحق غير الحسين هذا التبعيض؟.

---

(١) المصدر السابق: ٢٨٤.
(٢) سنن ابن ماجه ١: ٥١ دار الفكر.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣: ٢٨٣.

ما ورد عن العلماء من تقريض..

عبد الله بن عمر: عن العيزار بن حرب، بينما عبدالله بن عمر جالس في ظل الكعبة إذ رأى الحسين مقبلاً، فقال: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم[١].

عبدالله بن عبيد بن عمير: قال: حج الحسين بن علي عليه السلام خمساً وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد معه[٢].

ابن الأثير: وكان الحسين عليه السلام فاضلاً كثير الصوم والصلاة والحج والصدقة وأفعال الخير جميعها[٣].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لأبن حجر ١: ٣٢٣ دار صادر بيروت.
(٢) صفة الصفوة لأبن الجوزي ١: ٧٦٣ دار المعرفة بيروت.
(٣) أسد الغابة لأبن الأثير ٢: ٢١.

ثالثاً ـ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام

السيد الإمام زينُ العابدين الهاشمي العلوي المدني.

قال فيه الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين. وقال أيضاً: كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: ما رأيت فيهم مثل علي بن الحسين.

وعن مالك قال: لم يكن في أهل البيت مثله.

وقيل أن رجلاً قال لابن المسيب: ما رأيت أورع من فلان، قال: هل رأيت علي بن الحسين؟ قال لا، قال: ما رأيت أورع منه.

وعن أبي نوح الأنصاري قال: وقع حريقٌ في بيتٍ فيه عليُ بن الحسين وهو ساجد فجعلوا يقولون يابن رسول الله النّار، فما رفع رأسه حتّى أُطفئت، فقيل له في ذلك فقال: ألهتني عنها النار الأُخرى[1].

وقال أيضاً شهدت علي بن الحسين يوم حمله عبدالملك بن مروان من المدينة إلى الشام فأثقله حديداً ووكّل به حفّاظاً في عدّة وجمع، فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له فأذنوا لي، فدخلت عليه وهو في قبة والأقياد في رجليه والغلّ في يديه فبكيت وقلت: وددت أني مكانك وأنت سالم. فقال: يا زهري أو

---

(١) الذهبي / سير اعلام النبلاء ٤: ٣٨٦.

تظنّ أن هذا مما ترى عليّ وفي عنقي يكثرني ؟ أما لو شئت ما كان فانه وان بلغ فيك وفي أمثالك لَيذكّرني عذاب الله .

ثم أخرج يديه من الغل ورجليه من القيد قال: يا زهري لاجزت معهم على ذا منزلتين من المدينة قال: فما لبثنا إلاّ أربع ليال حتى قدم الموكلون به يطلبونه بالمدينة فما وجدوه فكنت فيمن سألهم عنه ، فقال لي بعضهم: إنا لنراه متبوعاً[1] ، بينا انه لنازل ونحن حوله نرصده اذ أصبحنا فما وجدنا بين محمله إلّا حديده .

قال الزهري: فقدمت بعد ذلك على عبدالملك بن مروان فسألني عن علي بن الحسين فأخبرته فقال لي: انه قد جاءني في يوم فقدوه الأعوان فدخل عليّ فقال: ما أنا وأنت ؟ فقلت: أقم عندي . فقال: لا أحب . ثم خرج فوالله لقد امتلأ ثوبي منه خيفة .

قال الزهري: فقلت: يا أمير المؤمنين ليس علي بن الحسين حيث تظنّ ، إنه مشغول بنفسه فقال: حبّذا شغلٍ مثله فنعم ما شغل به .

قال: وكان الزهري اذا ذكر علي بن الحسين يبكي ويقول: هو زين العابدين[2] .

وعن عبد ابن أبي سليمان قال: كان علي بن الحسين إذا مشى لا تجاوز يده فخذيه ولا يخطرُ بها . وإذا قام إلى الصلاة ، أخذته رِعدة ، فقيل له في ذلك ، فقال: تدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي ؟ وعنه أنّه كان إذا توضأ اصفرّ .

وعن سفيان: حج علي بن الحسين فلما أحرم اصفرّ وانتفض ولم يستطع أن

---

(١) قولهم متبوعاً: يتبعه الجن ويطيعه لتسخيره إياهم. من الهامش.
(٢) ترجمة الامام زين العابدين من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤١: ٣٧٢ دار الفكر بيروت ط ١ ـ ١٩٩٦ تحقيق علي شيري.

يُلبّي فقيل: ألا تلبي ؟ قال: أخشى أن أقول لبيك ، فيقول لي لا لبيك ، فلمّا لبّى غُشيَ عليه وسقط من راحلته ، فلم يزل بعض ذلك به حتّى قضى حجه .

ومثله عن مالك وزاد عليه: ولقد بلغني أنّه كان يُصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات ، وكان يسمى زين العباد لعبادته .

وعن محمّد بن إسحاق: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل .

وقيل: كان علي بن الحسين إذا سار في المدينة على بغلته لم يقل لأحد الطريق ، ويقول هو مشترك ليس لي أن أنحي عنه أحداً[١] .

وقال ابن الجوزي: كان الزهري يقول لم أر هاشمياً أفضل من علي بن الحسين ، وما رأيت أحداً كان أفقه منه .

وعن عبد الغفار بن القاسم قال: كان علي بن الحسين خارجاً من المسجد فلقيه رجل فسبه ، فثارت إليه العبيد والموالي ، فقال علي بن الحسين: مهلاً عن الرجل . ثم أقبل على الرجل فقال: ما سُتِرَ عنك من أمرنا أكثر . ألك حاجة نعينك عنها ؟ فاستحيا الرجل ، فألقى عليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول[٢] .

وللذهبي شهادةٌ على إمامته بقوله: وكان له جلالةٌ عجيبة ، وحُقَّ له والله ذلك ، فقد كان أهلاً للإمامة العُظمى ، لشرفه وسؤدده وعلمه وتألّهِ وكمال عقله[٣] .

---

(١) تجد هذه النصوص كلها في: سير أعلام النبلاء للذهبي ٤: ٣٨٦ وما بعدها.

(٢) صفة الصفوه ٢: ١٠٠.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤: ٣٩٨.

والحقُّ لم تزل واقعة الطف شاخصة في وجدان الأُمّة منذ أن إنتهت بما إنتهت إليه من المأساة والفجائع، ومنذ أن مثلّت وقائعها عرضاً لكل ما يمكن أن يقوم به الرساليون من صراع، وكل ما يمكن أن يدخره الأنبياء من مواقف، ولا تزال وقائع المأساة تعيش في ضمير الأمّة وذاكرتها، ولا زالت أفعال الأمويين توخز كرامة الأُمّة وتؤذي كبريائها وتعذّب صحوتها الإنسانية منذ أن أفاقت على نداء النّبيّ ﷺ وهو يعلن دعوته فينقذها من دياجير الظلمات، إلى حيث بزغ النّور على روابي مكة لتكون حاضرة الدنيا بعد أن كان أهلها أذلاء يتخطفهم النّاس من حولهم، فأنقذهم الله بمحمّد وجعلهم أسياد الدنيا بكلمة التّوحيد، وأحسّت الأمّة بأن وفائها لجهده الميمون، أن تسأله ليقبل منها المال أجراً على الرسالة ودعوة التبليغ، ولم يقبل منهم رسول الله ﷺ هكذا أجر، ولن يسألهم عليه أجراً إلّا المودة في القربى[1]، ومرت السنون وتوالت الأيّام حتّى أيقنت الأُمّة أنّها لم تفِ بما عاهدت عليه الله والرسول من أداء حقّ الرسالة في ذريته من التكريم والتعزيز والتوقير، بل عدتْ على ذريته حتى صاروا، يُستضعفَون فلا ينصرون، ويستغيثونهم فلا يغاثون، ويدعونهم فلا يستجيبون، حتّى كانت واقعة الطف فانتهت بهزيمة الأُمّة وتراجعها نحو الخذلان والنكوص.

كان بقية السلف، الطاهر من آل الرسول ﷺ المتمثلة بعلي بن الحسين قد حلَّ بين ظهراني الأمّة، يذكّرهم بما آلت إليه هفوة الخذلان من مصير، حتّى حملوا آل أبي سفيان على رقابهم وبات أبناء الطلقاء يتحكمون بأسيادهم، وأضحى ثقل الرسول الذي يمثله علي بن الحسين بعد رجوعه من كربلاء، الواقعة، ينازع تلك الروح الخانعة في جسد الأُمّة ليغلبها ويحيلها إلى ثورة،

---

(١) راجع أسباب النزول للسيوطي في أسباب نزول آية «قل لا سألكم عليه أجراً» الشورى: ٢٣، القرآن الكريم وأسباب النّزول: ٤٢٥ دار الرشيد دمشق بيروت.

فغدت ترى فيه جلالة المظلوم وهيبة المهتضم ، فضلاً عن جلالة الرسالة ، وهيبة الإمامة .

صحيح .. أن الوقع عظيم ، إلاّ أن المسؤلية أعظم ، هكذا يشعر الإمام زين العابدين عليه السلام ، فلا يعني أن واقعة الطف التي استهدفت الاجساد انها تنال من الفكر والدعوة إلى الله ، كما أراد لها الأمويون يوم ذاك .

لقد نال زين العابدين منهم ما كان يعدل القتل ألف مرة ، فاستبعاده عن ساحة الحدث الاسلامى وعزله عن الأمة كانت من أهم أهداف النظام ، بل توجه الاعلام المضاد بكل ثقله للانتقاص من دوره عليه السلام ، فألقى في أذهان العامة إنعزالية الامام وابتعاده عن الحياة السياسية .

فصوّرته أكثر المشاريع التاريخية بأنه أعبد أهل زمانه ، لا يرى الخروج على الخليفة ، بل يرى العكس ، وهو اقامة علاقة ودية مع مركز الخلافة أو شخص الوالي فنال رضا الحكام آنذاك .

وأنت كما تراها محاولة غير موفقة للتفكيك بين فكر الامام زين العابدين وبين فلسفة آبائه الذين يرون وجوب الخروج على الظالم فيما اذا توفرت مستلزمات الخروج .

أبطل الامام هذه المحاولات أو فنّد كل المزاعم التي من شأنها أن تصوّر الامام بأنه «صوفي آثر العبادة» وليس له شأن في مجريات الأحداث ، فقد سلك مسلكاً جهادياً آخر استطاع من خلاله أن يخترق كل طوق إعلامي فكري ضربه النظام على شخصيته ، فجهاد الفكر بالكلمة المقاتلة هو من أروع تحركات الامام ، حتى كان اسلوباً جديداً في ميدان الصراع أربك خطط النظام وأحالها تهريجاً اعلامياً بائساً ، فقد حاور الامام فكر الأمة وألقى اطروحاته الفكرية والسياسية والعقائدية

والتربوية حتى زاحمت كل اطروحة بديلة عن آل البيت، والنظام يسمع ويرى ما يبثهُ الامام إلّا أنّه غير قادر على صده، فهو الاسلوب المبتكر في معارضته، والنظام يفتقر إلى الاسلوب المماثل الذي يمتلكه الامام، وما ابتدعه الامام أسقط مافي أيدي النظام تماماً فكيف يقوى على ايقاف الدعاء من رجل متعبد يبث شكواه إلى الله تعالى، والأمة متلهفة إلى أن تنظّم كل ما تصبو إليه على اساس الاطروحة المسالمة التي تجنبها سفك الدماء من قبل النظام، متوجسة أن تبوح، بمتطلباتها خوف بطشه وطيشه، لذا حين يُلقي الامام زين العابدين عليه السلام دعاءه تتلقاه الأمة بكل اشتياق فقد عبّر الامام عما في نفوسها، وألهمها حُسن المعارضة التي تُقصي النظام عن أية مظلمة يحاول ارتكابها، لذا فقد ألقى الامام عليه السلام فكره بكل سكينة وهدوء، وتلقت الأمة تعاليمه بكل عظمة وبهاء، والنظام بعد ذلك قد أفلس من أية أُطروحة سياسية ناجحة أو فكرة مضادةٍ ماكرة.

كانت أدعية الامام التي تضمنتها الصحيفة السجادية مدرسة متكاملة واطروحات تقدم الفكر الامامي على أساس المناجاة والتبتل إلى الله تعالى، واستهدف الامام من بعض تحركه هذا فضلاً عن تقديم فكره وفلسفته، إلى تمتين العلاقة بين الخالق والمخلوق، وأن يكون الدعاء لله تعالى شحنة تحفّز الروح المستكينة إلى نبذ كل عبودية دون عبودية الله تعالى، وأن لا يكون الدعاء «صوفياً» مجرداً عن أي روح، بل أن الدعاء يلقّن العبد كيف يتعامل مع الله ومع الناس ومع نفسه.

ولعل (رسالة الحقوق) التي قدّمها الإمام عليه السلام هي الاخرى من أروع النماذج التي أغنت الفكر الانساني على الاطلاق وليس الفكر الاسلامي وحده، استعرض فيها كافة أصناف الحقوق ابتداءً بحق الله تعالى على عباده، مروراً بحقوق

الوالدين والزوج والزوجة والارحام والجيران وانتهاءً بحقوق الامة على الافراد وعلى السلطان، وحق السلطان العادل على الفرد والأمة فمثلت هذه الرسالة أول لائحة أخلاقية وسياسية في تنظيم العلاقات العامة فضلاً عن علاقة العبد بربه.

كما توقفنا هذه الرسالة على ثابتة تاريخية بالغة الاهمية، وهي السبق الزمني في التصنيف والتدوين في الاسلام، الامر الذي جهد التاريخ العام في تجاهله وإغفاله، كأنه لا يريد أن يسلّم لإمام من أهل بيت النبوة بالسابقة!!

واذا كانت أدعية الامام عليه السلام مدرسة تربوية رشيدة، فإنها قد تضمّنت في الوقت نفسه رسائل معمقة يستخدمها الامام ليعبر عن وجدان المظلوم وحيف الظالم في جهد دؤوب من أجل تجديد الوعي الديني والسياسي والاجتماعي لدى الامة:

قال في دعاء الصحيفة السجادية: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد، ووفقنا في يومنا هذا وليلتنا هذه وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير وهجران الشرّ.. وشكر النعمة.

واتّباع السنن، ومجانبة البدَع..

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

وحياطة الاسلام..

وانتقاص الباطل وإذلاله، ونصرة الحقّ وإعزازه..

وإرشاد الضالّ، ومعاونة الضعيف، وإدراك اللهيف..»[1].

لاحظ كيف تتعانق الاهداف السياسية الكبرى مع مباحث المجتمع وأخلاق

---

(١) الصحيفة السجادية / من الدعاء السادس عند الصباح.

الفرد.. لتعود هذه الابعاد تتعانق مرات أُخرى في نصوص أُخرى..[١]

ثم يشير إلى وجوب نصرة المظلوم ويؤجج الشعور بالمسؤولية إزاء مشاهد الظلم والعدوان: «اللهم اني اعتذر إليك من مظلوم ظُلم بحضرتي فلم أنصره..».

وبالرغم من الاختلاف في الرؤية بين الامام عليه السلام وبين النظام، إلاّ أنه يجعل مصلحة الاسلام هي الأهم، والحفاظ على بيضته هي الغاية:

«اللهم صل على محمد وآله، وحصِّن ثغور المسلمين بعزّتك، وأيّد حماتها بقوتك، وأسبغ عطاياهم من جِدَتِك..»[٢].

وهو لا يكف عن التعريف ببعض حق أهل البيت ومنزلتهم، الامر الديني العبادي الذي لا ينفك عن بعد سياسي، بل صاغت منه الاحداث أمراً سياسياً صرفاً.. «واعذني وذرّيتي من الشيطان الرجيم .. ومن شر كل من نَصَبَ لرسولك ولاهل بيته حرباً، من الجن والانس...»[٣].

«اللهم صل على محمد وآله كما شرفتنا بهِ، وصل على محمد وآل محمد كما أوجبت لنا الحق على الخلق بسببه..»[٤]

وايضاً: «.. وتولني في جيراني مواليَّ الصارخين بحقنا، والمنابذين لاعدائنا، بأفضل ولايتك... ووفقهم لاقامة سنتك والاخذ بمحاسن أدبك...»[٥]

---

(١) الدعاء الثامن (في الاستعاذة من المكاره)، والدعاء العشرون (في مكارم الاخلاق) وغيرها.
(٢) المصدر السابق / الدعاء السابع والعشرون.
(٣) المصدر السابق / الدعاء الثالث والعشرون.
(٤) المصدر السابق / الدعاء الرابع والعشرون.
(٥) المصدر السابق / الدعاء السادس والعشرون.

رابعاً ـ محمّد بن علي الباقر عليه السلام

عن عبدالله بن عطاء قال: ما رأيت العلماء عند أحدٍ أصغر منهم علماً عند أبي جعفر (محمد بن علي) لقد رأيت الحَكم عنده كأنّه متعلّم[1].

قال الذهبي فيه: هو السيد الإمام أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن علي العلوي الفاطمي المدني. كان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدُد والشرف والثقة والرزانة وكان أهلاً للخلافة.

واشتهر أبو جعفر بالباقر من: بَقْرَ العلم، أي شَقّهُ فعَرف أصله وخفيَّه. ولقد كان أبو جعفر إماماً مجتهداً، تالياً لكتاب الله، كبير الشأن.

ثمّ ذكر الذهبي كلاماً بعد قوله «واشتهر بالباقر» فقال: ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه ولا نحيف عليه، ونحبه في الله لما تجمع فيه من صفات الكمال[2].

ويحسن بالمؤرخ أن يستعرض الحقائق دون الحاجة إلى المفاضلة بين شخص وآخر، فلعلّه يتهم بالمحاباة لشخص والحيف على آخرين، وقد أراد أن

---

(١) صفة الصفوه ٢: ١١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤: ٤٠٢.

يبعد نفسه عنها، فلا ينبغي بمثل الذهبي وقد أفنى عمره في معرفة الرجال أن يتنكر لأقوال العلماء ويحيف عليهم، وقد ذكروا من علوم الباقر وتفسيره لكتاب الله ومعرفته بالسنن ما انثنت له أعناق الرجال وأشرأبت له النفوس وجالت بآراءه مدارس المسلمين، ثمّ يفاضل بينه وبين تلامذته ليجعلهم خيراً منه وأفضل درجة!

أن حقيقة واحدة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا ونحن نخوض عباب البحث العلمي، وهي: أن الحكومات التي تعاقبت على الأُمّة الإسلامية ضربت بجذورها في بواطن المشاريع الإسلامية، وشكّلت مدارس تتبنّىٰ أفكارها وتلتزم منهجيتها حتّى بعد غيابها، وهي خطةٌ ثقافية طويلة الأجل تمتد بامتدادات التاريخ الإسلامي، وترتبط بلعبة التوازنات الفكرية التي أنشأ أساسها «أهل دعاوىٰ الإصلاح» الذين لم يتخلصوا من كوامن النّفس النازحة إليهم من مشاريع ثقافية حاكمية تأسست من ذي قبل بالرغم من طول العهد بينهم وبينها، وهم كلما أرادوا أن يُقّدموا مشاريع ثقافية رشيدة موضوعية، أصابتها رواسب الماضي الموروثة ولوّثتها إلى الحد الذي أفقد الثقة المتبادلة بينها وبين القارئ الموضوعي.

ولعل آراء الذهبي كانت هي إحدى الضحايا التي فرّطت بها مشاريع الماضي، وأسست عليها نظريات فرضت على الأجيال القادمة قراءتها، وكلّفت الأُمّة جهداً ثقافياً مضنياً أسقط بديهيات ومسلمات لا ينبغي التفريط بها.

لقد أربك المشروع المضاد لأهل البيت، النظرة المتوازنة للكاتب الإسلامي فتضاربت آراؤه بين مشروع وآخر، وتناقضت استنباطاته بين رأي وآخر، فتراه يتنقل بين عفويةٍ علمية تفرض عليه ذكر الحقائق، وبين تحفظاتٍ متشنجة تفقده بعض مصداقيته، فبين قول الذهبي ومفاضلته بين علم الباقر وعلوم غيره، قال في

تذكرة الحفاظ ما خالف رأيه السابق بقوله:

محمّد بن علي بن الحسين الإمام الثبت الهاشمي العلوي المدني أحد الأعلام.. وكان سيد بني هاشم في زمانه، اشتهر بالباقر من قولهم بقر العلم يعني شقّه فعلم أصله وخفيه. وقيل إنّه كان يصلي في اليوم والليلة مائة وخمسين ركعة[١].

ومثله قال الثوري: سمي بالباقر لأنّه بقر العلم أي شقه فعرف أصله وعرف خفيه[٢].

وقال الحسن البصري[٣]: ذلك ـ أي محمّد الباقر ـ الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء.

وما قاله محمّد بن المنكدر فيه ـ وهو شيخ مالك بن أنس ـ قال: ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقاربه في الفضل حتّى رأيت ابنه محمّداً الباقر[٤]. وكانت لعظمة محمّد الباقر وجلالته حتّى في نفوس مناوئيه ما يحدّث به التاريخ من ملاحم المجد والسيادّة، فكان بنو أُمّية على عدائهم له وملاحاتهم يستشيرونه إذا حل في واديهم ما يفزعهم من الأمر، وكان الباقر على الرغم من ذلك يستجيب إليهم ليحل ما أشكل عليهم حفاظاً على بيضة الإسلام وعزته، وهو دليل على مكانته في الأمّة، وقيادته الأحداث، فضلاً عن إمامته ورئاسته بين النّاس، ومن ذلك كثير وسنقتصر على إيراد ما ذكره الدميري في حياة الحيوان في

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١: ١٢٤.
(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ١: ٣٢، دار الفكر بيروت.
(٣) الإمام جعفر الصادق. المستشار عبد الحليم الجندي، ص١٤٠ طبع القاهرة / ١٩٧٧م.
(٤) المصدر السابق.

أسباب ضرب السكة في الإسلام فقال: قال الكسائي: دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر وأمر بتفريقه على خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله وكان كثيراً ما يـحدثني فـقال: هـل علمت أول من سن هذه الكتابة في الذهب والفضة ؟ قلت: يا سيدي هـو عـبد الملك بن مروان . قال فما كان السبب في ذلك ؟ قلت لا علم لي غير أنّه أوّل من أحدث هذه الكتابة . فقال سأخبرك[١]:

كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين مـلك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها أباً وابناً وروحاً ، فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك بن مروان فتنبه وكان فطناً فبينما هو ذات يوم إذ مر به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك فأنكره وقال ما أغلظَ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل الأواني والثياب وهما يعملان بمصر وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله ، والبلد يخرج منه هذه القراطيس تدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت بسطر مثبت عليها ، فأمر بـالكتابة إلى عـبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك ، وأن يأمر صناع القراطيس أن يطرزوها بصورة التوحيد و«شهد الله أنّه لا إله إلّا هو» وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب إلى عمال الآفاق جميعاً بـإبطال أعـمالهم مـن القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل .

---

(١) أغفلت كتب التاريخ هذه القصة وكان اغفالها من قبل المؤرخين قد أفقد التراث الإسلامي خزيناً من النظريات الإقتصادية التي عمل أهل البيت عليهم السلام على إيجادها.

فلمّا ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل إلى بلاد الروم منها انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم وترجم له ذلك الطراز فأنكره وغلظ عليه واستشاط غيظاً فكتب إلى عبد الملك ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم، ولم يزل يطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وأن كنت قد أصبت فقد أخطئوا، فأختر من هاتين الحالتين أيهما شئت وأحببت، وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرّز من أصناف الأعلاق حاجة أشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية، وكانت عظيمة القدر فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول وأعلمه أنه لا جواب له وردّ الهدية...

فكتب إليه ملك الروم كتاباً يقتضي أجوبة كتبه ويقول: «إنّك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقللت الهدية فأضعفتها فجريت على سبيلك الأوّل وقد أضعفتها ثالثة وأنا أحلف بالمسيح لتأمرنّ برد الطراز إلى ما كان عليه أولآمرنّ بنقش الدنانير والدراهم، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلاّ ما ينقش في بلادي ـ ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الاسلام ـ فينقش عليها شتم نبيك، فإذا قرأته ارْفَضّ جبينك عرقاً، فأحب أن تقبل هديتي وتردّ الطراز إلى ما كان عليه، ويكون فعل ذلك هدية تودني بها ونبقي على الأولى بيني وبينك» فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه الأمر وغلظ وضاقت به الأرض.. فجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به فقال له روح بن زنباع: إنّك لتعلم المخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه، فقال ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. قال: صدقت ولكنه

أُرتج عليَّ الرأي فيه[١]، فكتب إلى عامله بالمدينة أن أشخص إليّ محمّد بن علي بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة ألف درهم لجهازه وبثلاث مائة ألف درهم لنفقته وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه، وحبس الرسول قبله إلى موافاة محمّد بن علي فلمّا وافاه أخبره الخبر فقال له محمّد رحمه الله تعالى: لا يعظم هذا عليك فإنّه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أن الله عزّوجلّ لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله ﷺ، والأخرى وجود الحيلة فيه. قال وما هي؟ قال: تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التّوحيد وذكر رسول الله ﷺ أحدهما في وجه الدرهم والدينار والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة إلى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من جميع وزن سبعة مثاقيل، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنما هي الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية.. ففعل ذلك عبد الملك، وأمره محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام، وأن يتقدم إلى الناس في التعامل بها، وأن

---

(١) ماذا تعني إشارة روح بن زنباع على عبد الملك وماذا يعني تغافل عبد الملك في بادئ الأمر باشخاص محمّد الباقر (ع) هل هو ارتجاج الرأي عليه كما زعم؟ أم أمر آخر يعلمه عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع والرشيد والكسائي والدميري وجميع من كتب في هذا الأمر وأنت وأنا وكل الأُمّة، وهو محاولة إخفاء فضل آل البيت وعدم محاولة إظهار عظمتهم وإبعادهم حتّى لوداهم الأُمّة أمر مهلك. أليس كذلك؟ أم ماذا؟

يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها، وأن تبطل وترد إلى مواضع العمل حتّى تعاد إلى السكك الإسلامية، ففعل عبد الملك ذلك وردّ رسول ملك الروم إليه بذلك يقول: أنّ الله عزوجلّ مانعك مما قد أردت أن تفعل وقد تقدمت إلى عمالي في أقطار البلاد بكذا وكذا وإبطال السكك والطروز الرومية. فقيل لملك الروم إفعل ما كنت تهددت به ملك العرب، فقال: إنّما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه لأنّي كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم فأمّا الآن فلا أفعل لأنّ ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام. وامتنع من الذي قال وثبت ما أشار به محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام إلى اليوم[1].

لقد عمدت إلى سرد القصة مع ملاحظة إمكان أن يؤخذ منها موضع الحاجة، وذلك للإستفادة منها في ملاحظات:

١ ـ استيلاء الروم على الحياة الاقتصادية طيلة الحكم الإسلامي، وذلك لتعامل المسلمين بالسكة الرومية، واحتكار الروم ضرب السكة الإسلامية، وهي أخطر محاولة استعمارية إقتصادية يستطيع الروم التحكم بالمسلمين وابتزازهم، لولا الأخذ باراء الإمام الباقر وإنقاذ الأُمّة الإسلامية من الورطة الاقتصادية التي وقعت فيها.

٢ ـ استشارة الأمويين، آل البيت في الخطوب المدلهمة التي تأخذ بخناقهم، وتظهر عجزهم في الداخل والخارج، والاستنجاد بأراء آل البيت عليهم السلام، هذا من جانب، ومن جانب آخر، أخذ آل البيت عليهم السلام على عاتقهم تقديم الحلول والصيغ المناسبة التي تنقذ ماء وجه الخليفة الإسلامي أمام الدول الكبرى إبقاءً على عِزةِ

(١) حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري ١: ٩٠ وما بعدها طبع ثانية مطبعة مهر قم / ١٣٦٤ هش.

الإسلام ورفعته، على الرغم من عدم اعترافهم بمشروعية هؤلاء الخلفاء، حفاظاً على بيضة الإسلام وشرفه من أن تدنسه الأيدي المشركة من اليهود والنصارى، وللمحافظة على وحدة البلدان الإسلامية، فينطلق آل البيت عليهم السلام من المصلحة الإسلامية العامة للتعامل مع الأمويين وغيرهم.

٣ ـ أحس الأمويون بالحاجة الماسة إلى آراء آل البيت عليهم السلام، لكنهم شعروا بالانتقاص لملكهم والطعن في مشروعية استيلائهم على الخلافة مع وجود من هو أفضل منهم ومع تغاضيهم عن هذا الأمر يفزعون إلى آل البيت ويطلبون النجدة بأرائهم الحكيمة الصائبة.

٤ ـ ينطبق على عبد الملك بن مروان وأمثاله من الأمويين وغيرهم قول النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**من ولي عملاً وهو يعلم أنّه ليس لذلك العمل أهلاً فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

٥ ـ ينطبق على الإمام الباقر القول المشهور عن صفة الإمام: استغناؤُهُ عن الكل وحاجة الكل إليه، دليلٌ على أنّه إمام الكل.

---

(١) كنز العمال ٦: ٣٨ مؤسسة الرسالة / ١٩٨١.

خامساً ـ جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام

قال عنه ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة:

جعفر الصادق ومن ثمّ كان خليفته ووصيه ـ أي خليفة ووصي محمّد الباقر ـ ونقل النّاس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان. وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعد وابن جريج ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني[1].

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ: جعفر بن محمّد بن علي بن الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي. الإمام أبو عبد الله العلوي المدني الصادق أحد السادة والأعلام.. (وروى) عنه مالك والسفيانان وحاتم بن إسماعيل ويحيى القطان وأبو عاصم النبيل وخلق كثير.. وثقّة الشافعي ويحيى بن معين. وعن أبي حنيفة قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد. وقال أبو حاتم: ثقة لا يسئل عن مثله. وعن صالح بن أبي الأسود سمعت جعفر بن محمّد يقول سلوني قبل أن تفقدوني فإنّه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. وقال هياج بن بسطام: كان جعفر الصادق يطعم حتّى لا يبقي لعياله شيء[2].

وروى الشعراني في طبقاته الكبرى: دخل عليه الثوري عليه السلام فرأى عليه جبة

(١) الصواعق المحرقة لأبن حجر الهيثمي: ص٢٠١ مكتبة القاهرة مصر.
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١: ١٦٦.

من خز فقال له: إنكم من بيت نبوة تلبسون هذا؟ فقال ما تدرى؟ أدخل يدك! فإذا تحته مسح من شعر خشن، ثمّ قال: يا ثوري أرني ما تحت جبتك، فوجد تحتها قميصاً أرقّ من بياض البيض! فخجل سفيان.. قال: وكان ـ أي الصادق يلبس الجبة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده والحلة من الخز على ظاهره، ويقول: نلبس الجبة لله والخز لكم، فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه[١]..

وعن عمرو بن أبي المقدام قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمّد علمت أنّه من سلالة النبيين[٢].

وقال الذهبي في الكاشف عند ترجمته للإمام جعفر بن محمّد الصّادق:

[ويروي] عنه شعبة والقطان، وقال في نفسي منه شيء..

وقال ابن معين: ثقة..

وقال أبو حنيفة: ما رأيت أفقه منه وقد دخلني له من الهيبة مالم يدخلني للمنصور[٣].

وقال في تذكرة الحفاظ أيضاً: لم يحتجّ به البخاري، واحتجّ به سائر الأُمّة[٤].

لقد حرص الفقهاء على سلامة تلقي العلم عن طرقه الطبيعية وعنوا بأهمها وهي الخبر الواحد فوضعوا من أجل ذلك أدقّ الطرق وأتقن السبل من أجل حصول المتلقي على ما يضمن له من صحة الخبر وسلامته عن الوضع

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١: ٣٢ دار الفكر بيروت.
(٢) صفوة الصفوه لأبن الجوزي ٢: ١٦٨.
(٣) الكاشف للذهبي ١: ١٨٦ دار النصر للطباعة القاهرة ط١ ١٩٧٢.
(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ١: ١٦٧ دار احياء التراث العربي.

والتحريف، وأكد الإسلام على تلقي هذه الأخبار، كما أكد كذلك على سلامة إنسيابية المعلومات للأجيال الإسلامية القادمة وبما يضمن صحتها وسلامتها من الزيادة والنقصان، هذا وقد اهتم السلف من الفريقين بقواعد علمية عند الأخذ بالحديث أو طرحه، وذلك بتوثيق الراوي أو تضعيفه، اعتماداً على صدقه أو كذبه، واستناداً إلى عدالته وفسقه، وقد تحرّج السلف في التعديل والتجريح، فهم لن يضعّفوا راوياً إلّا إذا ثبت دليل فسقه، ولم يأخذوا بروايته إلّا إذا تأكدت لديهم وثاقته وعدالته، وكان الأخذ بالرواية أمانة دينية فضلاً عن كونها أمانة علمية يشعر بها المحدث والفقيه والراوي، وهم بقدر ما يتحرجون بالأخذ في الرواية مالم تثبت صحتها، كذلك يتحرجون في طرح الرواية إذا لم يكن مايشهد على فسق الراوي وضعفه، فالتوقف عن الراوي دون دليل على فسقه تفريطٌ بالموروث النبوي الشريف لا ينبغي للمحدث ارتكابه فضلاً عن أهل الصحاح من الرواة الذين تأسست على مبتنياتهم الروائية مذاهب إسلامية ومدارس كلامية تدعوا إلى الإصلاح ونبذ الفرقة بين المسلمين وتعظيم السلف من العلماء وأهل الحديث.

لقد اتبع السلف طرقاً للوصول إلى معرفة فكر الطرف الآخر، وكان الحوار العلمي يأنس به كلا الفريقين للوصول إلى المعرفة الحقة، وامتاز الفقهاء وأهل الحديث أن يتتلمذوا على يد أئمة لا يشاركوهم في نفس الرؤية الفكرية أو يختلفون معهم في أصول فقهية كثيرة، وحرصوا على حضور مجالسهم والسؤال عن مسائل خفيت عليهم فينقطعون إليهم، ثمّ هم يثنون عليهم ثناء تقديس ومدحة تبجيل، ويعترفون أن كل ما لديهم هو من عطاء هذا الإمام أو ذاك الفقيه، وقد مثّلت الفترة الزمنية للإمام الصّادقعليه السلام حقبة علمية رشيدة، وفترة ناضجة كان

فيها العلماء من مختلف المذاهب الإسلامية يفدون على مجلسه، ويرتشفون من عذب منهله، ويروون عنه وهم يذكرونه بأعظم الصفات وأحسن النعوت، الامن شذ من الرواة الذين كابروا في رواية الحديث عنه لأسباب نرغب عن ذكرها ونترفع عن سرد بعضها. إننا من أجل تقديم تراثٍ نبوي صحيح، أو من أجل قراءة تاريخية موضوعية، علينا أن نسعى جاهدين إلى جمع تراث الفكر الإسلامي، وذلك من خلال تحديد مهمة العالم، والكاتب، والمؤرخ في رفد المشروع الحضاري الإسلامي، والبحث عن سبل إنجاح أي جهدٍ تثقيفي يوصل الأُمّة إلى معرفة ذاتها وأن لا يضيق صدرنا من فكر الطرف المقابل، بل نتعامل معه بما تقتضيه آداب البحث الموضوعي وحُسن الحوار العلمي، وأن نتأدب بما تأدب به السلف من علمائنا ورواتنا.

أن تراجعاً ملحوظاً في سلوكيتنا العلمية ستسجلها علينا الأجيال بانّها انتكاسة في البحث العلمي نرتكبه دون تحرج أو تروّي، وستؤول جميع جهودنا العلمية إلى تسابق عاطفي يُعبّر عن مكنونات نفوسنا الشخصية وما تحمله قلوبنا من حب أو بغض لهذا الطرف أو ذاك.

ولعل ما ارتكبه البخاري وهو على عظمته كأحد علماء الحديث، زهدً في الرواية عن جعفر بن محمّد الصادق بعد ما احتجت به سائر الأُمّة ـ حسب تعبير الذهبي ـ وكذا بل أكثر بشاعة، إساءة القطان وهو يتحدث عن الصادقعليه السلام فيقول: في نفسي منه شيء! انهما موقفان يعبران حقّاً عن خيبة أمل حقيقية تصاب بها أجيالنا المتطلعة إلى مستقبل بحث علمي موضوعي من أن يصل إلى ما وصلت إليه البحوث العلمية الحديثة فضلاً عما ترفع عنه السلف من سفاسف الأمور ومحقراتها فقد انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام الصادق طوال عامين قضاهما

بالمدينة وفيهما يقول «لولا العامان لهلك النعمان» وكان لا يخاطب صاحب المجلس ـ الإمام الصّادق ـ إلّا بقوله «جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله» ولقد يتحدى الإمام الصّادق في مجلسه أبا حنيفة ليختبر رأي صاحب الرأي فيسأل: ما تقول في محرم كسر رباعية الظبي ؟ ويجيب أبو حنيفة يا ابن رسول الله لا أعلم ما فيه . .

فيقول له الصادقعليه السلام مندهشاً الا تعلم أن الظبي لا رباعية له[١] ؟ !

ولما استفتي أبو حنيفة في رجل أوصى «للإمام» بإطلاق الوصف ، قال: إنّها لجعفر بن محمّد . فهذا إعلان لتفرده بالإمامة في عصره[٢] .

يقول مالك بن أنس: كنت أرى جعفر بن محمّد وكان كثير الدعابة والتبسم . فإذا ذكر عنده النّبيّصلى الله عليه وآله وسلم أخضر واصفر . ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إمّا مصلياً وإمّا قائماً وإمّا يقرأ القرآن ، وما رأيته يحدث عن رسول الله الاعلى الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعبادوالزهاد الذين يخشون الله ، وما رأيته قط إلّا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتي .

وفي مقولة أُخرى يضيف مالك: وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد ، إذا قال (قال رسول الله) اخضرّ مرة وأصفرّ أُخرى حتّى ينكره من يعرفه . ولقد حججت معه سنة فلمّا استوت به راحلته عند الإحرام كلما هم بالتلبية انقطع الصوت في حلقه وكاد أن يخرّ عن راحلته ، فقلت: يا بن رسول أو لابد لك أن تقول . قال: كيف أجرؤ أن أقول لبيك وأخشى أن يقول الله عزّوجلّ لا لبيك ولا سعديك .

---

(١) حياة الحيوان الدميري، مادة (ظبي).

(٢) الامام جعفر الصادق / عبدالحليم الجندي : ١٥٨.

وإننا لنذكر ما كان يصنعه جده زين العابدين في هذا المقام..

.. ولقد يدخل الإمام المسجد، فيقدم إليه تلميذ من تلاميذه ابن أبي ليلى قاضي الكوفة فيقول الإمام: أنت ابن أبي ليلى القاضي؟ ويجيب نعم. فيتبعه الإمام على جلال خطر القضاء بقوله: تأخذ مال هذا وتعطيه هذا، وتفرّق بين المرء وزوجه لا تخاف في ذلك أحداً.. فما تقول إذا جيء بأرض من فضة وسماء من فضة، ثمّ أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدي ربك فقال: يا ربي هذا قضى بغير ما قضيت.

واصفرّ وجه ابن أبي ليلى مثل الزعفران لكنّه خرج من المسجد مزوداً بزاد من خشية الله زوّده به ابن رسول الله.

ولمّا سئل مرة: أكنت تاركاً قولاً أو قضاء لرأي أحد؟ أجاب: لا. الا لرجل واحد. وهو جعفر بن محمّد الصادق. وابن أبي ليلى قاضي بني اُمّية وبني العبّاس. وهم أعداء الإمام.

.. في إحدى أسفار الإمام جعفر إلى العراق دخل أئمة الكوفة مجتمعين: أبو حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة على الإمام جعفر. فجعل الصادق ينبه أبا حنيفة مكتشف أداة القياس على خطرها في حضور العالمين الآخرين، وفي مواجهة هذين يقول الإمام الصّادق لأبي حنيفة: إتقِّ الله ولا تقس الدين برأيك.. والحسن بن زياد اللؤلؤي يعلن رأي صاحبه في إحاطة الإمام الصّادق فيقول: سمعت أبا حنيفة وقد سئل من أفقه النّاس ممّن رأيت فقال: جعفر بن محمّد..

وهذا عمرو بن عبيد إمام المعتزلة يتكلم مع الإمام، فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام: هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم.

ويجيىء عبد الله بن المبارك وهو إمام خراسان في الفقه فيقول في مدح الإمام.

أنت يا جعفر فوق الـ ... مدح والمدح عناء

إنّما الأشراف أرض ... ولهم أنت سماء

جاز حد المدح من ... قد ولدته الأنبياء

وإذا جاءه المناظرون من كل فج عميق أو التلاميذ الفقهاء يمثلون أقطار الإسلام ويجادلون في الأصول أو الفروع فهو البحر لا تنزفه الدلاء. يروي العقول ويشفي الصدور. فالديصاني، زعيم فرقة ملحدة وصاحب الإهليلجة طبيب هندي، وعبد الكريم بن أبي العوجاء عربي ملحد، وعبد الملك مصري يتزندق، وعمرو بن عبيد شيخ المعتزلة، وأبو حنيفة إمام الكوفة، ومالك إمام المدينة، وسفيان الثوري، وغيرهم كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب ولا يضيق صدراً بجدالهم بل يضرب الأمثال بمسلكه معهم وإتساع صدره لهم.. يقول ابن المقفع وهو متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل إذ يومىء إلى الصادق في موضع الطواف: هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلّا ذلك الشيخ الجالس.

ويذهب ابن أبي العوجاء ليناظره فتعتريه سكتة. فيسأله الإمام: ما يمنعك من الكلام؟ فيقول إجلالا لك، ومهابة منك، وما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلني من هيبة أحد منهم ما تداخلني من هيبتك[1].

هذا ما كان من حال أئمة الحديث والمذاهب مع الإمام، فلنختر بأيهم نقتدي ومثل مَنْ نكون، فهل يصح لنا بعد ذلك أن لا نحتج به أو يكون في نفوسنا منه

(١) مقتطفة من كتاب الإمام جعفر الصّادق للمستشار عبد الحليم الجندي: ص١٥٨ وما بعدها. القاهرة / ١٩٧٧.

شيء ؟!

ان مقولة كمقولة ابن قطان كاشفة عن مرض في نـفس صـاحبها، لا غـير، وليست قادحة في شريف أهل زمانه وسيدهم..

سادساً ـ موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

وهو الإمام السّابع من أئمة آل البيت عليهم السلام، تقول به الإمامية وتعتقده بالنص عليه، وصيُّ أبيه وخليفته، سيداً كريماً عابداً جليلاً، كذا روته كتب السير والتأريخ، وأقرت بذلك صحاح السنة بطرقها الصحيحة الصريحة، ووصفته بأكرم الصفات وأحسن الفضائل، ونقلت طرفاً من سيرته ومكارم أخلاقه وعلمه وعبادته ما لا تكون إلّا عند أوصياء الأنبياء، قال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة:

موسى الكاظم وهو وارثه ـ أي الصّادق ـ علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً سمّي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم. قال: ومن بديع كراماته ما حكاه ابن الجوزي والرامهرمزي وغيرهما عن شقيق البلخي:

أنّه خرج حاجاً سنة تسع وأربعين ومائة فرآه بالقادسية منفرداً عن الناس فقال في نفسه هذا فتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على النّاس: لأمضين إليه ولأوبخنه، فمضى إليه فقال: يا شقيق اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، الآية، فأراد أن يُحالِلَهُ فغاب عن عينيه فما رآه إلّا بواقصة يصلي وأعضاؤه تظطرب ودموعه تتحادر فجاء إليه ليعتذر فخفف في صلاته وقال: وإنّي لغفار لمن تاب وآمن، الآية، فلما نزلوا زُماله رآه على بئر فسقطت ركوته فيها فدعا

فطغى الماء له حتّى أخذها فتوضأ وصلى أربع ركعات، ثمّ مال إلى كثيب رمل فطرح منه فيها وشرب، فقال له أطعمني من فضل ما رزقك الله تعالى: فقال: يا شقيق لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنك بربك، فناولنيها فشربت منها، فإذا سويق وسكر ما شربت والله ألذ منه ولا أطيب ريحاً فشبعت ورويت، وأقمت أياماً لا أشتهي شراباً ولا طعاماً، ثمّ لم أره إلّا بمكة وهو بغلمان وحاشية وأمور على خلاف ما كان عليه بالطريق[١]..

وقال له الرشيد حين رآه جالساً عند الكعبة: أنت الذي تبايعك النّاس سراً؟ فقال أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم[٢].

وترجمه الشعراني في طبقاته الكبرى: موسى الكاظم ﷺ: أحد الأئمة الأثني عشر وهو ابن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ أجمعين.. وكان يكنّى بالعبد الصالح لكثرة عبادته واجتهاده وقيامه بالليل، وكان إذا بلغه عن أُحد أنّه يؤذيه يبعث إليه بمال. فلمّا قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفي مسموماً ﷺ[٣].

وفي صفة الصفوة قال ابن الجوزي: موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي أبو الحسن الهاشمي عليه السلام. كان يدعى العبد الصالح لأجل عبادته واجتهاده وقيامه بالليل. وكان كريماً حليماً إذا بلغه عن رجل أنه يؤذيه يبعث إليه بمال[٤].

---

(١) الصواعق المحرقة لأبن حجر الهيثمي: ص٢٠٣. كذا أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ١: ١٨٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني: ح ١، ص٣٨.

(٤) صفة الصفوه ١: ١٨٥.

وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي قال: كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته وإجتهاده. روى أصحابنا أنّه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسجد سجدة في أوّل الليل وسمع وهو يقول في سجوده: عظُمَ الذنب عندي فليحسن العفو عندك، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة، فجعل يرددها حتّى أصبح. وكان سخياً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار، وكان يصر الصرر ثلاثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتي دينار، ثمّ يقسمها بالمدينة. وكان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان صرة فقد استغنى.

أخبرنا القاضي أبو العلاء محمّد بن علي الواسطي، حدثنا عمر بن أحمد الواعظ عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال: حج هارون الرشيد فأتى قبر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم زائراً وحوله قريش وأفياء القبائل ومعه موسى بن جعفر، فلّما انتهى إلى القبر قال: السلام عليك يا رسول الله يا بن عمي. افتخاراً على من حوله، فدنا موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبه. فتغير وجه هارون وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً[١].

وأورد ابن حجر في الصواعق المحرقة هذه القصة وزاد عليها: فقال الكاظم: السلام عليك يا أبت، فلم يحتملها الرشيد، وكانت سبباً لإمساكه له وحمله معه إلى بغداد وحبسه، فلم يخرج من حبسه إلّا ميتاً مقيداً[٢]..

في العصر العباسي هذا، لم يكن هناك توازن بين نظرة الأُمّة لآل البيت وبين نظرتها للنظام الحاكم، فقد كان هناك تخلخلاً ملحوظاً في النظرة القائمة بين العامة

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣: ٢٧، دار أحياء الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) الصواعق المحرقة للهيثمي: ص ٢٠٤.

وبين النظام الذي قدّم أُطروحة «النّسب والخلافة الإلٰهية» حيث قامت المعارضة العباسية إبّان العهد الأموي على أن العباسيين هم الأولى من غيرهم بالخلافة للقرب النسبي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، ورُفعت شعارات النسب هذه فكانت لها آثار ملحوظة على صعيد العلاقة بين المعارضة العباسية وبين الأمّة ، التي قارنت بينها وبين بني أُمّية فأعطت الأولوية للبيت العباسي القريب بنسبه لرسول الله ﷺ ، ونجحت إلى حدٍ ما إطروحة النسب في الفترة الأولى للحكم العباسي ، وكان العباسيون قد استعملوا اسلوب المزج بين رؤيتين للحصول على رؤية واحدة يتقدمون فيها لاحياء مشاريعهم سواء تلك الداعية لمعارضة الأمويين ، أو الداخلة ضمن هيكلة سياساتهم ، فقد حاولوا المزج بينهم وبين العلويين وقربهم لرسول الله ﷺ ، فحصلوا على دفعة من التأييد الشعبي وقوى المعارضة المسلحة الأُخرى ، مهدت لهم سبل المعارضة السياسية والفكرية ضد الأمويين ، وأنهت الصراع بعد ذلك لصالحهم ، فلّما تمكنوا من الحكم اقتضت السياسة أن تكون العلاقة المصيرية والفكرية بينهم وبين العلويين علاقة رسمية سطحية ، فلما توغلوا في تثبيت أركان دولتهم فُرِضتْ أُطروحات جديدة على الواقع السياسي ، وهي تحويل هذه العلاقة الرسمية إلى علاقة معارضة فكرية بينهم وبين العلويين ، وذلك بعد ما رأوا أن أُطروحة «النسب والخلافة الإلٰهية» تتجه لصالح العلويين ، وغدت الأُمّة تحدد علاقتها بين البيتين على أساس السلوكية الحياتية والمنهجية الفكرية لقيادتيهما ، وتوجهت طموحات الأمّة لآل البيت ، فتعاملوا معهم على أنّهم أهل الوحي وحملة الكتاب ، وتحددت العلاقة بين الأُمّة وبين العباسيين على أنّهم رموزٌ لسياسة حكم قائمة ضمن الأطروحات السياسية الأُخرى ، وتفاقمت هذه الأزمة ، وخشيت السلطة العباسية من استفحال الأمر بعدما أحست بالعزلة الشعبية وعلى كل المستويات ، فراحت تعالج الأمر بالرد

السلبي المعاكس ، وانتهجت سياسة جديدة فرّطت فيما بعد بشعاراتها القائمة على إسترداد حقوق آل علي المهضومة ، وإعطاء الأمر للأحق به وهم آل البيت ، فعكفت على سياسة «تغييب الأشخاص» وذلك بزج قيادات آل البيت في السجون فترات تقصر وتطول تبعاً للمنهجية التي يتخذها الخليفة أو ما يفرضه الظرف السياسي القائم ، وكان الإحباط في السياسات الاقتصادية أو الاجتماعية للخليفة ، يوحي له بوجود قيادة شرعية قائمة في أذهان الأُمّة تنبّهها على الانحرافات المرتكبة من قبل النظام ، وتحفزّها ولو على المدى البعيد للثورة على كل توجهٍ يتعارض مع المفهوم الاسلامي الأصيل ، علماً أن هذه القيادات العلوية لم تكن مبسوطة اليد فضلاً عن الطوق الأمني المضروب على تحركاتها ، إلّا أنّ وجودها هكذا فقط دون بذل أي جهد معارضٍ للنظام يُحفّز الأُمّة على تقديم البديل الإلٰهي في كل توجهاتها ، وكان أوّل من اتبع سياسة تغييب الأشخاص الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي زج بالإمام الكاظم عليه السلام في سجنٍ بلغت مدته أربعة عشر عاماً على بعض الروايات ، وحاول الرشيد عزل الإمام عن قواعده الجماهيرية ، وضاقت الطبقات العريضة من الأُمّة ذرعاً بهذه السياسة ، وقد وصف الخطيب البغدادي الحياة اليومية للإمام وهو في سجن السلطة بما أربك النظرة التقليدية لحاشية النظام فاتخذ على اثر ذلك تدبيراً بتصفيته والتخلص من مضاعفات بقائه ، حيث قال الخطيب البغدادي: إن أبا الحسن موسى بن جعفر حبس عند السندي فسألته أخته أن تتولى حبسه وكانت تتدين ففعل ، فكانت تلي خدمته ، فحكى أنها قالت: كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجّده ودعاه فلم يزل كذلك حتى يزول الليل ، فإذا زال الليل قام يصلي الصبح ، ثمّ يذكر في القبلة حتّى يصلي المغرب ، ثمّ يصلي ما بين المغرب والعتمة فكان هذا دأبه فكانت أخت السندي إذا نظرت إليه قالت: خاب قوم تعرضوا لهذا الرجل ، وكان عبداً

صالحاً[1].

وكانت السلطة قد دّعمت سياسة التغييب هذه، بسياسة «التغييب الفكري» حيث أبعدت عن دوائرها التثقيفية أي فكرٍ يرجع أصله إلى أئمة آل البيت، أو حالتْ دون وصول رواياتهم بحجةٍ أو بأُخرى، فقد ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال عند ترجمته لموسى بن جعفر مانصه:

موسى بن جعفر بن محمّد بن علي العلوي الملقب بالكاظم. قال ابن أبي حاتم: صدوق إمام. وقال أبوه أبو حاتم الرازي: ثقة إمام. قلت: روى عنه بنوه، علي الرضا وإبراهيم وإسماعيل وحسين، وأخواه علي ومحمّد. وإنّما أوردته لأنّ العقيلي ذكره في كتابه وقال: حديثه غير محفوظ، يعني في الإيمان، قال: الحمل فيه على أبي الصلت الهروي. قلت: فإذا كان الحمل فيه على أبي الصلت فما ذنب موسى تذكره[2].

ولعلنا سنجد الكثير من هذا التغييب الفكري إذا ما أرادنا أن نسبر غور هكذا دراسات وعلى طول مراحل التاريخ.

فقد أحالت برامج «التغييب الفكري» أكثر المشاريع التاريخية المتورطة فيها إلى محاولات بائسة توجّس الكاتب من خلالها هزيمة محتومة، فمن جهته يحاول أن يشارك في المشروع التاريخي الاسلامي الذي يفرض عليه ذكر حقائق تاريخية لا يمكن نكرانها، ومن جهة أُخرى تدفعه برامج التغييب الفكري إلى تقديم القضية التاريخية مضطربة مرتبكة ليخفى من وراءها حقائق لا تتيح له توجهاته الالتزام بها، مما أفقده كثيراً من موضوعيته، وبدت مشاريعه متهافتة،

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣: ٣١.

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي ٤: ٢٠١ دار المعرفة بيروت.

فكيف يوفق بين الحقيقة التاريخية بما هي حقيقة مجردة، وبين خطه المحافظ والذي يلتزم طموحات سياسية معينة ؟

ولغرض إبداء صورة واضحة عن هذه الانماط التثقيفية المؤسفة، سنستعرض محاولتين لم يوفق فيهما الذهبي لتنفيذ مثل هذه الصيغ والأساليب:

١ ـ قال الذهبي مؤرخاً حوادث ووفيات سنة ثلاث وثمانين ومائة، ففي معرض تأريخه للامام الكاظمعليه السلام قال: وقال النسابة يحي بن جعفر العلوي المدني، وكان موجوداً بعد الثلاثمائة:

كان موسى يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده، وكان سخياً، يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها الألف دينار. وكان يصرر الصرر مائتي دينار وأكثر ويرسل بها. فمن جاءته صرة استغنى.

قلت [الكلام للذهبي]: هذا يدل على كثرة اعطاء الخلفاء العباسيين له. ولعل الرشيد ماحبسه إلّا لقولته تلك: السلام عليك يا أبَةْ. فان الخلفاء لا يحتملون مثل هذا[1].

فلم يكن للذهبي وهو يؤرخ حوادث هذه السنة أن يخفي فضل موسى بن جعفرعليه السلام، ولا يستطيع أن يتنكر لشخصية قد احتلت مساحة واسعة من «الخارطة التاريخية» التي يسبر غورها.

واذا كان كذلك فكيف يستطيع المؤرخ أن يوفّق بين هذه الحقيقة وبين مهمته «التبريرية» في ترك ابواب الاعتذار مفتوحة للسلطان ماوجد إلى ذلك سبيلاً ؟

---

(١) تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام للذهبي حوادث ووفيات ١٨١ ـ ١٩٠ هـ دار الكتاب العربي ط ١، ١٩٩٠.

ذيّل الذهبي خبر يحي بن جعفر العلوي، بأن هذه المكرمة للامام موسى بن جعفر إنّما كانت جهداً عباسياً خالصاً، وأن ما يقدمهُ الأئمة انما هو «تفضل» من عطاء الخلفاء الذين اضحوا يحرصون على كرامة أبناء عمومتهم العلويين، فليس بينهم وبين آل علي إلّا كل فضلٍ ومعروف، وماحدث من تقتيل وتنكيل انما هو من مقتضيات الخلافة التي تأبى هيبتها السكوت أو التسامح مع أية معارضة فكرية أو سياسية، فللخليفة حق التنكيل بمعارضيه، وما يفعله بموسى بن جعفر هو مجرد «تأديب» تقتضيه حكمة الخليفة وورعه، فلا ضير من تصرفات الرشيد وقد أراد أن ينفّذ هيبة السلطان في من تعرض اليه حتى بمجرّد التذكير بالحقيقة بما هي حقيقة..

٢ ـ قال الذهبي في تاريخ الاسلام:

حج الرشيد فحمل معه موسى من المدينة إلى بغداد، وحبسه إلى أن توفي، غير مضيّق عليه[١].

قال الذهبي: بلغنا أنه بعث موسى بن جعفر إلى الرشيد من الحبس رسالة، كانت: انه لن ينقضي عني يوم من البلاء، إلاّ انقضى منك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون[٢].

قدّم الذهبي خبر حبس الامام عليه السلام من قبل الرشيد على أنه رحلة ممتعة صاحبه فيها الرشيد إلى بغداد، وكلمة «حَبسهُ» لا تعني أكثر من «تكليف شرعي» قام به

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه. والخطيب الغدادي روى الخبر عن الجوهري عن محمد بن عمران المرزباني عن عبدالواحد بن محمد الخصيبي عن محمد بن اسماعيل. انظر تاريخ بغداد ١٣: ٣٢ دار الكتب العلمية بيروت.

«الخليفة الشرعي» لتأديب العامة، أو مهمة أمنية تقتضيها سلامة البلدان الاسلامية وهيبة الخلافة، وعبارة «غير مضيّق عليه» مع كلمة «حبسه» لا تعطي أكثر من هذه الدلالة، وإلّا ما الذي يعني تذييل الخبر بأنه غير مضيّق عليه؟ وما وجه المناسبة بين الحبس وعدم التضييق، أليس التضييق من مستلزمات الحبس؟ وهل يباح للذهبي هذا التذييل بعد خبره الذي أورده من رسالة الامامعليه السلام للرشيد وقد بثَّ فيها شكواه بعد ما عانى من مرارة الحبس والحرمان ليقول له لن ينقضي عني يوم من البلاء إلّا انقضى منك معه يوم من الرخاء، وأي بلاء هذا وقد ذكر الذهبي أنه «غير مضيق عليه»؟

وإذا قرأنا خبر وفاة الامام عليه السلام ومحاولات الذهبي وأمثاله، ستنكشف لنا حقيقة مهمة، وهي أن الاطروحات المضادة لآل البيت عليهم السلام لم تهتم بالتصفيات الجسدية بقدر اهتمامها بالتصفيات الفكرية وفق ما تبتناه من أُطروحات التغييب.

«وكان موس الكاظم في القبة التي أرسل بها إلى طريق البصرة وأوصى القوم الذين كانوا معه أن يسلموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور وكان على البصرة والياً يومئذ فسلموه إليه فتسلمه منهم وحبسه عنده سنة، فبعد السنة كتب إليه الرشيد في سفك دمه واراحته منه، فاستدعى عيسى بن جعفر بعض إخوانه وثقاته اللائذين به والناصحين له، فاستشارهم بعد أن أراهم ماكتب به إليه الرشيد فنصحوه ونهوه عن ذلك، فأرسل إلى الرشيد يقول يا أمير المؤمنين كتبت إليّ في هذا الرجل وقد اختبرته طول مقامه في حبسي بمن حبسته معه عيناً عليه لينظر دخلَتَهُ وأمره وطويته ممن له المعرفة والدراية، ويجري من الانسان مجرى الدم، فلم يكن عنده تطلّع إلى ولاية، ولا خروج ولا شيء من أمر الدنيا ولا قط دعا على

أمير المؤمنين ولا على أحد من الناس ، ولا يدعو إلاّ بالمغفرة والرحمة له ولجماعة المسلمين ، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة ، فان رآى أمير المؤمنين أن يعفيني من أمره أو يأمر بتسليمه مني لأحد ، وإلاّ سرّحت سبيله فاني منه في غاية الحرج .

فلما بلغ الرشيد كتاب عيسى بن جعفر كتب إلى السندي بن شاهك أن يتسلم موسى بن جعفر الكاظم من عيسى وأمره فيه بأمره ، فكان السندي هو الذي تولى قتله ، إذ جعل له سماً في طعام وقدمه إليه ، وقيل في رطب فأكل منه موسى ثم انه أقام موعوكاً ثلاثة أيام ومات . ولما مات موسى أدخل السندي بن شاهك الفقهاء ووجوه أهل بغداد وفيهم الهيثم بن عدي وغيره ينظرون إليه أنه ليس به أثر من جراح ولا خنق ولا فعل ، وانه مات حتف انفه[١] .

واذا كانت محاولات السندي بن شاهك في إخفاء الحقائق بهذا الحجم المحدود ، فان مشاريع التغييب الفكري قد تعهدت تغييب حقائق التاريخ على المدى البعيد ، وبجرأةٍ لا يمنعها دين ولا تصدها مبادىء وأخلاق .

---

(١) الاتحاف بحب الاشراف للشبراوي: ١٥١ المطبعة الادبية بمصر.

سابعاً ـ علي بن موسى الرّضاعليه السلام

هو الثامن من أئمة آل البيتعليهم السلام ، كان أعلم أهل زمانه ، وأفضلهم شرفاً وسؤدداً ، كانت إمامته في فترة يعيش فيها النّظام العباسي منعطفاً خطيراً في حياته السياسية ، فضلاً عن تحولاته الفكرية التي قادها المأمون العباسي خروجاً عن ما ألفهُ النظام من عدائه التقليدي الموروث لآل البيتعليهم السلام ، حيث عمل على إحباط مشاريع فكرية أسسها أباؤه من قبل ، ودرج عليها سلفه فيما بعد حتى عدّوه شعاراً لبني العباس في محاولةٍ لتمييع فكر آل البيت باستبعاد أئمته عن الحياة السياسية فضلاً عن الهجوم المبرمج على مبتنياتهم العقائدية والفكرية.

وسنوافيك لاحقاً عن هذه التحولات العباسية في مبحث ولاية العهد إن شاء الله تعالى.

أرّخ للإمام الرضاعليه السلام ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة بقوله:

علي الرضا وهو أنبههم ذكراً وأجلهم قدراً. ومن ثم أحله المأمون محل مهجته وأنكحه ابنته وأشركه في مملكته وفوض إليه أمر الخلافة ، قال: وروى الحاكم عن محمّد بن عيسى عن أبي حبيب قال: رأيت النبيصلى الله عليه وآله وسلم في المنام في المنزل الذي ينزل الحجاج ببلدنا فسلمتُ عليه ، فوجدت عنده طبقاً من خوص المدينة فيه تمر صيحاني فناولني منه ثماني عشرة فتأولت أن أعيش عدتها ، فلما كان بعد عشرين يوماً قدم أبو الحسن علي الرضا من المدينة ، ونزل ذلك المسجد

وهرع الناس بالسلام عليه فمضيت نحوه ، فإذا هو جالس في الموضع الذي رأيت النّبيّ ﷺ جالساً فيه ، وبين يديه طبق من خوص المدينة فيه تمر صيحاني ، فسلمت عليه فاستدناني وناولني قبضة من ذلك التمر ، فإذا عدتها بعدد ما ناولني النّبيّ ﷺ في النوم ، فقلت زدني فقال: لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك[١].

وقد كان له في نفوس المسلمين منزلة كبيرة ، وأثر عظيم ، حتّى دفع علماء المذاهب المختلفة إلى الأخذ منه والتزود بحديثه ، روى ابن حجر الهيثمي أنّه: لما دخل ـ الرضا ـ نيسابور ، كما في تاريخها ، وشقّ سوقها وعليه مظلة لا يرى من ورائها ، تعرّض له الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمّد بن أسلم الطوسي ، ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى ، فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروي لهم حديثاً عن آبائه فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكف المظلة ، وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة ، فكانت له ذؤابتان متدليتان على عاتقه والناس بين صارخ وباك ومتمرغ في التراب ومقبّل لحافر بغلته فصاحت العلماء: معاشر النّاس أنصتوا ، فأنصتوا ، واستملى منه الحافظان المذكوران فقال: «حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصّادق عن أبيه محمّد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب ﵇ قال: حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله ﷺ قال: حدثني جبريل قال: سمعتُ رب العزة يقول لا إله إلّا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» ثمّ أرخى الستر وسار فعد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً.. قال أحمد: لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته[٢]..

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي: ص ٢٠٤.
(٢) المصدر السابق.

وفي جامع كرامات الأولياء قال النبهاني:

علي الرّضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: أحد أكابر الأئمة ومصابيح الأمّة، من أهل بيت النبوة ومعادن العلم والعرفان والكرم والفتوة، كان عظيم القدر مشهور الذكر. وله كرامات كثيرة.. قال الشيخ عبد الشبراوي في كتابه «الاتحاف بحب الأشراف» في ترجمة علي الرّضا عليه السلام: وكانت مناقبه عليّه وصفاته سنية ونفسه الشريفة هاشمية، وأرومته الكريمة نبوية، وكراماته أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر منها: أنّه لما جعله المأمون ولي عهده من بعده كان من حاشية المأمون أناس قد كرهوا ذلك وخافوا من خروج الخلافة عن بني العبّاس وعودها إلى بني فاطمة، فحصل عندهم من علي الرّضا بن موسى الكاظم نفور، وكان عادة الرضا إذا جاء إلى دار المأمون ليدخل عليه بادر من في الدهليز من الحُجّاب وأهل النوبة من الخدم والحشم بالقيام له والسلام عليه، ويرفعون له الستور حتّى يدخل، فلمّا حصل لهم هذه النفرة وتفاوضوا في أمر هذه القضية ودخل في قلوبهم منها شيء قالوا فيما بينهم: إذا جاء يدخل على الخليفة بعد اليوم نعرض عنه ولا نرفع له الستر، واتفقوا على ذلك، فبينما هم جلوس إذ جاء الرضا على جري عادته فلم يملكوا أنفسهم أن قاموا له وسلموا عليه ورفعوا له الستر على عادتهم، فلما دخل أقبل بعضهم على بعض يتلاومون في كونهم ما فعلوا ما اتفقوا عليه، وقالوا: الكرة الآتية إذا جاء لا نرفعه له، فلمّا كان اليوم الثاني وجاء الرّضا على عادته قاموا فسلموا عليه ولم يرفعوا الستر، فجاءت ريح شديدة فدخلت في الستر ورفعته له حين دخل وخرج فأقبل بعضهم على بعض وقالوا: إن لهذا الرجل عند الله منزلة وله منه عناية، اُنظروا إلى الريح كيف جاءت ورفعت له الستر عند دخوله وعند خروجه من الجهتين، ارجعوا إلى ما كنتم عليه من خدمته[1].

---

(١) جامع كرامات الأولياء. يوسف بن إسماعيل النبهاني ٢: ٣١١ المكتبة الشعبية بيروت

وذكر ابن خلكان سبب بيعة المأمون للرضا بولاية العهد: أن المأمون جمع خواص الأولياء وأخبرهم أنّه نظر في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب عليهما السلام فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي الرضا فبايعه[١].

ومثله ما ذكره ابن الأثير في الكامل في ولاية العهد وسبب انعقادها لعلي الرضا، بقوله: وذلك أنّه نظر ـ أي المأمون ـ في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه[٢].

وهذا المأمون يُقرّض الإمام الرضا ويثني عليه وينعته بأحسن النعوت وأجل الصفات وذلك في عهده له بولاية العهد فيقول: ومعملاً ـ أي المأمون ـ في طلبه والتماس من أهل بيته من ولد عبد الله بن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره مقتصراً ممّن على حاله ومذهبه منهم على علمه وبالغاً في المسألة عمن خفى عليه أمره وجهده وطاقته، حتّى استقصى أمورهم بمعرفته وابتلى أخبارهم مشاهدةً وكشف ما عندهم مُسائلة، فكانت خيرته بعد استخارته لله وإجهاده نفسه في قضاء حقه وبلاده من البيتين جميعاً علي بن موسى بنَ جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، لمّا رأى فضله البارع، وعلمه الناصع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخليه من الدنيا، وتسلمه من الناس، وقد إستبان له مالم تزل الأخبار عليه متواطئة والألسن عليه متفقه والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً وناشئاً وحدثاً ومكتهلاً فعقد له بالعهد للخلافة إيثاراً لله والدين، ونظراً للمسلمين، وطلباً للسلامة، وثبات الحُجة،

← الطبعة الرابعة / ١٩٨٣م.

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس ابن خلكان ٣: ٢٧٠ دار صادر بيروت.

(٢) الكامل لأبن الأثير ٦: ٣٢٦.

والنجاة في اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين[1].

هذه شهادة المأمون العباسي بلياقة الرضا للخلافة وأهليته للإمامة، لحُسن مكارمه وسؤدده وعظيم شأنه، وهي لسان حال الأمّة ومكنون ضميرها، ولما كان المأمون قد عقد الولاية للرضا، كان العباسيون يومذاك كارهين ما أقدم عليه المأمون فاحتج عليهم بفضله وعلو شأنه وطيب صفاته، واحتجوا عليه بأن الخلافة ستخرج من بني العباس إلى بني علي وهو ما أفزعهم، ولم يحتجوا عليه بعدم لياقة الرضا للخلافة ولم يستطيعوا رد ما ذكره المأمون من طيب الصفات الرضوية وفضائلها، بل سلّموا الذلك وأذعنوا فلم يستطيعوا إنكارها وتكذيبها أبداً وقد ذاع صيته في الآفاق.

ولاية العهد في الميزان:

أثارت ولاية العهد التي عقدها المأمون العباسي للإمام الرضاﷺ، قلق البيت العباسي وسخطه، كما أثارت في الوقت نفسه اضطراب المؤرخين في تحليل وتقييم وتصويب أو تخطئة «المبادرة المأمونية» هذه.

فالمؤرخ، والمحلل السياسي، والمفكر والمنّظر والكاتب والقارئ وغيرهم، كل أولئك انطلق من وجهة نظره يساهم في حل «لغز» هذه المبادرة.

والحقيقة، أن المقدمات التي إعتمد عليها الجميع في دراسة هذا الموقف تنطلق من النظرة الخاصة التي تشارك في صياغة الشخصية المحلِلة للحدث، فهي على مفترق الطرق، لكنها تجمعها أخيراً معرفة الأسباب الكامنة وراء هذه العملية

---

(١) مآثر الانافة في معالم الخلافة ٢: ٣٣٠. التراث العربي سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد في الكويت / ١٩٦٤م.

التي أطاحت بالنظرة العباسية السالفة والتقليد السياسي الموروث الذي التزمه البيت العباسي في استبعاد العلويين من الحكم بحجة عجزهم وفشلهم وعدم لياقتهم لادارة النظام ، وإذا بالمأمون العباسي يعلن على الملأ الإسلامي أن الفضل والعلم والكرم واللياقة والورع والتقوى كلها تجتمع في شخص على بن موسى الرضا ، وهو أهل للخلافة والإمامة .

فما الذي دفع المأمون لذلك ، هل هو الاعتقاد الخالص بصحة ما أقدم عليه ؟ أم هي اللعبة السياسية التي يتبناها المأمون لإظهار مقدرته على ترويض الأزمات واستخدامها لصالحه ؟ أم هي التجربة الفاشلة في حساباته لإظهار عجز وفشل آل البيت في الحكم ؟ أم لأسباب كامنة أخفاها التاريخ أو موهت عليها السياسة وأخفتها المصالح ؟

ظروف «الخلافة المأمونية»:

واجهت خلافة المأمون حالة استثنائية من المعارضة الشديدة التي زعزعت الأمن وقوضت الاستقرار ، وأدت إلى إرتجاج الثقة المتبادلة بين الخليفة السياسي وبين البيت العباسي نفسه ، وذلك بعد مقتل الأمين على يد المأمون ، حتّى شعر العباسيون بفقدان الهيبة السياسية التي ورثوها من أسلافهم الأقدمين .

لقد كانت المعارضة القائمة إبّان عهد المأمون هي معارضة واحدة لوجهين مختلفين متباينين ، فالمعارضة العباسية السياسية تباين المعارضة العلوية السياسية المسلحة ، وكلا المعارضتين تتفقان على هدف واحد وهو إسقاط الخليفة القائم ، فالعباسيون يهدفون من معارضتهم هذه ابقاء الشرعية المزعومة وحق الخلافة للبيت العباسي ، والعلويون يهدفون إلى تقويض البيت العباسي وإنتقال الخلافة إلى البيت الشرعي وهم آل علي من الهاشميين ، وهكذا كل ينافح

لأجل هدفه، فأولئك يعملون على تقوية شرعية البيت العباسي، وهؤلاء يعملون على سحب الشرعية المزعومة، فكان الإختلاف في الأهداف قد أدى إلى الإختلاف في الأساليب، وبالتالي ظهور المعارضة العباسية الجديدة لا يعني تأييد المعارضة العلوية الأصيلة، لاختلاف المبادئ وتباين الأهداف.

إنّ مجزرة الأمين ومقتله من قبل المأمون، وتقديم العنصر الفارسي ونقل الخلافة من بغداد إلى خراسان، والتقرب السياسي للعلويين، كل ذلك أثار حفيظة العباسيين وأفزعهم، ووجدوا أن خليفتهم الجديد لن يلتزم بأبسط تقاليد الأسرة العباسية وهي إعلان العداء لآل علي والتنكيل بهم وتقتيلهم، ورأوا أن قتل المأمون للأمين أضعف شوكتهم وكسر هيبتهم، وكان لانتقال العاصمة الإسلامية من بغداد إلى خراسان ضربة سياسية أربكت التشكيلة الأسرية العباسية القاطنة في العاصمة بغداد وزعزعت هيبتهم، لذا عمدوا إلى التمرد على جميع قرارات الخليفة وخلعهِ ومبايعة عمه إبراهيم بن المهدي وأعلنوا بغداد عاصمة لهم، وكان العرب من وراء هذه الحركة لما رأوا ميل المأمون إلى أهل فارس وتقديمهم وجعل العنصر العربي عنصراً ثانوياً في مراسم الخلافة العباسية.. لقد ارتمى إليهم عناداً لأهل اليمن الكارهين له، ومكابرة لربيعة التي نافست المضريين وقد بُعث منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا نفلسفت «قومية» المأمون فانحازت إلى غير أصولها، تخالطها تحفظات سياسية خفية.

روى الطبري عن محمد بن علي بن صالح السرخسي قال: تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً، فقال له: يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان، فقال: أكثرت عليّ يا أخا أهل الشام، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلاّ وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن، فوالله

ما احببتها ولا احبتني قط، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من اشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلاّ خرج أحدهما شارياً، أُغرب فعل الله بك[١] ويمكن القول أن هذه النظرة قد أتاحت للمأمون أن ينطلق من أُسار تقليديته القومية ليخوض في مديات علمية جديدة ويستفيد من منابع ثقافية جديدة غير تلك التي التزم بها أباؤه، فقد تفتح على علوم الفلك والهيئة والحساب والهندسة إلى غير ذلك مع احتفاظه بثقافته العربية التي أثرته بالأدب العربي وأحوال الشعراء وغير ذلك.

ان ذلك لا يعني تصحيحاً أو تبريراً لما أقدم عليه المأمون فان رجلاً سياسياً يجعل الهدف السياسي في مقدمة تطلعاته، لا يمكن الاعتماد على رؤيته الجديدة سواء «تشيعه المُدّعى» أو في فلسفته الجديدة المناهضة لتطلعات بني أبيه.

من ناحية أُخرى كان العلويون يرون استمرارية حقهم في المعارضة المسلحة، فإن اغتصاب الخلافة من البيت العلوي هي النظرية التي أطّرت جميع إطروحات المعارضة والكفاح المسلح ضد العباسيين، ووجدوا أن التواني عن المطالبة بحقوقهم هو التفريط بالدماء التي سفكت من قبلْ لأجل استرداد حقهم المغتصب، وأن المأمون العباسي لم يكن إلّا رجلاً سياسياً مناوراً استخدم مناوراته السياسية للتقرب من العلويين لضرب العلويين أنفسهم وافشال جميع خططهم وإسكات معارضتهم، وهي العملية التكتيكية التي لا ينبغي للعلويين إنجاحها وتمرير خطط النظام الحاكم من خلالها، لذا استمرت المعارضة العلوية بل قويت أثناء الخلافة المأمونية، مما حدى بالمأمون إلى كسب ود المعارضة

---

(١) تاريخ الطبري ٨: ٦٥٢ دار سويدان بيروت، وكذا رواه ابن الاثير في الكامل ٥: ٢٣٠ دار الكتاب العربي.

العلوية المسلحة التي هي الأقوى في حساباته السياسية ، ثمّ إقصائها بالقضاء عليها وتصفيتها بعد إسكاتها ، وكسب ود الفرس الذين يتشيعون لآل البيتﷺ ، ورأى أن المعارضة العباسية لم تكن سوى معارضة سياسية لم تصل إلى حد السيف ، فكانت الحكمة إيجاد مخرج سياسي من الأزمة الخانقة هذه ولا تكون إلّا بعقد البيعة للإمام علي بن موسى الرضاﷺ وإظهار المصالحة والتقرب إليه وإمكانية التعامل الوقتي معه إلى حين استتباب الأمور والقضاء على الحركات العلوية المسلحة وإخماد أنفاس المعارضة السياسية .

لقد كان الإمام الرضاﷺ عالماً بنوايا المأمون السياسية ، وعارفاً بالعملية التكتيكية التي لابد للمأمون من ارتكابها ، مما دعا الإمامﷺ إلى رفض هذه المناورة ، لكن تهديد المأمون عاجله باتخاذ ما يلزم وأجبره على السكوت ، والتسليم إلى الواقع السياسي العنيف الذي استعد لتحطيم كل العقبات التي تقف في طريق مشاريعه السياسية الجديدة ، وكان الإمام الرضاﷺ كارهاً للدخول في أي برنامج سياسي من هذا النوع ، غير راضٍ لإبداء أي تعاون مع النظام ، وذلك لمعرفتهﷺ أن النظام لا يتعامل معه إلّا من منطلق سياسي مصلحي وليس للإصلاح السياسي أو الإجتماعي وزنٌ في حسابات النظام ، وكان الإمام يطمح إلى الإصلاح السياسي والإجتماعي والأخلاقي والإقتصادي من خلال أية أُطروحة إصلاحية صادقةٍ ، ومحاولة تغييرية جدية تتكامل فيها مقومات الإصلاح ومتطلبات التغيير . والإمام بعد هذا كله لم يكن متشوقاً للوصول إلى الحكم عن طريق مشاريع النظام ، بل يجد من نفسه «أهليّة للخلافة مضيّعة» من قبل الأُمّة وقد فرّطت بالشرعية الإلٰهية للخلافة وسكتت عن انتزاء القوى السياسية المضادة لآل البيت على دست الحكم ، فالامام لو كان راغباً بالحكم عن غير الطريق الشرعي الذي يوصله إلى الحكم أو بالبيعة الرمزية من قبل الأُمّة ، لكان قبل هذا الوقت قد

عمل على أخذ السلطة بالمناورات السياسية والتكتيك المسلح ، لكنّه رأى الظرف لم يكن ملائماً لاعلان الثورة الإصلاحية والكفاح المسلح كما فعل جده الحسين من قبل ، حيث رأى جده الحسين جدية الظروف للقيام بأية ثورة إصلاحية ، وملائمة الظرف السياسي وصدق التكامل الروحي والمعنوي للقوة المسلحة الملتفة حوله ، لذا أعلن ثورته المسلحة ، فكانت نتائجها تثبيت مشروعية خلافة آل البيت في أذهان الأُمّة والنظر إلى أي نظام حاكم من غير آل البيت على أنّه نظام مغتصب غير مشروع .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر بادر الإمام الرضاعليه السلام إلى إفشال جميع مخططات المأمون الهادفة إلى التمويه بأن أهل هذا البيت إنما نازعوهم على أمر السلطان ، وكانت معارضتهم للانظمة إنّما هي لحرمانهم من الحكم الذي يتشوقون للوصول إليه ، ويتطلعون للسعي من ورائه ، ولم تكن معارضتهم فكرية كما يدعون ، لذا فإن قبول الرضا بولاية العهد هو دليل على صحة الدعوى التي أدخلها النظام في روع صنائعه السياسيين فضلاً عن السذج السطحيين ، وسيكون تولي الرضا لأي مركز سياسي حكومي تأكيد على إبداء عجزه الاداري فضلاً عن السياسي فكيف يتصدون لمعارضة النظام وهم غير مؤهلين بعدُ لأيِ منصبٍ حكومي في الدولة ؟

لذا بادر الإمام الرضاعليه السلام إلى إفشال جميع هذه المخططات بعد إعلانه عن عدم رغبته مطلقاً للاستجابة لدعوة المأمون العباسي لولاية العهد ، وعلم بذلك العام والخاص ، فأحبط بذلك مدّعيات النظام ، فضلاً عما أبداه الإمام الرضا من مهارة سياسية عاجل فيها كل المستجدات الطارئة التي ألمّت بالمأمون العبّاسي بعد فزعه إليه ولجوئه إلى الإستغاثة به لحل الأزمات التي أوجدها وزرائه وأهل خاصته ، على ما تذكره مطولات السير والتاريخ ، فراجع .

الانعطافات الفكرية لدى المأمون ... إعتقاد راسخ، أم تكتيك مبرمج؟

كان مما ذكرناه الانعطاف الذي حدث في الحياة السياسية الجديدة للمأمون وبينّا بعض الملابسات التي رافقت هذه المستجدات والتحولات التي أحدثت نقلةً جديدة للمعارضتين العباسية والعلوية على حد سواء، فعلى صعيد المعارضة العباسية، إرتبكت النظرة التقليدية السائدة لدى العامة بأن الحكم العباسي لم يكن راغباً في إستبعاد آل علي من الحكم، بل أقر لهم بالفضل والمنزلة وأهلّية الخلافة ورغبة النظام إلى توطيد العلاقة بينه وبين العلويين، لذا تراجع التأييد الشعبي للمعارضة العباسية وإضمحلت إلى معارضة خفية تجول في صدور خاصة البيت العباسي لعدم وجود متنفسٍ تطلق فيها إستنكارها للسياسة الجديدة، فضلاً عما اتخذه المأمون العباسي من ترتيبات أمنية احترازية لاحباط أي تحرك مضادٍ لما عزم عليه من الإرسال إلى الإمام الرضا وعقد ولاية العهد له، هذا من جانب المعارضة العباسية، أمّا من جانب المعارضة العلوية المسلحة فقد نشطت لاحباط أي مخطط يسعى للالتفاف عليها وإسكاتها بأي تمييع سياسي مبرمج، أو أية مناورة سياسية أُخرى، حيث علمت المعارضة العلوية أن عدم الجدية التي رافقت عقد ولاية العهد ما هي إلّا محاولة لعزل الإمام الرضا عن قواعده وإبعاده عن مركز تحركاته الحرة ذات الثقل السياسي فضلاً عن الديني، وهي المدينة المنورة التي تعتبر المركز التقليدي الموروث لآل البيت عليهم السلام، وجعل تحركات الإمام الرضا تحت نظر السلطة مباشرة، لذا لم تتوانى المعارضة العلوية عن إعلان استنكارها ورفضها لهذا التصالح الموهوم.

هذا على مستوى الانعطاف السياسي ونتائجه، أمّا على مستوى الانعطافات الفكرية والعقائدية التي أحدثتها سياسة المأمون الجديدة، فبالرغم من كونها

جزءاً من المشاريع السياسية المبرمجة، أملتها ظروف تاريخية معلومة، إلاّ أنّها كانت رفداً مهماً لمشروعية مدرسة النص، وتأييداً على المدى البعيد لفكر آل البيت عليهم السلام، فضلاً عن المدى القريب ولو بقدر محدودٍ، حيث بادر المأمون العباسي إلى التزام مبدأ أحقية آل البيت عليهم السلام ـ الشعار الذي رفعه العباسيون أوّل مرّة للاطاحة بالحكم الاموي ـ، والتلويح إلى انتزاء المهاجرين على الخلافة مع وجود مَنْ هو أحق منهم، والتصريح تارة أُخرى في تصوير الخطأ الذي ارتكبه الأُوَلْ في استبعاد عليّ عن حقّه الشرعي في الخلافة، كما التزم مبدأ فتح الحوار العلمي بينه وبين علماء بني العباس، محاولة منه لأخذ التأييد والاعتراف بما ذهب إليه ظاهراً، مع ما لاقى من سخط آله عليه، أو التعامل مع ما ذهب إليه على أساس المجاملة فقط على أقل تقدير.

عقد المأمون العباسي مناظرات علمية بينه وبين علماء أهل السنة حاول فيها إثبات أحقية آل البيت، وكسب الجولات العلمية حتّى أثبت مهارته في هذا المجال، ولعل ما كان من مناظرته التي سنذكرها بحضور القاضي يحيىٰ بن أكثم وحماد بن زيد وغيرهم من قضاة الدولة وعلمائها، هي من أهم ما سجلته لنا جهود المأمون الفكرية في خصوص انعطافاته السياسية والعقائدية، ولعلها أخطر منازلةٍ يجري فيها تحديد مصير مدرسة الإجماع أنذاك والتي من خلالها سجلت هذه المدرسة تراجعاً ملحوظاً على المستوى الفكري والعقائدي، وستوقفنا هذه المناظرة آخيراً على معالم مدرستي النص والإجماع فضلاً عن بعض معالم المأمون المجهولة وإليك نص المناظرة:

عن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل عن حماد بن زيد قال بعث إلي يحيى بن أكثم وإلى عدة من أصحابي وهو يومئذ قاضي القضاة فقال: إن أمير المؤمنين ـ

يعني المأمون ـ أمرني أن أحضر معي غداً مع الفجر أربعين رجلاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ويحُسن الجواب فسموا من تظنونه يصلح لما يطلب أمير المؤمنين فسمينا له عدة وذكر هو عدة حتّى تم العدد الذي أراد وكتب تسمية القوم وأمر بالبكور في السحر وبعث إلى من لم يحضر فأمره بذلك فغدونا عليه قبل طلوع الفجر فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا فركب وركبنا معه حتّى صرنا إلى الباب فإذا بخادم واقف فلما نظر الينا قال: يا أبا محمّد أمير المؤمنين ينتظرك . . إلى أن قال فلما استقر بنا المجلس عند المأمون قال . . قال المأمون بعد أن سألهم في الفقه مسائل: إنّي لم أبعث فيكم لهذا ولكنني أحببت أن أُنبئكم أن أمير المؤمنين أراد مناظرتكم في مذهبه الذي هو عليه والذي يدين الله به . قلنا فليفعل أمير المؤمنين وفقه الله . فقال: إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خيرُ خلق الله بعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأولى النّاس بالخلافة له .

قال إسحاق: فقلت يا أمير المؤمنين إن فينا من لا يعرف ما ذكر أمير المؤمنين في علي ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة .

فقال يا إسحاق اختر ، إن شئت سألتك أسألك ، وإن شئت أن تسأل فقل .

فقال إسحاق فاغتنمتها منه ، فقلت بل أسألك يا أمير المؤمنين ، قال: سل ، قلت من أين قال أمير المؤمنين إن علي بن أبي طالب أفضل النّاس بعد رسول الله وأحقهم بالخلافة بعده ؟

قال: يا إسحاق خبرني عن الناس بم يتفاضلون حتّى يقال فلان أفضل من فلان؟

قلت: بالأعمال الصالحة .

قال: صدقت ، قال فأخبرني عمن فضل صاحبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمّ

أن المفضول عمل بعد وفاة رسول الله بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله أيُلحق به ؟ قال فأطرقت ، فقال لي: يا إسحاق لا تقل نعم ، فإنك ان قلت نعم أوجدتك في دهرنا هذا من هو أكثر منه جهاداً وحجاً وصياماً وصلاة وصدقةً . فقلت أجل يا أمير المؤمنين ، لا يلحق المفضول على عهد رسول الله ﷺ الفاضل أبداً .

قال: يا إسحاق فانظر ما رواه لك أصحابك ومن أخذت عنهم دينك وجعلتهم قدوتك من فضائل علي بن أبي طالب فقس عليها ما أتوك به من فضائل أبي بكر ، فإن رأيت فضائل أبي بكر تشاكل فضائل علي فقل أنّه أفضل منه ، لا والله ، ولكن فقس إلى فضائله ما رُوي لك من فضائل أبي بكر وعمر فإن وجدت لهما من الفضائل ما لعلي وحده ، فقل: إنّهما أفضل منه ، ولا والله ولكن قس إلى فضائله فضائل أبي بكر وعمر وعثمان ، فإن وجدتها مثل فضائل علي فقل: إنّهم أفضل منه لا والله ولكن قس بفضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، فإن وجدتها تشاكل فضائله فقل: إنّهم أفضل منه .

قال: يا إسحاق أي الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله ؟ قلت: الإخلاص والشهاده .

قال: أليس السبق إلى الإسلام ؟ قلت: نعم .

قال: إقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: **﴿والسَابِقُونَ السَابِقُونَ * أُولـَئِكَ المُقَرَبُونَ﴾**[1] إنّما عنى من سبق إلى الإسلام ، فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام ؟ قلت: يا أمير المؤمنين إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه

---

(١) الواقعة: ١٠ ، ١١.

الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

قال: أخبرني أيهما أسلم قبل، ثمّ أناظرك من بعده من الحداثة والكمال. قلت: عليٌ أسلم قبل أبي بكر على هذه الشريطة.

فقال: نعم، فأخبرني عن إسلام علي حين أسلم، لا يخلو من أن يكون رسول اللهﷺ دعاه إلى الإسلام أو يكون إلهاماً من الله؟ قال: فأطرقتُ.

فقال لي: يا إسحاق لا تقل إلهاماً فتقدمه على رسول اللهﷺ لأن رسول الله لم يعرف الإسلام حتّى أتاه جبريل عن الله تعالى، قلت: أجل، بل دعاه رسول الله إلى الإسلام قال: يا إسحاق فهل يخلو رسول اللهﷺ حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلّف ذلك من نفسه؟ قال: فأطرقت، فقال: يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى التكلف فإن الله يقول: ﴿وَمـا أنـا مِنَ المُتَكَلّفِينَ﴾[1] قلت: أجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله.

قال: فهل من صفة الجبار جل ثناؤه أن يكلّف رسلهُ دعاء من لا يجوز عليه حكمٌ؟ قلت: أعوذ بالله.

فقال: أفتراه في قياس قولك يا إسحاق أن علياً أسلم صبياً لا يجوز عليه الحكم قد كلف رسول اللهﷺ من دعاء الصبيان مالا يطيقون، فهو يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء ولا يجوز عليهم حكم الرسولعليه السلام، أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى الله عزّوجلّ؟ قلت: أعوذ بالله.

قال: يا إسحاق فأراك إنّما قصدت لفضيلة فضّل بها رسول اللهﷺ علياً على

---

(١) سورة ص: ٨٦.

هذا الخلق ، أبانه بها منهم ليُعرف مكانهُ وفضله ، ولو كان الله تبارك وتعالى أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا علياً ؟ قلت: بلى .

قال: فهل بلغك أن الرسول ﷺ دعا أحداً من الصبيان من أهله وقرابته لئلا تقول أن علياً ابن عمه ؟ قلت: لا أعلم ولا أدري فعل أو لم يفعل .

قال: يا إسحاق أرأيت مالم تدره ولم تعلمه هل تُسأل عنه ؟ قلت: لا ، قال: فدع ما قد وضعه الله عنا وعنك .

قال: ثمّ أي الأعمال كانت أفضل بعد السبق إلى الإسلام ؟ قلت: الجهاد في سبيل الله .

قال: صدقت فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ما تجد لعلي في الجهاد ؟ قلت: في أي وقت ؟ قال: في أي الأوقات شئت ، قلت: بدر ؟ قال: لا أُريد غيرها ، فهل تجد لأحد إلادون ما تجد لعلي يوم بدر ؟ أخبرني كم قتلى بدر ؟ قلت: نيف وستون رجلاً من المشركين ، قال: فكم قتل علي وحده ؟ قلت: لا أدري ،قال: ثلاثة وعشرين أو إثنين وعشرين والأربعون لسائر الناس .

قلت: يا أمير المؤمنين كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في عريشه ، قال: يصنعُ ماذا ؟ قلت: يدير ، قال: ويحك ، يدير دون رسول الله أو معه شريكاً أو افتقاراً من رسول الله ﷺ إلى رأيه ؟ أي الثلاث أحب إليك ؟ قلت: أعوذ بالله أن يدير أبو بكر دون رسول الله ﷺ أو يكون معه شريكاً أو أن يكون برسول الله ﷺ افتقاراً إلى رأيه .

قال: فما الفضيلة بالعريش إذا كان الأمر كذلك ؟ أليس من ضرب بسيفه بين يدي رسول الله ﷺ أفضل ممّن هو جالس ؟ قلت: يا أمير المؤمنين كل الجيش

كان مجاهداً.

قال: صدقت، كلّ مجاهد، ولكن الضارب بالسيف المحامي عن رسول اللهﷺ وعن الجالس أفضل من الجالس، أما قرأت كتاب الله **﴿لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ والمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنىٰ وفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَىٰ القَاعِدِين أَجْراً عَظِيماً﴾**[1] قُلت: وكان أبو بكر وعمر مجاهدين.

قال: فهل كان لأبي بكر وعمر فضلٌ على مَنْ لم يشهد ذلك المشهد؟ قلت: نعم، قال: فكذلك سبق الباذل نفسهُ فضل أبي بكر وعمر قلت: أجل.

قال: يا إسحاق تقرأ القرآن؟ قلت: نعم.

قال: إقرأ عليَّ **﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾** فقرأت منها حتّى بلغت **﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾** إلى قوله تعالى: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً ويَتِيماً وأَسِيراً﴾**[2].

قال: على رسلك، فبمن أُنزلت هذه الآيات؟ قلت: في علي.

قال: فهل بلغك أن علياً حين أطعم المسكين واليتيم والأسير، قال: إنّما نطعمكم لوجه الله؟ وهل سمعت الله وصف في كتابه أحداً بمثل ما وصف به علياً؟ قلت: لا.

قال: صدقت، لأن الله جل ثناؤه عرّف سيرته، يا إسحاق ألست تشهد أن

---

(١) النساء: ٩٥.

(٢) الانسان: ١، ٥، ٨.

العشرة في الجنة ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين ، قال: أرأيت لو أن رجلاً قال: والله ما أدري هذا الحديث صحيح أم لا ، ولا أردي إن كان رسول الله قاله أم لم يقله ، أكان عندك كافراً ؟ قلت: أعوذ بالله .

قال: أرأيت لو أنّه قال: ما أدري هذه السورة من كتاب الله أم لا ، كان كافراً ؟ قلت: نعم .

قال: فهل تعرف حديث الطير ؟ قلت: نعم ، قال: فحدثني به ، قال: فحدثته الحديث ، فقال: يا إسحاق اني كنت أكلمك وأنا أظنك غير معاند للحق ، فأما الآن فقد بان لي عنادُك ، إنّك توقن أن هذا الحديث صحيح ؟ قلت: نعم ، رواه من لا يمكنني رده .

قال: أفرأيت من أيقن أن هذا الحديث صحيح ، ثمّ زعم أن أحداً أفضلُ من علي ، لا يخلو من أحدى ثلاثة: من أن تكون دعوة رسول الله ﷺ عنده مردودة عليه ، أو أن يقول عرف الفاضل من خلقه وكان المفضول أحب إليه ، أو أن يقول إن الله عزّ وجلّ لم يعرف الفاضل من المفضول ، فأي الثلاثة أحب إليك أن تقول ؟ فأطرقت ، ثمّ قال: يا إسحاق لا تقل منها شيئاً ، فإنك أن قلت منها شيئاً استتبتُك وإن كان للحديث عندك تأويل غير هذه الثلاثة الأوجه فقلهُ قلت: لا أعلم ، وإن لأبي بكر فضلاً .

قال: أجل ، لولا أن له فضلاً لما قيل إن علياً أفضل منه ، فما فضلهُ الذي قصدت له الساعة ؟ قلت: قوله الله عزّوجلّ **﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾**[1] فنسبه إلى صحبته .

---

(١) التوبة: ٤٠.

قال: يا إسحاق أمّا إنّي لا أحملك على الوعر من طريقك، إنّي وجدت الله تعالى نسب إلى صحبة من رضيه ورضي عنه كافراً وهو يقول قوله **﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾**[1] قلت: إن ذلك صاحبٌ كان كافراً، وأبو بكر مؤمن.

قال: فإذا جاز أن ينسب إلى صحبة نبيه مؤمناً وليس بأفضل المؤمنين ولا الثاني ولا الثالث، قلت: يا أمير المؤمنين ان قدر الآية عظيم، إن الله يقول **﴿ثاني إثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحِبه لا تحزن إن الله معنا﴾**.

قال: يا إسحاق تأبى الآن إلّا أن أخرج إلى الاستقصاء عليك، أخبرني عن حزن أبي بكر أكان رضاً أم سخطاً؟ قلت: أن أبا بكر إنّما حزن من أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خوفاً عليه وغماً أن يصل إلى رسول الله شيء من المكروه.

قال: ليس هذا جوابي إنّما كان جوابي أن تقول رضا أم سخط، قلت: بل كان رضاً لله.

قال: فكان الله جل ذكرهُ بعث إلينا رسولاً ينهي عن رضا الله عزّوجلّ وعن طاعته؟ قلت: أعوذ بالله.

قال: أوليس قد زعمت أن حزن أبي بكر رضاً لله؟ قلت بلى قال: أولم تجد أن القرآن يشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال **﴿لا تَحْزَنْ﴾** نهياً عن الحزن؟ قلت: أعوذ بالله.

قال: يا إسحاق أن مذهبي الرفق بك لعل الله يردك إلى الحق ويعدل بك عن الباطل لكثرة ما تستعيذ به، وحدثني عن قول الله **﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سكينتهُ عَلَيْه﴾** من عنى بذلك، رسول الله أم أبا بكر؟ قلت: بل رسول الله، قال: صدقت، قال:

---

(١) الكهف: ٣٧، ٣٨.

حدثني عن قول الله عزّوجلّ ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ الى قوله ﴿**ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[١] أتعلم مَنْ المؤمنون الذين أراد الله في هذا الموضوع ؟ قلت:لا أدري يا أمير المؤمنين قال: جميعاً انهزموا يوم حنين ، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلّا سبعة نفر من بني هاشم ، علي يضرب بسيفه بين يدي رسول الله ، والعباس آخذٌ بلجام بغلة رسول الله والخمسة محدقون به خوفاً من أن يناله من جراح القوم شيء حتّى أعطى الله لرسوله الظفر ، فالمؤمنون في هذا الموضع عليّ خاصة ، ثمّ من حضره من بني هاشم ، قال: فمن أفضل ؛ من كان مع رسول الله ﷺ في ذلك الوقت أم من انهزم عنه ولم يره الله موضعاً يُنزلها عليه ؟ قلت: بل من أنزلت عليه السكينة .

قال: يا إسحاق من أفضل ؛ من كان معه في الغار أم من نام على فراشه ووقاه بنفسه حتّى تم لرسول الله ﷺ ما أراد من الهجرة ؟ إن الله تبارك وتعالى أمر رسول الله ﷺ بذلك فبكى عليّ ﵇ ، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا علي أجزعاً من الموت ؟ قال: لا والذي بعثك بالحق يا رسول الله ولكن خوفاً عليك ، أفتسلم يا رسول الله ؟ قال: نعم ، قال: سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفداء لك يا رسول الله ، ثمّ أتى مضجعه واضطجع وتسجّى بثوبه وجاء المشركون من قريش فحفوا به ، لا يشكّون أنّه رسول الله ﷺ وقد أجمعوا أن يضربه من كل بطن من بطون قريش رجلٌ ضربةً بالسيف لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطناً بدمه ، وعليّ يسمع ما القوم فيه من إتلاف نفسه ، ولم يدعه ذلك إلى الجزع كما جزع صاحبُه في الغار ولم يزل عليّ صابراً محتسباً ، فبعث الله ملائكته ، فمنعته من مشركي قريش حتّى أصبح ، فلما أصبح قام فنظر القوم إليه فقالوا: أين محمّد ؟

---

(١) التوبة: ٢٥ ، ٢٦.

قال: وما علمي بمحمّد أين هو ؟ قالوا: فلا نراك إلّا مغرراً بنفسك منذ ليلتنا ، فلم يزل علي أفضل ما بدأ به ، يزيد ولا ينقص حتّى قبضه الله إليه .

يا إسحاق هل تروي حديث الولاية ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال: اروِه ، ففعلت قال: يا إسحاق أرأيت هذا الحديث هل أوجب على أبي بكر وعمر مالم يوجب لهما عليه ؟ قلت: إن الناس ذكروا أن الحديث إنّما كان بسبب زيد بن حارثة لشيء جرى بينه وبين علي ، وأنكر ولاء علي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم والي من والاه وعاد من عاداه .

قال: في أي موضع قال هذا ، أليس بعد منصرفه من حجّة الوداع ؟ قلت: أجل . قال: فإنّ قتل زيد بن حارثة قبل الغدير ، كيف رضيت لنفسك هذا ؟ أخبرني: لو رأيت ابناً لك قد أتت عليه خمس عشرة سنة يقول: مولاي مولى ابن عمي ، أيّها النّاس فاعلموا ذلك ، أكنت منكراً ذلك عليه: تعريفه الناس ما لا ينكرون ولا يجهلون ؟ فقلت: اللّهُمَّ نعم .

قال: يا إسحاق افتنزه ابنك عما لا تنزه عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وَيْحَكم ! لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم ، إن الله جل ذكره قال في كتابه **﴿اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَربَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾**[1] وإن لم يصلوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنّهم أرباب ولكن أمروهم فأطاعوا أمرهم ، يا إسحاق أتروي حديث «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى**» ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين قد سمعته وسمعتُ من صححه وجحده .

قال: فمن أوثقُ عندك من سمعت منه فصححه أو من جحده ؟ قلت: من صححه .

---

(١) التوبة: ٣١.

قال: فهل يمكن أن يكون الرسولﷺ مزح بهذا القول ؟ قلت: أُعوذُ بالله قال: فقال قولاً لا معنى له ولا يوقف عليه ؟ قلت: أعوذ بالله.

قال: أفما تعلم أن هارون كان أخا موسى لأبيه وأُمّه ؟ قلت: بلى، قال: فعليٌّ أخو رسول الله لأبيه وأُمّه ؟ قلت: لا.

قال: أوليس هارون كان نبياً وعلي غير نبي ؟ قلت: بلى.

قال: فهذان الى الآن معدومان في علي وقد كانا في هارون، فما معنى قوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى ؟ قلت له: إنّما أراد أن يطيّب بذلك نفس علي لما قال المنافقون إنّه خلّفه استثقالاً له.

قال: فأراد أن يطيِّب نفسه بقول لا معنى له ؟ قال: فأطرقت.

قال: يا إسحاق له معنى في كتاب الله بيِّن قلت: وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: قوله عزّوجلّ حكايةً عن موسى إنّه قال لأخيه هارون: ﴿**ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1] قلت: يا أمير المؤمنين إن موسى خلّف هارون في قومه وهو حي، ومضى إلى ربه، وإن رسول اللهﷺ خلّف علياً كذلك حين خرج إلى غزاته.

قال: كلا ليس كما قلت، أخبرني عن موسى حين خلف هارون: هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحدٌ من أصحابه أو أحدٌ من بني إسرائيل ؟ قلت: لا. قال: أوليس استخلفه على جماعتهم ؟ قلت: نعم.

قال: فأخبرني عن رسول اللهﷺ حين خرج إلى غزاته: هل خلّف إلّا

---

(١) الاعراف: ١٤٢.

الضعفاء والنساء والصبيان ، فأنى يكون مثل ذلك ؟ وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إيّاه ، لا يقدر أحدٌ أن يحتج فيه ولا أعلم أحداً احتج به ، وأرجو أن يكون توفيقاً من الله ، قلت: وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: قوله عزّوجلّ حين حكى عن موسى قوله ﴿**وَاجْعَل لّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلي * هٰرُونَ أخي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ في أَمْري * كَيْ نُسبّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً**﴾[1] فأنت مني يا علي بمنزلة هارون من موسى: وزيري من أهلي ، وأخي شد الله به أزري ، وأشرَكهُ في أمري كي نسبح الله كثيراً ونذكره كثيراً ، فهل يقدر أحدٌ أن يُدخل في هذا شيئاً غير هذا ولم يكن ليبطل قول النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأن يكون لا معنى له ؟

قال: فطال المجلس وارتفع النهار ، فقال يحيى بن أكثم القاضي: يا أمير المؤمنين أوضحت الحق لمن أراد الله به الخير ، وأثبتّ ما لايقدر أحد أن يدفعه ، قال إسحاق: فأقبل علينا وقال: ما تقولون ؟

فقلنا: كلنا نقول بقول أمير المؤمنين أعزه الله .

فقال والله لولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اقبلوا القول من النّاس ماكنت لأقبل منكم القول ، اللَّهُمَّ قد نصحت لهم القول ، اللَّهُمَّ إنّي قد أخرجت الأمر من عنقي ، اللَّهُمَّ إنّي أدينك بالتقرب إليك بحب عليٍّ وولايته[2] .

أقول: إنّما أوردت هذا الخبر بطوله وذلك للاستفادة منه في أمور:

١ ـ كان الخبر عرضاً لمدرستين كلاميتين: إحداهما مدرسة الإمامية القائلة

---

(١) طه: ٢٩ ـ ٣٥.

(٢) ـ العقد الفريد لأبن عبد ربه الأندلسي ٥: ٣٤٩ ـ وما بعدها دار الكتب العلمية بيروت طبعة أولى / ١٩٨٣.

بالنص على خلافة علي بن أبي طالب ، والثانية مدرسة الإجماع وآراء نظرية أهل الحل والعقد .

٢ ـ امتاز هذا الخبر بالأهمية العلمية والموضوعية ، وذلك لالتزام مذهب المدرسة الإمامية في المناظرة السالفة الخليفة العباسي المأمون والذي عُرف بموقفه السيىء من القيادة الشرعية لآل البيت ، فقد كان إقدامه على قتل الإمام علي‌بن موسى الرّضا مظهراً آخر من سلسلة التصفيات الجسدية التي أقدم عليها بنو العبّاس لابادة آل البيت عليهم السلام وحلقة أُخرى من المؤامرات المبتذلة التي حيكت للإطاحة بالشرعية الإلٰهية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام ، ومع هذا فقد إلتزم في هذه المناظرة جانب حقوق آل البيت ومثّله أحسن تمثيل ، وكان الطرف المقابل للمناظرة العلمية والممثل لمدرسة الإجماع ، إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الذي كان فقيهاً من فقهاء مدرسة أهل السنة وقد شغل منصب القضاء إبّان عهد المأمون لفترة من الزمن ، ثمّ نقل هذا الخبر الفقيه أحمد بن محمّد بن عبد ربه الأندلسي ، المعروف بموقفه المتشنج من حقوق آل البيت ، والذي اشترك في تنفيذ البرنامج التثقيفي المعادي لآل البيت ، والداعي إلى تمييع قضيتهم ، والإنتصار إلى طرفهم المقابل لهم ، والمعادي لفلسفتهم ، وقد حاول في كثير من جهوده التثقيفية إبراز وجهات النظر السياسية لمدارس أهل الحل والعقد ، وهو مع هذا كله ، أورد هذا الخبر بطوله وعرضه ، مع خلو أغلب كتب الحديث منه ، وقد استبعدته خبراً علمياً موضوعياً ، يمكنه أن يشارك في النظرة المعتدلة المستقلة من قضية الخلافة ، والذي يقدّم وجهات نظر الطرفين ، بصياغتها الأصيلة الخالصة .

فحفل الخبر من كل هذا بثلاث وجهات نظر ، متفقة في عدائها لآل البيت ،

وقد اشتركت في تقديم الصيغة الحقيقية لوجهة نظر المدرسة الإمامية في صراعها مع أطراف النزاع، من أجل تثبيت حقوق آل البيت!

٣ ـ بغض النظر عن توجهات المأمون السياسية إلّا أن الخبر قدّم أُنموذجاً ممتازاً للقارئ الجيد، الذي يستطيع أن يقرأ الحدث الإسلامي بصيغته الكاملة، ويُعمِلْ فكره لمحاولة استنباط حقائق الواقع الإسلامي، الذي قدّمه التراث النبوي وشارك في صياغته التاريخ الإسلامي السليم، فقد استفاد المأمون العباسي من وقائع التاريخ الإسلامي الخالص، وإستخدم الحديث النبوي لتفسير ما جرى من أحداث على أرض الواقع الإسلامي، وقد تجرّد من أية نظرة تودي بحقيقة الحدث، فكانت تجربته الموضوعية هذه أن قدّمت له رؤى جديدة فهم من خلالها ما جرى على الساحة الإسلامية، واستطاع أن يخترق بنظرته الموضوعية المجردة جدران سقيفة بني ساعدة، وقد جرى فيها ترتيب سير الأحداث لصالح النظريات السياسية المتحفزة للحكم الجديد.

٤ ـ قدّمت وقائع الخبر نقلاً مباشراً عن مجريات أساليب المناظرة لدى المدرستين، فقد استخدمت المدرسة الإمامية النص النبوي، مجرداً عن النظرات الشخصية، والتي تتدخل للعبث بالقصد النبوي الذي يقدم أُطروحته على أساس وحي السماء، وقد قابلتها المدرسة الأُخرى باستحداث نظرة جديدة للحدث الإسلامي، وذلك من خلال استخدام النص النبوي لتفسير وجهات نظرها السياسية لا العكس، وهو إستخدام جهودها لخدمة النص النبوي وقراءته بما ينسجم وواقعهُ المطروح.

فقد قدّم المأمون قراءة جيدة للنصوص النبوية، وعرضاً خالصاً لمجريات الحدث الإسلامي، وقد استعان ببديهيات وضروريات عقلية، واستخدم

مسلّمات وجدانية ، كل ذلك من أجل الاستفادة من النصوص النبوية خالصة وهي تقدم أُطروحة السماء في ترتيب الخلافة الشرعية ، وقد قابل الطرف الثاني هذا الجهد الرائع بكل مسلماته العلمية وطرحه الموضوعي حيث حاول إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القفز على الأحداث وتقزيم القضية الإسلامية المتعلقة بفضائل علي بن أبي طالب وتفريغها من محتواها والتعامل معها حدثاً بسيطاً لا يشارك في رسم صيغة الخلافة الشرعية ، بل استبدل النصوص النبوية بكل معطياتها بالانقلاب السياسي العاجل الذي أطاح بالخطط الإلٰهية للخلافة الشرعية وأطلق عليه «إجماع الأمّة» ومنحه الشرعية بديلاً عن الأُطروحة الإلٰهية لترتيب منصب الخلافة .

٥ ـ كان إسحاق بن إبراهيم قد استخدم منطق المزايدات السياسية في محاولة منح الشرعية لمؤتمر السقيفة ، وحاول تجريد النصوص النبوية من محتواها ، وذلك بإستخدام أُسلوب التلقين لمرتكزاتٍ موروثة مقدسة ، حملها في ذاكرته ، ولن يسمح لنفسه بمناقشتها يوماً ما ، حتّى سقط في مناظرته العلمية وهو يدافِع عن مقدماتٍ إتخذها لنفسه خاطئة ، وقد استعان بها في مناظرته ، أمثال أن حديث الغدير كان سببه تطييباً لنفس علي بن أبي طالب بعد مشاجرةٍ بينه وبين زيد بن حارثة وقد غفل أن زيد بن حارثة قد قتل قبل واقعة الغدير ، وهي كبوة تاريخية ، سجّلت تراجعاً كبيراً في موقف إسحاق الدفاعي ، ووهن ما ذهب إليه ، وهي الصورة الحقيقية لكثيرٍ من مناظرات اخواننا من الفرق الكلامية الأُخرى ، وقد اعتمدوا على مقدمات خاطئة لن تعينهم على ما تمسّكوا به ، ثمّ يحملون الطرف المقابل على التسليم به والأخذ بموجبه .

٦ ـ قدّمت الشرعية الإلٰهية للخلافة حججها الرصينة لكل من التزم جانبها ،

بغض النظر عن مذهبه ومعتقده، وهي تعمل على تسديده، بالحجة العلمية، وبالبرهان الموضوعي، وقد دعت المسلمين للالتزام بها، مناصرةً للحق ودحضاً للباطل، فلم تكن موقوفة على طرفٍ دون آخر ولم تستأثر بها جهة دون أُخرى، بل هو الحق يودع عند من يشاء، بشرط تأديته بأمانته العلمية، وهذا ما عمل به المأمون هنا، فمثّل جانباً من جوانب الدفاع عن الحق، والتزام جانب الشرعية، بغض النظر عن مذهبه ووجهة نظره، لذا ظهر موقفه قوياً بديعاً، وهو يتمسك بالبديهيات الحقة، وبان ضعف مناظره ووهنه، وهو يتوسل بأساليب ملتوية إبقاءً على نظرته التقليدية، التي ورثها من قومه.

٧ ـ كانت المناظرة حامية الوطيس، فَنَّدَ بها المأمون أربعين فقيهاً قد فتح لهم باب الحوار واستخدم معهم أساليب المناظر، لا أساليب الحاكم، للوصول إلى صيغة مشتركة ونظرة موحدة ، وقد ناظروه وهم آمنون، وحاججوه وهم طيبوا الخاطر للجو الذي أحدثه، حيث احتفظ كل واحد بشخصيته كمناظر فقيه أمام خصمه العلمي، لامتّهم ضعيف يمثل أمام الخليفة، كل ذلك من أجل احداث نظرةٍ جديدة للحدث الإسلامي وصياغةٍ موضوعية لمجريات التاريخ الإسلامي، إلّا أن الأربعين فقيهاً ـ وللأسف ـ تعاملوا مع خليفتهم تعاملاً لم يُحسدوْا عليه، فكان تلقيهم لنتائج المناظرة الجادة بأسلوب بارد وتعاملٍ باهت، وقد ختموا مؤتمرهم العلمي هذا باسلوبٍ منافق رسمي، وهو الدعاء للخليفة بحفظه وطول عمره، وكأن حجج المأمون اللاهبة القوية قد تعاملت مع صخرٍ أصمّ.

٨ ـ استطاعت حقائق الخلافة الشرعية أن تزحف إلى بلاط الخلافة العباسية لتكتسح أمامها ما غرسته أعوام الثقافة العجاف التي حاول العباسيون من خلالها تمييع حقوق آل البيت والقفز من خلالها على مواقع الخلافة، ودعم شرعية

الحكومة العباسية ، وإذا بحقائق الخلافة الشرعية تمتد لتضرب بأصولها الإلٰهية كل ما قدمته الخلافة العباسية من ترتيبات لاخفاء حقائق الأحداث !

٩ ـ روى هذا الخبر إسحاق بن إبراهيم نفسه وذكر تفاصيل ما جرى بينه وبين المأمون العباسي ، وقد ذكر جميع وقائعه وكيف كان يطرق برأسه عند تحيّره بالجواب ، وما استخدمه المأمون من حجج علمية وقضايا موضوعية ، فكانت روايته للخبر هذا وجميع من تناقله وكتبه وتحدث به إقراراً على الراوي والكاتب والمحّدث ، وقد تعارف في الفقه الإسلامي «أن الإقرار على نفس المقرّ حجة» ، فكان إسحاق قد حجّ نفسه ، بنفسه وتبعه على ذلك حماد بن زيد راوي الحديث ، وأقر بذلك ابن عبد ربه الأندلسي لنقله الحديث دون تعليق .

١٠ ـ يستخلص من هذه المناظرة ، أن قد أطاح المأمون العباسي بالشرعية العباسية ، وفتح الآفاق للمعارضة العلوية أن تتحرك ضمن الدائرة الشرعية التي أقرها المأمون ، ومهّد الطريق للآيدلوجية العلوية من أن تأخذ بمواقع الصدارة في صياغة الحدث الإسلامي العام ، مما أحدث شرخاً في الأيدلوجيات المطروحة والبديلة عن الأيدلوجية العلوية ، وقد كانت مناظرته هذه وأمثالها إدانة لمن كان قبله وحجة على من جاء بعده من خلفاء العباسيين وغيرهم ، بل ستمثل أيضاً إدانة أكبر للمأمون نفسه حين لا يتمثّل هذه المبادىء في سياسته ومتبنياته .

١١ ـ شكّلت شخصية المأمون المزدوجة مدرسة خاصة ، لها معالمها وشخصيتها المستقلة ، وقد ميزتها من بين شخصيات خلفاء بني العباس ، مما حدى بالدراسات التاريخية التي تكفلت دراسة هذه الشخصية أن ترتبك في نظرتها العامة ، لذا ذهبت بعضها إلى إقحام المأمون العباسي ضمن مدرسة آل البيت ، وقد غفلت عن الفجوة التي كانت بينه وبين شخصيات آل البيت حتّى تم

تنفيذ المسلسل التصفوي لرموز الشرعية الإلٰهية المتمثلة بالأئمة الأطهار على يده ، وتطرفت أُخرى حتّى أنكرت معرفته بفضل آل البيت وعلو مقامهم عنده ، فحصل من هذا وذاك دراسة مضطربة ونظرة مشوشة لمدرسة المأمون المعقدة ، ولعل ما نذهب إليه سيسهم في تخفيف أزمة دراسة الشخصية المأمونية ، فالمأمون ولدته جارية فارسية تسمى مراجل ، وكان البيت العباسي ينظر إلى المأمون بأنّه ابن أمة وليس مولده كمولد أخيه الأمين الذي كان بين عباسيين ، فأبوه الرشيد وأُمّه زبيدة بنت المنصور العباسي ، فكان يتمتع بالنظرة الشريفة المحترمة والمرتبة الرفيعة التي تميّزه عن أخيه المأمون ، وقد خلقت هذه النظرة تعاملاً لا إرادياً من قبل العباسيين إزاء المأمون وشاركت في تهيئة الجو الذي عزل المأمون عن التقاليد والأعراف العباسية وأبعدته عن حساباتها البعيدة ، مما خلق من المأمون شخصية متمردة على بني قومه تبحث عن كل جديد يسهم في إقصاء شخصية بيته وشرعية وجودهم ، وذلك لإثارة انتباه بني أبيه لشخصيته المهملة ، فقد فتح عينيه على العداء التقليدي الذي تمتع به العباسيون لآل البيت عليهم السلام ومحاولة إثبات شرعية الوجود العباسي في الخلافة ودفع العلويين عن مراتبهم الطبيعية ، وافتخارهم على آل علي بالخلافة المغتصبة التي حملتهم على رقاب المسلمين ، لذا حاول المأمون إحداث تغيير جديد على أنقاض النظرة البالية ، فراح يدرس النظرية الإمامية بكل جوانبها ، فإستهوته شاباً قد تفَتحت آفاقه على غير ثقافة البيت العباسي . .

لا يمكن تحديد دوافع هذه الثقافة ، والمؤرخون لم يحددوا موقفهم من هذه القضية عدا ما ذكره بعضهم أنه كان يتشيع أو معروفاً بتشيعه ، وسكتوا عن أسباب ذلك قال السيوطي: وكان [أي المأمون] معروفاً بالتشيع وقال: وفي سنة احدى ومائتين خلع أخاه المؤتمن من العهد وجعل ولي العهد من بعده علي الرضا بن

موسى الكاظم بن جعفر الصادق، حمله على ذلك افراطه في التشيع.. راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٨٥.

وأحسب أن هذا الكلام الذي يكتنفه الغموض، دفع بالمحققين بعد ذلك إلى التضارب في الأراء ولم يستقروا على مذهب واحد، والسر في ذلك ان دوافع المأمون التثقيفية التي كسرت الطوق التقليدي لبني أبيه، بقيت غامضة بشكل مقصود، ولعل التاريخ أغفل ذلك لحقائق فكرية تدخلت فيها توجهات سياسية غير نزيهة تستهدف تطويق حالة اعتقادية يشعر بها رؤوس النظام إلّا أنهم يخفونها في كوامن نفوسهم.

ولعل شعوراً قبلياً دعى المأمون أن يطّلع على غير ثقافة قومه، وهي دوافع وجدانية منحته دفعةً خيّرة للتقصي عن حقيقة مجريات كثير من الوقائع التاريخية التي اختزنها «أرشيف وثائقي» أودعه الخلفاء في صدورهم، ولم يظهروه لأسباب أمنية غير خافية، ومحاذير عقائدية كثيرة.

تحسس المأمون أن بني هاشم حينما كانوا «أمراء الناس السياسيين» في وقت من الأوقات، قد أحسنوا لبني عمومتهم العباسيين، بعد أن استبعدتهم حكومة الشيخين، والتي ينافح آباءَهُ العباسيين من أجلها اليوم، ورأى أن علياً بقدر ما أحسن لبني العباس فإن آباءه قابلوا ابناءه بالاساءة والتنكيل.

إن «الثقافة المغلقة» التي انتهجتها الانظمة ومنها بني العباس، لم تحل دون البحث عن الحقيقة فيما اذا توافرت مستلزمات البحث لدى الفرد مهما كان خطره، فالوجدان النفسي غير المنهجية السياسية أحياناً والشعور غير التكتيك، فلعل هواجس وجدانية تبعث على مخالفة ما انتهجه ذوو السلطان، والشعور بالرأي الآخر خلاف ما تقتضيه السياسة من ترتيب الأعراف، والمأمون مع كل

ذلك هو صنيعة آبائه الحريصين على الملك والسلطان.

والمأمون لم يحجر عليه كالآخرين من العامة ليقرأ الفكر الآخر، فهو ابن الخليفة الذي أضحى يتتلمذ على رجال الفقه والكلام، وعلوم حوادث الزمان ـ ولعل تأثير خاصته عليه كجعفر البرمكي والفضل بن سهل وكلاهما كان لهما هوى في التشيع أن لم نقل يتشيعان[١] ـ، فرأى فيما يراه المتطلع إلى معرفة ما وراء ثقافته أن هناك شيئاً آخر يختفي خلف هذا التقليد «المقدس»!

هذه المقدمة لعلها تهدينا إلى دوافع المأمون، فضلاً عن معاناة العزلة التي فرضها بيته العباسي ـ كما قدمنا ـ وتعامله على أنه ابن أمه، كل ذلك خلق فيه روحاً تطلعية إلى غير ثقافة البيت الحاكم، ولعل الخبر الذي أورده السيوطي سيعزز ما ذهبنا إليه:

قال: اسند الصولي أن بعض آل بيته قالت: انك على بر أولاد علي بن أبي طالب والأمر فيك، أقدر منك على برهم والأمر فيهم، فقال: انما فعلت ما فعلت لان أبا بكر لما ولي لم يولِ أحداً من بني هاشم شيئاً، ثم عمر ثم عثمان كذلك، ثم ولي علي فولى عبدالله بن عباس البصرة، وعبيدالله اليمن ومعبداً مكة، وقثم البحرين، وما ترك أحداً منهم حتى ولاه شيئاً، فكانت هذه «منّة» في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت[٢].

ثم أظهر مناظراته أنّه قد رأى من الحقّ في اطروحة أهل البيت عليهم السلام

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية. الدولة العباسية. محمد الخضري بك: ١٨١. ولعل ما يؤيد هذا الرأي هو البطشة المفاجئة التي فَتَكَ بها الرشيد بالبرامكة دون سابقة انذار ولا زالت تختفي أسبابها سوى الاحتمالات التي تصدت لتفسيرها.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٨٦ دار الفكر بيروت.

ورأى من الحق في أُطروحتها ما دعاه إلى إنصافها، عالماً طموحاً يريد أن يقرأ الحقيقة بعد كسر طوق العزلة الذي فرضه البيت العباسي على الأُطروحة الإمامية من أن تُدرس أو تلقى نظرة بسيطة على بعض جوانبها، فراح يُحلّق في جو النظرية الإمامية وهي تعطيه من الجديد ما يلبي رغباته العلمية وطموحاته، وتستجيب إلى وجدانه وفطرته كأنسانٍ يتمرد على واقعه المزّيف.. لكن ليس هذا وحده ما انطوى عليه سرّ المأمون، الذي لم يفته أن انسياق بلاد فارس وراء الدعوة العباسية إنما كان انسياقاً وراء شعارها الذي كانت ترفعه آنذاك وهو «طلب الرضا من آل محمد» وهو أقدر اليوم على تجديد هذا الشعار لأجل الإطاحة بأخيه الأمين المنافس له والمقدم عليه في الخلافة، فنجح في الإطاحة بأخيه الأمين واستولى على الخلافة وهو لا يزال يُعلن أحقية آل البيت، فأرسل على الأمام الرضاعليه السلام وعقد ولاية العهد له على رغم امتناع الإمام من قبولها.

ولكنّه بعد أن استقرّ به مقام الخلافة وقع فريسة لمطامعه السياسية وطموحه في الحكم وكانت حاشيته التي تحيطهُ متمثلة في فريق عمل سياسي ماكر يطمح للاستيلاء على كل شيء، فاستعمل الأساليب المبتذلة من أجل تثبيت قدم المأمون في الحكم وراح بعد ذلك يُقدّم للمأمون عروضه التصفوية لإقصاء الإمام الرّضا عليه السلام من منصبه الرسمي وقتله خوف توجه الأنظار إلى الشرعية العلوية، مما يمهّد لها أن تأخذ مكانها في الحدث الإسلامي، حتّى تورط في تنفيذ مؤمراته الخبيثة بقتل الإمام والاعتذار بأن موته كان طبيعياً!

لقد عاجلت المأمون مطامعه السياسية دون أن ينفّذ ما أخذه على نفسه من أحقية آل البيت في الخلافة، واستهوته مناصب الحكم وظهر أخيراً على حقيقته من خبث السريرة وما طُبع عليه من الطموح السياسي الذي ورثه من آبائه، وأطاح

بالنظرة القائلة أن المأمون في عداد القائلين بمذهب آل البيت وقد أسهم الإمام الرضاعليه السلام مبكراً في كشف هذه الصورة ونبّه إليها من خلال رفضه ما عرضه المأمون عليه من ولاية العهد لعلمه بما حمله من أهداف في مكنون نفسه ، وبعدم مصداقيته كشيعي يعترف بإمامة آل البيت ، وإلّا ليس من دأب الشيعي أو خُلقه أن يتجرأ على إمامه بتهديده إن لم يقبل بما عرضه عليه ، وليس من دأب الإمام أن تُعرض عليه الخلافة وهو يرفضها بعد كونه أهلاً لخلافة الله في أرضه ، فما الذي يمنع الإمامعليه السلام من أخذ حقه من الخلافة المغتصبة لو عرف بصدق نوايا المأمون وواقعيته ؟ لذا اسهمت جملة من الأحداث في خلق شخصية المأمون السياسية المعقدة ، فجمع بين حبه للشرعية الإلٰهية المتمثلة بآل البيت كانسان مجردٍ عن كل دافع ، وبين حبه للحكم وطموحه ، كسياسي محترف يُلبّي رغباته ومطامعه .

ثامناً ـ محمّد بن علي الجواد عليه السلام

وهو الإمام التاسع من أئمة آل البيت عليهم السلام ، خَلَفَ أبيه الرضا في العلم والفضل والتقوى والعبادة ، وكان وصيُّ أبيه وخليفته من بعده ، كانت له من الكرامات ما تسالم عليه الرواة وسطرته الكتب فكان من الشرف والسؤدد والقرب إلى الله تعالى ما استحق به الكرامة الإلٰهية والخلافة الربانية ، وقد أظهر الله على يديه بديع قدرته وعظيم فيضه ، فكان علمه وشرفه وورعه هو الوسيلة التي استطاع بها المأمون تحدي بني العباس ثانيةً ، والمراهنة على صحة ما أعلنه من فضله ونوَّه عليه من عظيم شرفه ، فكان المأمون مصراً على انتهاج سياسة التقريب العلوي ومحاولة القضاء على الأزمات السياسية العنيفة بالتقرب إلى أئمة آل البيت ، وخلق جوّ من التفاهم السياسي مع الحركات العلوية وتلطيف الأجواء السياسية المختنقة بالمعارضات المسلحة .

وانتهج سياسة المصالحة المؤقتة مع أطراف المعارضة ، فرأى ـ كما قدمنا ـ الحكمة في التقرب لآل البيت وجعلهم بهذه السياسة في قبضته متى شاء للقضاء على أشخاصهم كما كانت التجربة مع علي بن موسى الرضا عليه السلام ، ولما كان مقتله قد ألّبَ عليه الأمّة وأثار نقمة العلويين ، حاول تغطية حقائق اغتيال الإمام وإبعاد التهم ، وكان للاسلوب الذي بذله هو من جهة وجهازه الإعلامي من جهة أُخرى ، أثر في التبرئة «الرسمية» المؤقتة التي حاز عليها ، إلّا أنّ التهمة بقيت تشير إلى ارتكابه جريمة الاغتيال على الصعيدين الشعبي والعقائدي ، فعلى الصعيد الشعبي

اقتنعت جماهير الأُمّة بأن الإمام الرضا لم يسلم من محاولات ترتيب السياسة العباسية الجديدة، وحملة التصفيات هذه وبأسلوبها الجديد، لم يعزل الأُمّة عن وقائع التحالفات المصطنعة التي يفتعلها المأمون مع العلويين، وكانت الظروف السياسية التي تتجه نتائجها نحو آل البيت تلح على المأمون اتخاذ قرار تصفية الإمام قريباً أو بعيداً ولفترة لا تتجاوز استفحال حالة الولاء العلوي لدى الخراسانيين وقد نزل الإمام بين ظهرانيهم، فهم يراقبون الإمام وحياته الخاصة وقد ارتبطوا به ارتباطاً روحياً، في الوقت نفسه كانوا على اتصال بالحياة «الرسمية» التي يعيشها الإمام مع المأمون ويراقبون مدى التطورات الطارئة على علاقة الإمام بالسلطة وحالات الفتور التي تتخللها هذه العلاقة حتّى وصل الأمر إلى اطّلاعهم على محاولة التصفية الجسدية للإمام وقد دبّرها النظام باسلوبه التكتيكي، أما على الصعيد العقائدي فقد استقرت المسلمات العقائدية لشيعة الإمام وتعارفت على أنّه تمت تصفيته على يد الجهاز الحاكم سواء نفّذ العملية المأمون نفسه أم قام بها أحد أعوانه، وسواء كانت من قبل المأمون دون تأثير أحد أم كانت بتحريض من تيارات سياسية داخل البلاط، كل ذلك شارك في تكوين صورة واضحة عن تصفية الإمام الرضا على يد المأمون.

استفادت قوى المعارضة المسلحة من هذه الرؤية واستخدمتها منهجية ناجحة في ضرب المأمون، وتعاملت معها على أنها إحدى النكسات العقائدية والسياسية التي يرتكبها النظام، فمن جهته كان المأمون يعلن ولاءه لآل علي وحاول أن يجهر بمذهب آل البيت، وإذا به يتعامل مع الإمام على أنّه منافسٌ قويٌّ يزعزع نظام حكمه فينتهي الأمر إلى تصفيته، أمّا على الصعيد السياسي فإن التحالفات التكتيكية لا تليق بمركز الخلافة الإلٰهيه فبينما يعقد المأمون تحالفاته مع العلويين وإذا به يجهز على قيادتهم لتصفيتها ليكسب الجولة في إنهاء القواعد

المسلحة الموالية للإمام الرضا.

لذا اضطر المأمون للرجوع إلى سياسة التقرب مع الجناح العلوي ثانية، حيث أرسل على الإمام الجواد عليه السلام من المدينة ليقيم في عاصمة الخلافة، وذلك لأمرين، **أحدهما:** محاولة الأخذ بزمام المبادرة وسد الطريق على المعارضة المسلحة من أن ترفع شعار مظلومية آل البيت، ومحاولة دفع التهم التي تحوم حول إغتيال النظام للإمام الرضا عليه السلام.

والثانية: محاولة السيطرة على نشاطات الإمام الجواد وتقييد تحركاته، وإبعاد الأُمّة عن ساحته، وعدم ملاقاة القطاعات الشعبية العريضة من شيعته له واستبعادها عنه، وبذلك حصل المأمون على مكسبين سياسيين، هما: إظهار المصالحة مع البيت العلوي، والتحجير على تحركات الإمام وفرض الإقامة الجبرية عليه، وذلك بحجة تعلق المأمون بآل البيت ورغبته في القرب منهم، وهي عملية ذكية إلى حد ما، إلّا أن المأمون استفاد منها استفادة وقتية محدودة، واستفاد آل البيت منها استفادة كبيرة فتحت للأُمّة آفاق الاتصال معهم أكثر من الماضي، وتهيأت لهم سبل الحوار مع الجهات الفكرية المعارضة وعلى المستوى الرسمي، حيث عقد المأمون مجالس مناظرات وحلقات حوار علمي بين الإمام وبين الجهات العلمية الرسمية المتمثلة بقضاة الدولة وفقهائها الذين أشكلوا على المأمون بعدم لياقة الجواد لمنصب الإمامة وذلك لصغر سنه، وأراد المأمون رد هذا الإشكال وإثبات صحة وجهةنظره بأن لأهل هذا البيت عناية إلٰهية خاصة ترفعهم عن الحالات الطبيعية التي تحول دون تلقيهم فيوضات إلٰهية وعناية ربانية تميزهم عن غيرهم.

بل تحوّل تحدي الحوار العلمي الذي يُقيمه المأمون للإمام الجواد، من حوار

فكري لأثبات أهّلية الإمام، إلى حوار سياسي يثبت فيه المأمون صحة أُطروحته السياسية التي لم تلق استحسان العباسيين، إلّا أنّه في جلسات الحوار العلمي الأولى أثبت الإمام الجواد مقدرته العلمية الفائقة التي لم يتوقع أحد من الحضور توافرها لديه، واستطاع المأمون أن يكسب جولة سياسية ناجحة ضد خصومه الذين سفّهوا اعتقاده في الإمام، وذلك بعد أن أسقط ما في أيديهم من خلال الأسئلة التي طرحها الإمام وقد عجز عن الاجابة عليها جميع من حضر، والقصة مشهورة في كتب التاريخ والسير.[١]

إن إشكالية صغر السن لدى الإمام الجوادعليه السلام غدت موروثاً تقليدياً أفرزتها الظروف السياسية المحتدمة وأدخلتها الإمامية ضمن أدبيات مناظراتهم، وفي جملة حواراتهم القائمة بينهم وبين المدارس الإسلامية الأُخرى، فقد قدّم الإمامية أدلتهم في هذا الصدد من القرآن الكريم، حيث تحدّث عن يحيى بن زكريا وقد أعطاه الله الحكم صبياً، وفي عيسى حين كلّم قومه وهو في المهد صبياً، وأكدوا أن المعجز كما هو في الأنبياء فهو في أوصياء الأنبياء غير مستحيل، فإن العادة مخترقةٌ في أولياء الله، وارادته أكبر من أن تمنعها النواميس الطبيعية، ولما كانت تلك الأدلة قرآنية محضة تقتضيها فيوضات الله على أنبيائه وأوصيائهم، فلم يبق محيص من تأييدها من قبل المذاهب الأُخرى، مما دفع الفخر الرازي إلى القول في تفسيره للآية: **﴿يا يَحيَىٰ خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ ﴿وآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾**[٢]، قال: الحكم هو النبوة، فإن الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله تعالى قد بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان، لا كما بعث موسى ومحمّداً عليهما السلام

---

(١) سيأتي ذكرها لاحقاً في مناظرتهعليه السلام مع يحيي بن أكثم صفحة ٢٣٦.

(٢) مريم: ١٢.

وقد بلغا الأشد[١]. وقد ذهب إلى ذلك الفراء البغوي في تفسيره الموسوم بمعالم التنزيل[٢] ومثله ما ذكره غيره في قصص الأنبياء[٣] إلى غير ذلك من كتب التفسير لذا فإن الجدلية القرآنية للإمامية تغدو إحدى المفارقات المميزة لمذهبهم عن المذاهب الإسلامية الأخرى، وإذا سَمَتْ الأدلة إلى مستوى الحجج القرآنية فسيكون النزاع في مستوى التطبيق لا في حيز التصديق، وسيغدو الصراع سياسياً أكثر منه علمياً صرفاً.

لقد احتفظ التاريخ الإسلامي بوقائع الحوار العلمي الذي رتّبه المأمون العباسي للإمام الجواد، وسجّلهُ كأروع ما تكون المناظرات العلمية التي يحفها طابع ساسي صرف، ولعلنا لن نبالغ في القول إذا قلنا إنّ هذه المناظرات العلمية كانت الرهان على إبقاء قوة المأمون السياسية، إذا لم نقل أن بقاء حكمه كان موقوفاً عليها.

ومن ناحية أُخرى فلسنا نجانب الحقيقة إذا أعددنا مجالس الحوار هذه ونتائجها بمثابة إحدى الدفعات العلمية ذات الحضور السياسي لمذهب آل البيت الذي حُبس في أنفاس شيعته لفترة ليست بالقليلة، وكانت عقائد المذهب محجوراً عليها إبّان العهدين الأموي وبدايات الحكم العباسي، وذلك لعدّهم إيّاه مذهباً معارضاً لا مذهباً رسمياً، حتّى كلفته هذه النظرة التقليدية الرسمية أن يقّدم طروحات الشهادة والتضحية، كما قدّم في الوقت نفسه طروحاته العلمية النابعة من صميم القرآن.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١١: ١٩٢.

(٢) معالم التنزيل للفراء البغوي ٣: ١٩٠، دار المعرفة بيروت.

(٣) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار: ص٣٩٠، دار أحياء التراث العربي بيروت.

وصف ابن حجر الهيثمي النظرة الخاصة التي يوليها المأمون للإمام الجواد بقوله: فلم يزل مشفقاً به لما ظهر له بعد ذلك من فضله وعلمه وكمال عظمته وظهور برهانه مع صغر سنه، وعزم على تزويجه بابنته أم الفضل، وصمم على ذلك فمنعه العباسيون من ذلك خوفاً من أن يعهد إليه كما عهد إلى أبيه، فلما ذكر لهم أنّه إنّما اختاره لتميزه على كافة أهل الفضل علماً ومعرفة وحلماً مع صغر سنه فنازعوا في اتصاف محمّد بذلك، ثمّ تواعدوا على أن يرسلوا إليه من يخبّره فأرسله إليه يحيى بن أكثم ووعدوه بشيء كثير إن قطع لهم محمّداً، فحضروا للخليفة ومعهم ابن أكثم وخواص الدولة فأمر المأمون بفرش حسن لمحمد فجلس عليه، فسأله يحيى مسائل أجابه عنها بأحسن جواب وأوضحه، فقال له الخليفة: أحسنت أبا جعفر، فإن أردت أن تسأل يحيى ولو مسألة واحدة، فقال له: ما تقول في رجل نظر إلى أمرأة أوّل النّهار حراماً، ثمّ حلّت له ارتفاعه، ثمّ حرمت عليه عند الظهر، ثمّ حلّت له عند العصر، ثمّ حرمت عليه المغرب، ثمّ حلّت له العشاء، ثمّ حرمت عليه نصف اللّيل، ثمّ حلّت له الفجر؟ فقال يحيى: لا أدري.

فقال محمّد: هي أمة، نظرها أجنبي بشهوة وهي حرام، ثمّ اشتراها ارتفاع النّهار، فأعتقها الظهر، وتزوجها العصر، وظاهرَ منها المغرب، وكفّر العشاء، وطلقها رجعياً نصف الليل، وراجعها الفجر.

فعند ذلك قال المأمون للعباسيين قد عرفتم ما كنتم تنكرون، ثمّ زوجه في ذلك المجلس ابنته أم الفضل..»[1].

وإذا أضفنا هذه الواقعة إلى مسلسل الانكسارات العلمية التي لاحقت فقهاء

---

(١) الصواعق المحرقة: ص٢٠٦.

البلاط طيلة وجود الإمام الجواد إلى جانب المأمون، عرفنا مدى الخطط التي حيكت لتصفية الإمام، ومنه نعرف حجم المساعي التي بذلها الفقهاء والقضاة آنذاك لاقصاء المذهب الإمامي واستبعاده كمذهب من المذاهب الإسلامية له حضوره العلمي الفعال في إرساء الفكر الإسلامي الرشيد.

لقد وصفت فترة الإمام الجواد من أحلك الفترات التي واجهت المذهب الإمامي وقياداته، حيث كانت مهددة بالتصفية الفكرية كما هي مهددة بالتصفية الجسدية، وسعى الآخرون إلى سحب الشرعية منه، ثمّ توجيه الضربة النهائية لتصفية قواعده بعد إنهاء قياداته، وكان لابد أن تكون مساعي أئمته حافلةً بالأدلة الخارقة للعادة حتّى لا يبقى بعد ذلك مجالٌ للتشكيك في مصداقيتها، ومن ثَمّ تراجعت كل الجهود التي رسّخت حالة العداء التقليدي لدى العامة فضلاً عن المحافل الرسمية، حتّى تكفّلت المدارس الأخرى أن تُسجل بدائع ما جرت للإمام الجواد من كرامات ودلائل، فقد نقل النبهاني في جامع كرامات الأولياء عن كرامات الإمام الجواد ما هذا نصه:

محمّد الجواد بن علي الرضا: أحد أكابر الأئمة ومصابيح الأُمّة من سادتنا أهل البيت، ذكره الشبراوي في الإتحاف بحب الأشراف، وبعد أن أثنى عليه الثناء الجميل وذكر شيئاً من مناقبه وما جرى له مما دل على فضله وكماله، حكى أنّه لما توجه عليه السلام من بغداد إلى المدينة الشريفة خرج معه الناس يشيعونه للوداع فسار إلى أن وصل إلى باب الكوفة عند دار المسيب فنزل هناك مع غروب الشمس ودخل إلى مسجد قديم مؤسس بذلك الموضع يصلي فيه المغرب، وكانت في صحن المسجد شجرة نبق لم تثمر قط فدعا بكوز فيه ماء، فتوضأ في أصل الشجرة فقام وصلى معه الناس المغرب فقرأ في الأولى بالحمد لله وإذا جاء نصر

الله والفتح ، وقرأ في الثانية بالحمد لله وقل هو الله أحد ، ثم بعد فراغه جلس هنيهة يذكر الله ، وقام فتنفل بأربع ركعات وسجد معهن سجدتي الشكر ، ثمّ قام فودع الناس وانصرف ، فأصبحت النبقة وقد حملت من ليلتها حملاً حسناً ، فرآها الناس فتعجبوا من ذلك ، وهذا من بعض كراماته الجليلة ومناقبه الجميلة[١] .

---

(١) جامع كرامات الأولياء للنبهاني ١: ١٦٨، الاتحاف بحب الاشراف: ٦٤.

تاسعاً ـ علي بن محمّد الهادي عليه السلام

عاشرُ أئمة آل البيت عليهم السلام، ورث من أبائه العلم والحكمة والتقوى، كما ورث المحن السياسية التي أفرزتها ظروف سياسية غير ناضجة، أو نظرة جماهيرية غير متوازنة، فمن جهتها تعاملت القطاعات الشعبية مع النظام على أنّه جهاز سلطة يعنى بالترتيبات السياسية التي تضمنُ بقاءه في الحكم وهي التوجهات النهائية الكامنةُ وراءها جميع تحركاته، وإذا كان كذلك فإن الحالة هذه ستترك آثارها التراجعية على الثقة المتبادلة بين الأُمّة وبين النظام، ومن جهة ثانية كانت العلاقة بين الأُمّة وبين آل البيت عليهم السلام أكبر من ذلك فهي تستوعب حاجة الأُمّة الروحية التي تربطها مع الله تعالى، فضلاً عن الحاجات الأُخرى التي تحتاجها الأمّة في شؤون حياتها، فقد تعاملت مع آل البيت على أنّهم ورثة الكتاب وخزنة علم وحي الله، وكانت الأُمّة تأنس لوجودهم وتطمئن وهم بين ظهرانيها، والتيارات الفكرية العارمة تبعث بزوابعها لتقلع ثوابت أرستها الرسالة وجَهَدَ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في تثبيتها، ولما كان الأمر كذلك فإن المَفزع الروحي فضلاً عن المرجع الفكري ستجده الأُمّة لدى ورثة النّبيّ وحملة رسالته، وطبيعي أن هذا التعامل المزدوج بين الأُمّة وبين السلطة، وكذلك التعامل الآخر بينها وبين آل البيت، قد ترك فجوة لا يستهان بها بين الأُمّة وبين السلطات الحاكمة، أهوتْ بأكثر مشاريعها نحو مفاهيم ضيقة لا تتعدى أكثر من منطق المصلحة الشخصية التي تضمن إبقاء النظام بسطوته المعهودة، وإذا كان كذلك فإن الأُمّة تتجه بكل ثقلها نحو آل البيت الذين يعبّرون

عن آمال الأمّة وآلامها، وتترك السلطة لتخسر شرعيتها يوماً بعد آخر دون الوصول إلى المفهوم الشرعي للخلافة الذي قدّمهُ العباسيون يوم كانوا معارضين قبل أن يكونوا حكاماً، وهو الأمر الذي أفزع النظام فراح يبحث عن طرق يعيد الثقة المفقودة بينه وبين الأمّة، فوصل وهو في عهد المتوكل العباسي إلى قناعةٍ تامة بالقضاء على قيادات آل البيت وتصفيتهم ليقطع الطريق على المد الشرعي الذي سيكتسح عاجلاً رموز النظام، هكذا توجس المتوكل، وهو آخر ما توصلت إليه تقديراته السياسية، فراح يلاحق آل البيت وينكّل في قواعدهم العريضة، وابتكر أسلوباً جديداً في التنكيل لم يسبقه إليه أحدٌ من أسلافه، حيث أعلن الحظر العام على زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وَجُوبِهَ القرار بتحدٍ جماهيري عام أفزع النظام فبطش بالزائرين الوافدين على القبر الشريف، ثمّ هدّمه وأجرى الماء عليه!

قال السيوطي: وفي سنة ست وثلاثين أمر [أي المتوكل] بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل مزارع، ومنع الناس من زيارته، وخُرّب، وبقي صحراء، وكان المتوكل معروفاً بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمهُ على الحيطان والمساجد، وهجاهُ الشعراء، فمما قيل في ذلك:

بالله ان كانت أمية قد أتت … قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله … هذا لعمري قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا … في قتله، فتتبعوه رميما[1]

كل ذلك والإمام الهادي عليه السلام لم يتخذ إجراءً معادياً ضد النظام، بل التزم التعامل السلمي ومسلك التصالح والمهادنة كتدبير وقتي للحفاظ على القطاعات

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٢١، دار الفكر ـ بيروت.

الشيعية المستضعفة والمهددة بالسحق من قبل النظام، إلّا أن ذلك لم يقنع النظام الذي تمرّس على التعامل الجريء مع أي تحرك مستقبلي محسوب يدخله المتوكل في برامجه الأمنية لتصفية مناوئيه، وكان تحركه مكشوفاً، فلم يعبأ بأي تغطية إعلامية تسترضي الأمّة كما كان يفعل أسلافه من قبل، ولم يُدخل في حساباته أدبيات المعارضة وهي تستقطب ضمير الأُمّة لتكسب الجولة فيما بعد، فراح يسيء التعامل مع الإمام وكرر بعثه إليه واستجوابه له، وفي كل مرة كان المتوكل يتراجع عن تنفيذ أي إجراء عزم عليه، وذلك لما يدخله من هيبة الإمام وعظمته، وهي الحالة التي غيّرت معادلات البعض في تعاملهم مع الإمام واستقطبت آخرين في انضمامهم إليه.

قال ابن خلكان: أبو الحسن علي الهادي بن محمّد الجواد بن علي الرضا.. ويعرف بالعسكري، وهو أحد الأئمة الإثني عشر عند الإمامية، كان قد سُعي به إلى المتوكل وقيل إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته، وأوهموه أنّه يطلب الأمر لنفسه، فوجّه إليه بعدة من الأتراك ليلاً فهجموا عليه في منزله على غفلة، فوجدوه وحده في بيت مغلق وعليه مدرعة من شعر وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، ليس بينه وبين الأرض بساط إلّا الرمل والحصى، فأُخذ على الصورة التي وجد عليها وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل عنه ولا حالة يتعلق عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده، فقال: يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط فأعفني منه، فأعفاه وقال: أنشدني شعراً.

فأنشده:

باتوا على قللِ الأجبال تحرسهم   غُلب الرجال فما أغنتهم القُللُ

واستنُزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم	فأُودِعوا حُفَراً يابئس ما نزلوا
ناداهُمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا	أين الأسِرةُ والتيجان والحللُ
أين والوجوه الي كانت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساءَلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

قال: فأشفق من حضر على علي، فظن أن بادرة تبدر إليه، فبكى المتوكل بكاء كثيراً حتّى بلت دموعه لحيته، وبكى من حضره، ثمّ أمر برفع الشراب، ثمّ قال: يا أبا الحسن، أعليك دين؟

قال: نعم، أربعة الاف دينار فأمر بدفعها إليه ورده إلى منزله مكرماً[١].

كان الإمام الهادي عليه السلام يعيش معاناة الأُمّة ومحنتها، وكان يجتهد في إيجاد الحلول الناجعة للتخفيف من أزماتها، روحية كانت أو معنوية أو مادية، فقد سعى مثلاً لقضاء دين رجل جاءه يشكوه مما ركبه من دين لا يقوى على قضائه، حيث روى ابن حجر الهيثمي في تاريخه للإمام الهادي ما نصه: وكان وارث أبيه علماً وسخاءً، ومن ثمّ جاءه أعرابي من أعراب الكوفة وقال: إني من المتمسكين بولاء جدك وقد ركبني دين أثقلني حمله ولم أقصد لقضائه سواك. فقال: كم دينك؟ فقال: عشرة آلاف درهم. فقال طب نفساً بقضائه إن شاء الله تعالى، ثمّ كتب له ورقة فيها ذلك المبلغ ديناً عليه، وقال له ائتني به في المجلس العام وطالبني بها وأغلظ علي في الطلب، ففعل، فاستمهله ثلاثة أيّام فبلغ ذلك المتوكل فأمر له بثلاثين ألفاً، فلما وصلتهُ أعطاها الأعرابي، فقال: يا بن رسول الله، إن العشرة آلاف أقضي بها أربي، فأبى أن يسترد منه من الثلاثين شيئاً، فولى الاعرابي وهو

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٧٢.

يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[١].

لقد تعامل الإمام الهاديعليه السلام مع مناوئيه كما هو مع مريديه، بكل ما تـمثّله السماء من رحمة وهدايةٍ وسكينة.

---

(١) الصواعق المحرقة: ص٢٠٥.

عاشراً ـ الحسن بن علي العسكري عليه السلام

هو الحادي عشر من أئمة آل البيت عليهم السلام ، احتدم الصراع في وقته بين البيتين العباسي والعلوي ، وكان النظام قد أجج المواجهة بين هذين البيتين على أثر الأخبار الواردة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بأن المهدي الموعود من الحسن بن علي ، وكانت الأطروحة السياسية التي أقرتها الدولة تدعو إلى إيقاف المد العلوي الذي سيبلغ أوجه عند ولادة المهدي من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد أذعنت الأُمّة إضافة إلى بني العباس للتصديق بالأخبار الواردة في المهدي ، وأنّه سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً ، وهي إشارة صريحة إلى عدم مشروعية الأنظمة القائمة غير المرتبطة بأطروحة آل البيت ، فقد قامت الأنظمة المعهودة على جماجم المعارضة الإسلامية العلوية ، واشتهر حكامها بالولوغ في الدماء البريئة ، وارتكاب ما ينافي قيم العدل الإسلامي ، حيث اتخذت الأنظمة القائمة آنذاك سلوكية السلطة الضاربة بكل ثقلها لأية معارضة قائمة مشروعة مهما بلغت التضحيات البريئة والدماء النازفة ، وهي إحدى الاشكاليات التي أثارتها الدعوة العباسية إبّان ظهورها بوجه دولة بني أُميّة في إيغال الأخيرة بدماء العلويين وعلى الظنة والتهمة من أجل تثبيت دعائمها ، وإذا بالدولة العباسية تتورط بنفس مشكلة الابتزاز الفكري والإرهاب المسلح ، ومن ثَمّ عقد الحكام نفس مجالس الترفيه التي أقامها الأمويون وقد كان العباسيون يثيرون التشكيك في مشروعية خلافتهم القائمة على مجالس العبث تلك التي كان يُحييها بلاط الخلافة الإسلامية ، حتى

لاقت هذه التشكيكات رواجها في مجتمع إسلامي ترتكز في ذهنيته قداسة الخلافة القائمة على ورع الخليفة وتقواه، وكونه الأنموذج الأمثل لتطبيق الشريعة في رحاب القرآن ومعطيات السنة الشريفة.

لقد وجدت الأُمّة في السلطة القائمة، التجربة الجديدة وباسلوبها الأعنف في إعادة ما كانت تمارسه الخلافة الأموية، واستحدث الحكام صيغاً جديدة للإرهاب الفكري والتصفيات الجسديه ضد خصومهم، ووجدت الأُمّة تدنّي المفاهيم الإسلامية في ظل السلطة القائمة إلى حد ممارسة المنكر الذي صار في المفهوم العام معروفاً، وتعطيل المعروف الذياستوحشه الناس ليكون منكراً، وهو الأمر الذي أدخل على الأمّة تكلفة باهضةً من استبدال مفاهيم أجنبية جديدة بالمفاهيم الإسلامية الأصيلة، فكان لدخول العنصر النصراني في بلاط الخلافة الإسلامية وتوليه منصب الوزارة أو الحجابة أثر بالغ في تنصير المفاهيم الإسلامية لدى البلاط وحاشيته، فالخمر صار تداولها من الأمور التشريفية التي أدخلها الحكام في مراسمهم، والرقص والغناء أصبح الفن الشائع الذي يفتتن به الحاكم للترويح عن نفسه، والبذخ والإسراف كان من تشريفات القصر الذي يجود به عطاء سيده، وصاحب هذه الحالات التدني في الأوضاع الأخلاقية لدى الناس.

كما كان لإدخال العنصر الرومي مرة وإقحام العنصر التركي أخرى فيإدارة شوؤن البلاد وسياسة الدولة أثره الواضح في استيراد العادات والمفاهيم الجديدة، هذا والحالة الاقتصادية للبلاد، والقوة الشرائية للأمّة يزدادان سوءاً لعدم انضباط موازنات الدولة الاقتصادية التي كان يتحكم بها الجشع والشره وجباية الأموال، ممّا أضعف القدرة على إيجاد حياة اقتصادية كريمة، فسبب ذلك إيجاد طبقة عريضة من المعدمين والشحاذين والمستضعفين في صفوف الأمّة، وهكذا

عاشت البلدان الإسلامية حالات التمرد الثوري الداعية للإصلاح العام، واستبعدت الدولة مبادئ الحوار الديمقراطي مع المعارضة، ورفضت اسلوب التفاهم بينهما، وكانت اطروحتها إنهاء الحركات الثورية مهما كلفت الدماء، والتزمت أُسلوب الربح والخسارة في تعاملها العسكري العنيف إبقاءً لهيبة السلطة من أن تظهر أمام مناوئها بمظهر الضعف والوهن، وهو الأمر الذي كلف الأُمّة تقديم تضحيات جسيمة على طول الخط الممتد عشرات السنين، فجهد الحكام إلى ابتكار أساليب جديدة للتنكيل بمعارضيهم وتصفية خُصومهم، وكان لآل البيت عليهم السلام حظ أوفر من أساليب التنكيل، وكان لمعارضتهم الصامتة وقعها في نفوس الأُمّة، مما أفزع السلطة من ميل الطبقات العريضة للأُمّة إلى آل البيت عليهم السلام.

وكان للإمام الحسن بن علي العسكري التجربة الأعنف من قبل السلطة للحد من نشاطه، وذلك لتيقن الحكام بولادة المهدي من صلب الحسن بن علي، فجدّوا في تحديد تحركه، واجتهدوا في مراقبة المولود الجديد القادم، وأفزعهم الأمر حتّى صاروا يتحرون الأخبار الخاصة من بيت الإمام لمعرفة ولادة الجديد من آل البيت، وإجراء ما يلزم إجراؤه من تصفية ومطاردة القائلين بإمامته، لذا عانى الإمام العسكري عليه السلام من أُسلوب السلطة الجديدة وذلك بفرض الإقامة الجبرية مرة، وحبسه أُخرى، والتنكيل بشيعته ثالثة.

لقد استطاع الإمام العسكري بالرغم من هذه الظروف العصيبة التوفيق بين اخفاء الوليد الجديد وبين مجاراة الوضع العام، محافظاً على أُسلوب التفاهم وإقامة العلاقات العامة بين أفراد الأُمّة وعدم الإنعزال تماماً لممارسة بعض من مهامه على الأقل، وكانت السلطة بسبب ذلك تأخذ في الإعتبار مداراة الرأي العام، بل كانت لا تستطيع إغفال دوره الديني والإجتماعي والتعتيم على شخصيته

لشدّة تمكّنها في قلوب الأمّة.

هذا وقد أورد بعض اصحاب السير والتاريخ كرامات له تدل على عظيم شأنه وقربه إلى الله تعالى، وفي الوقت نفسه تشير إلى مدى الابتذال في ممارسات السلطة مع أئمة آل البيت عليهم السلام.

قال الشبلنجي: حدّث ابو هاشم داود بن قاسم الجعفري قال: كنت في الحبس الذي فيه الجوسق أنا والحسن بن محمّد ومحمّد بن إبراهيم العمري وفلان وفلان، خمسة أو ستة، إذ دخل علينا أبو محمّد الحسن بن علي العسكري وأخوه جعفر، فحففنا بأبي محمّد، وكان المتولي للحبس صالح بن يوسف الحاجب، وكان معنا في الحبس رجل أعجمي، فالتفت إلينا أبو محمّد وقال لنا سرّاً: لولا أن هذا الرجل فيكم لأخبرتكم متى يفرج الله عنكم، وهذا الرجل قد كتب فيكم قصه إلى الخليفة يخبره فيها بما تقولون فيه وهي معه في ثيابه يريد الحيلة في إيصالها إلى الخليفة من حيث لا تعلمون، فاحذروا شرّه قال أبو هاشم: فما تمالكنا أن تحاملنا جميعاً على الرجل ففتشناه فوجدنا القصة مدسوسة معهُ في ثيابه وهو يذكرنا فيها بكل سوء، فأخذناها منه وحذرناه وكان الحسن يصوم في السجن فإذا أفطر أكلنا معه من طعامه، قال أبو هاشم: فكنت أصوم معه، فلما كان ذات يوم ضعفت عن الصوم فأمرت غلامي فجاء لي بكعك فذهبت إلى مكان خال في الحبس فأكلت وشربت، ثمّ عدت إلى مجلسي مع الجماعة ولم يشعر بي أحد فلما رآني تبسم، وقال: أفطرت فخجلت! لا عليك يا أبا هاشم إذا رأيت أنك قد ضعفت وأردت القوه فكل اللحم فإن الكعك لا قوة فيه! وقال: عزمت عليك أن تفطر ثلاثاً، فإن البنية إذا أنهكها الصوم لا تتقوى إلّا بعد ثلاث. قال أبو هاشم: لم تطل مدة أبي محمّد الحسن بن علي في الحبس بسبب أن قحط الناس بسر من

رأى قحطاً شديداً فأمر الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل بخروج الناس إلى الاستسقاء، فخرجوا ثلاثة أيّام يستسقون فلم يُسقوا، فخرج الجاثليق في اليوم الرابع إلى الصحراء وخرج معه النصارى والرهبان وكان فيهم راهب كلما مد يده إلى السّماء هطلت بالمطر، ثمّ خرجوا في اليوم الثاني وفعلوا كفعلهم أوّل يوم فهطلت السماء بالمطر، فعجب الناس من ذلك وداخل بعضهم الشك وصبأ بعضهم إلى دين النصرانية، فشق ذلك على الخليفة، فأنفذ إلى صالح بن يوسف أن أخرج أبا محمّد الحسن من الحبس وائتني به، فلمّا حضر أبو محمّد الحسن عند الخليفة قال له: أدرك أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فيما لحقهم من هذه النازلة العظيمة!

فقال أبو محمّد: دعهم يخرجون غدا اليوم الثالث فقال له: قد استغنى الناس عن المطر واستكفوا، فما فائدة خروجهم قال: لأزيل الشك عن الناس وما وقعوا فيه.

فأمر الخليفة الجاثليق والرهبان أن يخرجوا أيضاً في اليوم الثالث على جاري عادتهم، وأن يخرج الناس، فخرج النصارى وخرج معهم أبو محمّد الحسن ومعه خلق من المسلمين، فوقف النصارى على جاري عادتهم يستسقون وخرج راهب معهم ومد يده إلى السماء ورفعت النصارى والرهبان أيديهم أيضاً كعادتهم فغيمت السماء في الوقت ونزل المطر فأمر أبو محمّد الحسن بالقبض على يد الراهب وأخذ ما فيها فإذا ما بين أصابعه عظم آدمي، فأخذه أبو محمّد ولفّه في خرقه، وقال لهم: استسقوا: فانقشع الغيم وطلعت الشمس! فتعجب الناس من ذلك، وقال الخليفة: ما هذا يا أبا محمّد؟ فقال هذا عظم نبي من أنبياء الله ظفر به هؤلاء من قبور الأنبياء وما كشف عن عظم نبي من الأنبياء تحت السماء إلّا هطلت بالمطر! فاستحسنوا ذلك وامتحنوه فوجدوه كما قال، فرجع أبو محمّد الحسن إلى داره في سرّ من رأى وقد أزال عن الناس هذه الشبه وسُرّ الخليفة والمسلمون

بذلك .

وكلم أبو محمّد الحسن الخليفة في إخراج أصحابه الذين كانوا معه في السجن فأخرجهم وأطلقهم من أجله .. قال نقله غير واحد[١].

وعن عيسى بن الفتح قال: لما دخل علينا أبو محمّد الحسن الحبس ، قال لي: يا عيسى لك من العمر خمس وستون سنة وشهر ويومان ، قال: وكان معي كتاب فيه تاريخ ولادتي فنظرت فيه فكان كما قال ، ثمّ قال: هل رزقت ولداً . قلت: لا . فقال: اللّهمّ ارزقه ولداً يكون له عضداً فنعم العضد الولد ، ثمّ أنشد:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته إن الذليل الذي ليست له عضد

فقلت: يا سيدي وأنت لك ولد ؟ فقال إنّي والله سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وأمّا الآن فلا[٢].

وهكذا كانت حياة أبي محمّد العسكري ، فبالرغم من اعتراف النظام بفضله وعظيم شأنه إلّا أنّه كان لا يفتأ ينكّل به ويضيّق عليه تحسباً من الوليد الميمون المبارك القادم لتنفيذ كلمة الله في أرضه وعباده .

لقد تُرجم الحسن بن علي العسكري بأنّه واحد من أئمة الأُمّة وساداتها ، وقد أثنت عليه جميع الكتب وذكرته بأحسن الصفات وأكرم النعوت .

قال صاحب كرامات الأولياء: الحسن العسكري أحد أئمة ساداتنا آل البيت العظام وساداتهم الكرام رضي الله عنهم أجمعين ، وقد رأيت له كرامة بنفسي ،

---

(١) نور الأبصار للشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي: ص ١٨٤ دار الفكر الطبعة الأخيرة / ١٩٧٩ وذكر ذلك ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: ص٢٠٧.

(٢) المصدر السابق.

وهي: أحببنا أن نزور الإمام الحسن العسكري المذكور وهو مدفون فيها، أي سرّ من رأى، فحينما دخلت على قبره الشريف حصلت لي حالة روحانية لم يحصل لي مثلها قط إلّا حينما زرت نبي الله يونس في الموصل، فقد حصلت لي تلك الحالة أيضاً، وهذه كرامة له عليه السلام ..[١]

وترجم له الزركلي في إعلامه بقوله: الحسن بن علي الهادي بن محمّد الجواد الحسيني الهاشمي أبو محمّد الإمام الحادي عشر عند الإمامية .. وكان على سنةِ سلفه الصالح تقى ونسكاً وعبادةً ..[٢].

ولدى محيي الدين بن العربي عبارته الخاصة في وصفه عليه السلام، إذ يقول: البحر الزاخر، زين المآثر والمفاخر .. الشاهد لأرباب الشهود، والحجّة على ذوي الجحود .. معرّف حدود حقائق الربانية، متنوّع أجناس عوام السبحانية .. عنقاءُ قاف القِدم، طاوُس روضة الفضل والكرم .. العالم بما جرى به اللوح والقلم، القائم مرقاه الهمم .. وعاء الامانة، ومحيط الامة .. مطلع النور المصطفوي، الحسن بن علي العسكري عليه السلام[٣].

إن شخصية الحسن بن علي قد فرضت وجودها على التاريخ الإسلامي بقدر ما فرضته على البيت العباسي، وقد واجهت حياته في كتابات التاريخ الإسلامي من إخفاء المزايا ومحاولة تغييب دوره الكريم بقدر ما واجهته من خطط السلطة لعزله وإخفاء فضله وكراماته، إلّا إنّه ظهر من هذا وذاك ما أوجب القول بامامته وإستحقاقه لخلافة الله في أرضه.

---

(١) جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢: ٢٢.
(٢) الاعلام للزركلي ٢: ٢٠٠ دار العلم للملايين الطبعة السادسة / ١٩٨٤.
(٣) المناقب لابن العربي ـ مطبوع مع كتاب وسيلة الختام ـ: ٢٩٧.

الحادي عشر ـ الإمام محمد بن الحسن المهدي صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف:

هو الثاني عشر من أئمة آل البيت عليهم السلام الذي تقول به الإمامية، وتروي في ذلك صحاحاً قد تواترت بين الفريقين.

فالمهدي: من آل محمد، ومن ولد فاطمة، وهذا ثابت في الصحاح، وقد آمن به سائر المسلمين.

ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف[1].

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام: المهدي من أهل البيت يصلحه الله في ليلة[2].

وعن سعيد بن المسيب قال كنّا عند أُم سلمة فتذاكرنا المهدي فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: المهدي من ولد فاطمة[3].

ومن الطريق نفسها عن أُم سلمة ما لفظه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر

---

(١) معالم السنن، شرح سنن أبي داود، لأبي سليمان الخطّابي البستي ٤: ٣١٧ دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة. محمد صدّيق حسن: ٣٩٥ مطبعة المدني القاهرة.

(٣) شرح سنن ابن ماجه للإمام السندي ٢: ٥١٩ دار الجيل بيروت.

المهدي فقال: هو حق، وهو من بني فاطمة(١).

قال الشريف محمد بن رسول الحسيني البرزنجي المدني في أحد تنبيهاته في كتابه الإشاعة لاشراط الساعة قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان، وأنه من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة عليها السلام، بلغت حد التواتر المعنوي، فلا معنى لانكارها(٢).

وهو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، كما تفيده الأحاديث الصحيحة:

عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من ولدي اسمهُ كاسمي» فقال سلمان من أي ولدك يا رسول الله ؟ قال: «من ولدي هذا» وضرب بيده على الحسين(٣).

ومثله ما أخرجه الدار قطني صاحب الجرح والتعديل، كما رواه صاحب البيان(٤).

وقد صرّح بذلك ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه فقال:

وقوله في آخرها «وبنا تُختم لا بكم» إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الزمان. وأكثر المحدثين على أنه من ولد فاطمة عليها السلام. وأصحابنا المعتزلة لا

---

(١) الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ـ محمد صدّيق حسن: ٣٩٥.
(٢) الإشاعة لاشراط الساعة للشريف البرزنجي المدني ٣٤٩ طبعة أولى القاهرة.
(٣) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى محب الدين الطبري: ١٣٦ دار المعرفة بيروت. ونفس اللفظ عند الجويني في فرائد السمطين إلّا أنه قال: فضرب بيده على ظهر الحسين (رض). أنظر فرائد السمطين للجويني ٢: ٨٣ تحقيق الشيخ باقر المحمودي.
(٤) أنظر البيان في أخبار صاحب الزمان (عج) أبو عبد الله محمد بن يوسف الكنجي الشافعي: ٤٠٢ مكتبة الرضي الطبعة الثانية ١٤٠٤ هق.

ينكرونه، وقد صرّحوا بذكره في كتبهم، واعترف به شيوخهم.. وروى قاضي القضاة رحمه الله عن كافي الكفاة أبي القاسم إسماعيل بن عباد رحمه الله باسناد متصل بعلي عليه السلام أنه ذكر المهدي، وقال: إنه من ولد الحسين عليه السلام، وذكر حليته، فقال رجل: أجلى الجبين، أقنى الأنف، ضخم البطن، أزيل الفخذين، أبلج الثنايا، بفخذه اليمنى شامة...

وذكر هذا الحديث بعينه عبدالله بن قتيبة في كتاب «غريب الحديث»[1].

والمهدي هو محمد بن الحسن العسكري، وهو ما صرحت به الأحاديث الصحيحة:

منها: ما رواه الجويني الخراساني في فرائد السمطين بإسناده إلى الامام الرضا عليه السلام في حديث طويل. قيل له: يا بن رسول الله ومن القائم منكم أهل البيت؟

قال: الرابع من ولدي، ابن سيدة الإماء، يطهر الله به الأرض من كل جور، ويقدسها من كل ظلم، وهو الذي يشك الناس في ولادته.. الحديث[2].

وبالسند نفسه عن عبد السلام الهروي قال: سمعت دعبل بن علي الخزاعي يقول أنشدت مولاي الرضا عليه السلام قصيدتي التي أولها: مدارس أيات خلت من تلاوة..

فلما انتهيت إلى قولي:

خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله والبركات

يميّز فينا كل حقٍ وباطل ... ويجزي على النعماء والنقمات

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي ١: ٢٨١ تحقيق محمود أبو الفضل إبراهيم القاهرة ط٢، ١٩٦٥م.

(٢) فرائد السمطين للجويني الخراساني ٢: ٩٤ تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي.

بكى الرضاﷺ بكاءً شديداً ثم رفع رأسه إليَّ فقال: يا خزاعي نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام؟ ومتى يقوم؟

قلت: لا يا مولاي إلّا أني سمعت بخروج إمام منكم يطهر الأرض من الفساد ويملأها عدلاً.

فقال: يا دعبل الإمام بعدي محمد ابني وبعد محمد ابنه علي، وبعد علي ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر في غيبته المطاع في ظهوره ولولم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً.. الحديث[1].

هذا وقد صرح بعضهم أنه المولود من الحسن العسكري فقال بعد كلام:

... ثم تأخذ في ابتداء الاضمحلال إلى أن يصير الدين غريباً كما بدا وذلك الاضمحلال يكون بدايته من مضي ثلاثين سنة في القرن الحادي عشر فهناك يترقب خروج المهديﷺ وهو من أولاد الإمام الحسن العسكري ومولدهﷺ ليلة النصف من شعبان وهو سنة خمس وخمسين ومائتين وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى بن مريمﷺ فيكون عمره إلى وقتنا هذا وهو سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، سبعمائة سنة وست سنين، هكذا أخبرني الشيخ حسن العراقي المدفون فوق كوم الريش المطل على بركة الرطلي بمصر المحروسة، عن الإمام المهدي حين اجتمع به، ووافقه على ذلك شيخنا سيدي علي الحواص رحمهما الله تعالى.

ثم قال: وعبارة الشيخ محي الدين في الباب السادس والستين وثلثمائة من

---

(١) المصدر نفسه.

الفتوحات: واعلموا أنه لابد من خروج المهدي عليه السلام لكن لا يخرج حتى تمتلئ الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً، ولو لم يكن من الدنيا إلّا يوم واحد طول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلي ذلك الخليفة وهو من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ولد فاطمة عليها السلام، جده الحسين بن علي بن أبي طالب، ووالده حسن العسكري ابن الإمام علي النقي، بالنون، ابن محمد التقي، بالتاء، ابن الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يواطيء اسمه اسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبايعه المسلمون بين الركن والمقام..[1].

وفي تأريخهِ للامام الحسن العسكري قال أحدهم: ويكفيه شرفاً ان الامام المهدي المنتظر من أولاده.[2]

فالمهدي إذن هو محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

وما رواه البخاري وغيره من أصحاب الصحاح من أن الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم اثنا عشر خليفة[3].

فان عدد الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علي حتى المهدي اثنا عشر خليفة،

---

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر. للإمام عبد الوهاب الشعراني ٢: ١٧١ دار المعرفة بيروت.

(٢) الاتحاف بحب الاشراف. الشيخ عبدالله بن محمد الشبراوي: ١٧٨. المطبعة الادبية بمصر.

(٣) صحيح البخاري باب الاستخلاف ٢: ١٠١ دار الجيل بيروت.

فيتأكد بذلك حديث أن الخلفاء اثنا عشر خليفة، ومنه يثبت أن الثاني عشر منهم هو مهدي آل محمد المولود من الحسن العسكري، يملأها قسطاً وعدلاً، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

شبهة قديمة:

علّق الاستاذ محمد أبو زهرة عن الفرقة الاثني عشرية بقوله:

والاثنا عشرية، يرون أن الأمامة بعد الحسين لعلي زين العابدين ابنه، ثم لمحمد الباقر، ثم لجعفر الصادق وبعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم، ثم لعلي الرضا، ثم لمحمد الجواد، ثم علي الهادي، ثم للحسن العسكري، ثم لمحمد ابنه، وهو الامام الثاني عشر، ويعتقدون أنه دخل سرداباً في دار أبيه بسرٍّ من رأى وأمُّه تنظر إليه، ولم يَعُد بعد، وهو المهدي المغيب، ويترقبون كل حين ليحكم ويملأ الأرض عدلاً..[1]

وليت الاستاذ أبو زهرة قد تأمل ـ ولو قليلاً ـ لوجد نفسه غنياً عن هذه المقولة المجحفة، فالامامية تقول بغيبة الامام المهدي عليه السلام ودخوله إلى السرداب كانت حالة طارئة دفعته للاختفاء فيه عند مداهمة السلطة لبيت أبيه، وكانت خطوة احترازية ذكية، أربك فيها السلطة وقت ذاك بعد أن كانت القوة المسلحة المرسلة من قبل الخليفة لم تتوقع دخوله في سرداب بيته فان اخفاء نفسه في بيته المداهم لم يكن متوقعاً، فمن المستبعد لديهم أن المهدي الملاحق من قبلها يختفي في مكان قريب منها، ثم هو يخرج من بينهم خارج الدار وهم ينظرون إليه لعدم توقعهم أن الملاحق هذا الفتى الذي يخرج من السرداب ولم يعرفوا شكله

(١) الميزان عند الجعفرية مع ترجمة الامام جعفر الصادق عليه السلام للاستاذ محمد أبو زهرة منظمة الاعلام الاسلامي طهران ١٤٠٤هـ

حيث اخفاه أبوه عن أعين العامة، فمتى يتاح للقوة المداهمة معرفته وملاحقته بعد ذلك ؟

هذا ما كان من خبر السرداب الذي ترويه الشيعة وهو الموافق تماماً للخطوات الاحترازية الأمنية المتخذة من قبل أي شخص مطارد وقد دوهم بيته غيلة فضلاً عن المهدي الذي اتخذ في اختفائه خطوات طبيعية، ثم هي مناورة سريعة غير مرتقبة لا من قبل النظام، ولا من قبل القوة المداهمة حيث أربكها تماماً وأسقط مافي أيديها ورجعت خائبة لم تحقق مهمتها بعد ذلك.

اذن لم تعد كلمة «السرداب» انتقاصاً لمسألة الغيبة، حتى يعدها الآخرون عملية مستهجنة تدلل على سخف فكرة الغيبة، فأصل الغيبة ومستلزماتها لاعلاقة لها أصلاً بقضية السرداب، انما هو مقدمة تكتيكية كان الامام قد عملها بعد مداهمة قوات الأمن لبيته ثم يعاجلهم بعد ذلك بالخروج فوراً دون أدنى تأخير، فلم تكن مسألة السرداب هي المعبّر عن الغيبة اذن.

ان اعتماد مفردات بسيطة مستهجنة سوف يوحي للآخرين شعوراً بالسخرية والاستخفاف، وهكذا فإنّ اقتران أية فكرة مهما تكن عظيمة في جميع خطواتها بهذا النحو من المفردات الساذجة سيوحي بسذاجتها لما يتركه هذا الاقتران من انطباع نفسي لدى القارىء أو السامع فالسرداب الذي جعله البعض شعاراً لغيبة المهدي، هو تسرّع غير لائق في تحليل فكرة اسلامية أصيلة استندت إلى برنامج علمي دقيق وخطوات أمنية محسوبة فضلاً عن دعمها بنصوص نبوية متواترة.

إن خطوات المشاريع التثقيفية خصوصاً في طرح غيبة المهدي، ترافقها خطوات استفزازية، تحفّز القارىء إلى الحذر من فكرة المهدي، وتُسْلِمه إلى دائرة التشكيك في مبتنيات الفكرة المهدوية.

ولعل من أحسن من أنصف في مجال التاريخ للفرقةِ الاثني عشرية هو الاستاذ أبو زهرة، ومع ذلك فان توجساً يحيط كلامه بالحذر مرة والاستخفاف ثانية عند طرحه لعقيدة المهدي، ولعل الذي دعاه إلى ذلك عدة أمور، منها اولاً: الموروث الثقافي الذي يطارده.

وثانياً: فإن عدم رجوعه إلى أحاديث نبوية قد سلّم هو بها كما سلّم غيره عن ظهور المهدي، قد أربك تقييماته هذه فجاءت وكأنها استجابة لمشاريع تقليدية مضادة.

وثالثها: ولعل الأهم هو إغفاله لكتب علماء الامامية ومراجعة ما أثبتته بطرق الفريقين حول فكرة المهدي وكونها فكرة اسلامية قالت بها جميع المذاهب، وان مسألة السرداب لم تكن شعاراً لاطروحة الغيبة الالهية، وإنما هي من افرازات العصبية المذهبية، ابتدعها نفر للتقليل من شأن هذه الاطروحة والاستخفاف بفلسفتها.

خاتمة المطاف..

ساهمت حقبة فكرية غير ناضجة في قلب صورة الحدث الاسلامي، وراحت تزاحم مبتنيات تركيبة العقل المسلم، الذي درج على مرتكزات الخلافة، والتي عنونتها أدبيات الفكر المعصومي على أنها خلافة نبوة. وجاهدت مبتنيات سياسية غير رشيدة أن تعنونها على أنها خلافة ملك قيصري، أو أُبهة كسروية، وبين هذين العنوانيين حفلت مطولات التاريخ الإسلامي بـ«لائحة من التبريرات» يتكفلها الكاتب التقليدي ليُلزم بها القارئ المتطلع إلى قراءة الحدث الإسلامي بموضوعية وواقعية، وهيّأت هذه الحقبة الفكرية للكاتب الاسلامي أن يكون مجرّد سارد قصصي يحاكي في نقل التاريخ قصص ألف ليلة وليلة، ليسرد الحدث الاسلامي هكذا دون تحليل، أو إذا أحسن التدبير فانه لا يكون سوى مخرج لدراما قصصية يتفكه بها القارئ ليُضيفها إلى دائرة ترفه الأدبي.

أثقلت الحقبة الأموية كاهل التاريخ الاسلامي بخروقات يرتكبها الخليفة الأموي، ليطلب بعد ذلك من «كتّاب البلاط» أن يؤرخو شخصيته الاسلامية على أنها أسهمت في تطوير المفهوم الإسلامي، وإعلاء كلمة الله في ظل حكمه.

لم يكن هذا التحرك الفكري ينطلق من فراغ، بل كان على أنقاض سياسة ما بعد الرسول ﷺ، والتي فتحت أبواب «التبرير السياسي» واستخدام «مصطلحات الاعتذار»، فمن محاولة إطفاء نائرة الفتنة التي توجّسها كادر السقيفة، كانت أهم

إطروحة تبريرية سياسية لم تلق نجاحاً ملحوظاً، حتى محاولات استخدام اصطلاحات اعتذارية، كالاجماع، وأهل الحل والعقد، وأقل ما يقال إنها محاولات مرتبكة أخفقت في مجال التطبيق الميداني.

هذه السياسة استخدمها الأمويون، ولهج في تطويرها منظّروهم من «كتّاب البلاط»، فقدّموا صيغاً تبريرية جاهزة يستخدمها البلاط حتى ما بعد حياة الخليفة الأموي، فمن اللهو والعبث الذي قرره «كتّاب البلاط» على أنه تقدّمٌ رائعٌ في مجال الفن الاسلامي، وصورة من صور تواضع الخلافة، إلى الترف والبذخ داخل البلاط، الذي عبروا عنه أنه قمة الكرم والسخاء، ومن البطش والجبروت الذي امتاز به آل أمية، فصوّروه بأنه البأس والشجاعة في ذات الله وعزة الدولة الاسلامية، إلى حالات الاخفاق الفكري والثقافي، فكان في منظوره حالة من حالات الوعي الفكري والنضوج الثقافي.

لم تتوقف حالات الخرق الفكري هذه عند بني أُمية فحسب، بل تابعهم على ذلك بنو العباس، وافتتحوا عهد حكمهم بأهم شعار تبريري رفعوه كلافتة ثورية تنادي «بالرضا من آل محمدﷺ»، وأكّدوا على ذلك في جميع أدبياتهم حتى بدأت شعاراتهم تتهاوى إبّان عهد خليفتهم السفاح الذي قرر مشروع ملاحقة آل علي والتضييق عليهم، وأكد ذلك المنصور،وطوره الرشيد، وتبعه الباقون.

وإذا أردنا دراسة هذه الحقب الحاكمية ومعرفة ما أثقلته من خروقات شرعية وفكرية وثقافية على المفهوم الاسلامي، فإن دراسة تقليدية لم تكن لتقدم المطلوب، بل محاولة دراسة «التاريخ المقارن» بين قائمتين من مدرستي النزاع كفيلة بأن تقدّم الرؤية الإسلامية الواعية.

وهو ما تكفلته بحوثنا السالفة.

فدراسة قائمة خلفاء مدرسة النص المتمثلة بآل البيت النبوي عليهم صلوات الله ، وما صاحبها من قراءة سيرة الأئمة الأطهار الذين مثّلوا الورع والتقوى والهدى والخير والصلاح ، كفيلة بأن تكشف خروقات قائمة خلفاء مدرسة الإجماع ، وهو كما ترى فضح «للتاريخ التبريري» الذي درج عليه البعض من الكتّاب ، وإسقاط لجميع المرتكزات المغلوطة في أذهان الأُمة ، من أن الخليفة ملك كسروي ، أو أمير قيصري ، بل أن الخلافة وراثة نبوة ، وحمل رسالة ، وعيبة وحي السماء .

والحمدُ لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما ألهم .

مراجع البحث

١ ـ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ .

٢ ـ ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة .

٣ ـ ابن الجوزي ، صفة الصفوة .

٤ ـ ابن الجوزي ، صيد الخاطر .

٥ ـ ابن العربي ، أحكام القرآن .

٦ ـ ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة .

٧ ـ ابن حجر ، الصواعق المحرقة .

٨ ـ ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون .

٩ ـ ابن خلكان ، أبو العباس ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

١٠ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى .

١١ ـ ابن كثير ، السيرة النبوية .

١٢ ـ ابن ماجة ، سنن ابن ماجة .

١٣ ـ ابن منظور ، لسان العرب .

١٤ ـ ابن هشام ، السيرة النبوية .

١٥ ـ الاصفهاني ، الراغب . المفردات في غريب القرآن .

١٦ ـ الاصفهاني ، أبو نعيم . حلية الأولياء .

١٧ ـ الباجي ، أبو الوليد ، إحكام الفصول في أحكام الأصول .

١٨ ـ المقريزي، تقي الدين أبو العباس. النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم.
١٩ ـ الإمام السنّدي، شرح سنن ابن ماجة.
٢٠ ـ الأندلسي، ابن حزم ـ المحلى.
٢١ ـ الأندلسي، ابن حزم، ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل.
٢٢ ـ الأندلسي، ابن عبد ربه، العقد الفريد.
٢٣ ـ الانصاري، زكريا ـ فتح الوهّاب بشرح منهج الطلاب.
٢٤ ـ أبو علم، توفيق، أهل البيت.
٢٥ ـ البخاري، صحيح البخاري.
٢٦ ـ البستي الخطابي، أبو سليمان، معالم السنن شرح سنن أبي داوود.
٢٧ ـ البلخي القندوزي، ينابيع المودة.
٢٨ ـ البيهقي، أحمد بن الحسين. الاعتقاد على مذهب السلف، أهل السنة والجماعة.
٢٩ ـ الترمذي، سنن الترمذي.
٣٠ ـ التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد.
٣١ ـ الجاحظ، أبو عثمان. البخلاء.
٣٢ ـ الجندي، عبد الحليم، الإمام جعفر الصادق.
٣٣ ـ الجويني الخراساني، فرائد السمطين.
٣٤ ـ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين.
٣٥ ـ الخضري بك، محمد، محاضرات تاريخ الأُمم الإسلامية، الدولة الأموية، الدولة العباسية.

٣٦ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد .

٣٧ ـ الخطيب ، عبد الكريم ، الخلافة والإمامة .

٣٨ ـ الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى .

٣٩ ـ الدنيوري ، ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة .

٤٠ ـ الذهبي ، الكاشف .

٤١ ـ الذهبي ، سير أعلام النبلاء .

٤٢ ـ الذهبي ، ميزان الاعتدال .

٤٣ ـ الرازي ، الفخر ، تفسير القرآن .

٤٤ ـ الزركلي ، الأعلام .

٤٥ ـ السيوطي ، أسباب النزول .

٤٦ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء .

٤٧ ـ الشبلنجي ، مؤمن بن حسن ، نور الابصار .

٤٨ ـ الشريف البرزنجي المدني ، الإشاعة لاشراط الساعة .

٤٩ ـ الشعراني ، عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى .

٥٠ ـ الشعراني ، عبد الوهاب ، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر .

٥١ ـ الصديق حسن ، محمد ، الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة .

٥٢ ـ الطبري ابن جرير ، تاريخ الطبري .

٥٣ ـ الطبري ، محب الدين ، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى .

٥٤ ـ طه حسين ، الفتنة الكبرى .

٥٥ ـ العسقلاني ، ابن حجر ، فتح الباري . شرح صحيح البخاري .

٥٦ ـ العقيلي ـ كتاب الضعفاء الكبير .

٥٧ ـ علي عبد الرزاق ، الإسلام وأصول الحكم .

٥٨ ـ العيني ، بدر الدين بن أحمد ، عمدة القاريء ـ شرح صحيح البخاري .

٥٩ ـ الفراء البغوي ، معالم التنزيل .

٦٠ ـ القرآن الكريم

٦١ ـ كرد علي ، محمد ـ خطط الشام .

٦٢ ـ الكشميري الديو بندي ، فيض الباري على صحيح البخاري .

٦٣ ـ الكنجي الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، البيان في أخبار صاحب الزمان عج .

٦٤ ـ الليثي ـ عبد الله ـ هامش رجال البخاري .

٦٥ ـ الليثي ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

٦٦ ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة .

٦٧ ـ المسعودي ، مروج الذهب .

٦٨ ـ مسلم ، صحيح مسلم .

٦٩ ـ المعتزلي ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة .

٧٠ ـ النبهاني ، يوسف بن اسماعيل ، جامع كرامات الأولياء .

٧١ ـ النجار ، عبد الوهاب ، قصص الأنبياء .

٧٢ ـ النسائي ، خصائص أمير المؤمنين .

٧٣ ـ النصائح الكافية لمن يتولى معاوية .

٧٤ ـ الهندي ، كنز العمال .

٧٥ ـ اليافعي اليمني ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان .

محتويات الكتاب